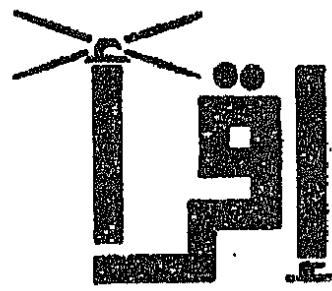


د. تونيس عوض

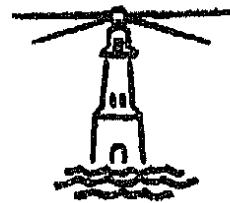
أفتا

حلقة الشرق والغرب





تصدر في أول كل شهر
رئيس التحرير: السيد أبو النجاشي



دار المعارف بمصر

كتاب المعارف بـ دار المعارف

د. لويس عوض

رحلات الشرق والغرب

اقرأ

٣٥٤

دار المعارف بمصر

اقرا ٣٥٤ - يونيو سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

الباب الأول

رحلاتي الروسية

الفصل الأول

١٠ أيام في يوغوسلافيا عقبة أوربا الاشتراكية

كان قدرًا أن أكون آخر من زار روسيا من الأدباء المصريين المعروفين . وقد بدأ الروس يستقبلون في بلادهم أدباء مصر منذ سنة ١٩٥٥ ، وكان المرحوم الدكتور محمد مندور رئيس أول وفد من الأدباء المصريين يزور الاتحاد السوفييتي . منذ ذلك التاريخ سافرت وفود ووفود بدعوة من اتحاد الكتاب في روسيا ، وعقدت مؤتمرات ومؤتمرات في الاتحاد السوفييتي ، وكانت تأتي الأنباء بين الحين والحين أن اتحاد الكتاب قد وجه إلى " دعوة بالاسم " ، ثم يثبت أن هذا غير صحيح ، أو أن الدعوة لم تصلني ، وكنت أحس إحساساً واضحاً بأن في ثقافي فجوة عميقة . كنت كالكثيرين أعرف الكثير عن الأدب الروسي من بوشكين إلى جوركى عبر تولستوى ودostويفسکى وجوجول وتورجنيف وتشيكوف ، وكنت كالكثيرين أحياول أن أعرف شيئاً عن الأدب الروسي منذ الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧ من يسنين إلى يفتوشنكو عبر ما ياكوفسکى وباسترناك وإهرينبورج .. الخ ..

وكنت أعرف الكثير عن الفكر الماركسي والنظام الشيوعى نظريّاً

و عملياً ، ما همما وما عليهما ، من قراءتي في ماركس وإنجلز ولينين وبليخانوف وبخارين وروزا لكسنبرج وستالين وتراتسكي وماكس إيسمان وسيدفي وبياتريس ويب وشارل بتلهايم ، ثم ما استجد من اجهادات في الثلاثينيات (هولدين وبرنال وهوجن) والأربعينيات والخمسينيات والستينيات ، فقد كنت دائماً ولا أزال من هواة الفكر الاجتماعي والسياسي . وكنت أقرأ المعارضين والمنقحين والمرجعين والمنحرفين بنفس الحماس من كاوتسكي إلى جيمس بيرنام ومن سيلوفى وكيسلى إلى جورج أوروبل . وما زلت أقرأ اجهادات أوكتاش وجارودى وألتوسير بنفس الحماس . ولكن ليس من رأى كمن سمع . ولهذا كنت دائماً أحس بأن أي حكم يطلق على المجتمع الاشتراكي السوفيتى أو الفكر الاشتراكية السوفيتية هو بغير قيمة حقيقية ما لم ير المرء كل هذه الأفكار وتطبيقاتها على الطبيعة .

ومنذ عام زارني في «الأهرام» الرفيق سوفرونوف رئيس تحرير مجلة «أوجانيك» ودعاني لزيارة روسيا على نفقة مجلته ، فأبديت له تحفظى من قبول الضيافة وأضفت : «لكل شيء أوان ، وأنا لست متراجلاً ، ولكن» عندى يقيناً بأنى سأزور الاتحاد السوفيتى في يوم من الأيام .. على كل حال قبل أن أموت » ، فضحك الرجل السمين لتوجسى ضحكة سمينة .

ولم أكن أعلم أن هذا اليوم قريب . وقد جاء اليوم فجأة ودون ترتيب . فقد زارني في مكتبي بالأهرام منذ شهرين أو ثلاثة مسيساً وبتكوفيتش المستشار الثقافى للسفارة اليوغوسلافية وتفضل بدعوى لزيارة بلاده بمناسبة

حاول مهرجان الفنون السنوي في دبروفنيك خلال يوليو وأغسطس ١٩٧٠ فقبلت الدعوة شاكراً دون تردد . ثم عجبت لقبول الفوري ب رغم أني ، بمنتهى الصراحة ، لم أكن متخصصاً بصفة خاصة للتتجربة اليوغوسلافية في الاشتراكية ، ولم أكن بصفة خاصة من هواة الثقافة اليوغوسلافية ، ولم يكن في يوغوسلافيا - بلداً أو شعباً - شيء يلهب خيالي أو يسحر وجداني حتى يلهبني عن مبدأ رفض كل ضيافة . وبعد أن استعرضت الموقف في هدوء زال عجبي . لقد كنت دائماً أتحاشى الأغنياء وأتوjos من الأقوباء ولا أقبل جميلاً إلا من هم في طبقتي . ولم يكن في اليوغوسلاف شيء يخيفني كمصري ، فتحمن شعبان صغيران نامييان ، وإذا كان لهم فضل الحداة فلنا أيضاً فضيل القدم . ووافقتني الأستاذ هيكل على أن تكون رحلتي اليوغوسلافية بداية مناسبة لرحلتي الروسية على نفقة الأهرام . وما دمنا مع الاشتراكيين فلننظر إلى الاشتراكية في كل مكان ، لا أقول فلندريں وإنما أقول فلننظر فكل هذا لا يمكن أن يدرس في شهر واحد . وقررت أن أبدأ بيوجوسلافيا ثم أدخل إلى روسيا ثم أزور بولندا ثم أعرج على ألمانيا الشرقية ومنها إلى تشيكوسلوفاكيا ثم أعود .

وفي ١٥ يوليو وجدتني في مطار بمجراد أنتظر من يتظارني . فقد كان من المقرر أن يتظارني في المطار مرفاق موافق من وزارة الثقافة اليوغوسلافية أو من الإدارة المنظمة لمهرجان دبروفنيك ، ولكن أحداً لم يظهر ، قيل فيما بعد لأن شركة الطيران العربية المتحدة أجلت موعد سفر طائرتي ٤٤ ساعة . وكنت أتمير غيظاً وأضطررت قلقاً . أكلم الناس

بالإنجليزية فلا يفهمون ، وأجرب الفرنسية فلا يفهمون ، ووجدت نفسي فيجأة في عالم غريب لا أعرف فيه أحداً أو شيئاً أو عنواناً، وجميع أدوات الإرسال والاستقبال بيّن وبين العالم معطلة فيها خلا لغة الإشارة . وأخيراً وضعت نفسي في تاكسي وقلت « هوتيل » ففهم السائق وحملني إلى هوتيل سلافيا . وما إن وضعت حقائبى حتى انطلقت بتاكسي آخر إلى السفارة المصرية ببلجراد لأستعين بها على المجهول اليوجوسلاف ، أى لتصلني السفارة بوزارة الثقافة اليوجوسلافية أو منظمى مهرجان دوبروفنيك فوجدت سفارتنا خاوية على عروشها تحفها السقايل والملاط وصفائح البوية من كل جهة ومن داخل الحجرات والدهاليز والقاعات ، فقد كانت بها « عمرة » شاملة ولم أجد بها إلا سكرتيرة يوجوسلافية شابة تعرف الإنجلizية ولا تريد أن تتحرك ساكناً . وعرفت أن أمور السفارة تصرف مؤقتاً من بيت السفير . فعدت إلى الفندق وبحثت بين أوراق عن خط يوصلني بالعالم الخارجي فوجدت رقم تليفون الزميل فريد كامل مراسل ا.ش.ا. في بلجراد .

وخف إلى فريد كامل على عجل ، وفي أقل من ساعة خرجت من هذه الورطة الغريبة . في أقل من ساعة خف إلى المراقب المترجم المعين لمساعدتي واتفقنا على برنامج الرحلة .

وخرجت أتجول في مدينة بلجراد فوجدمها مدينة جديدة نظيفة باهتة بلا شخصية ، بها بعض العمائر الأثرية القليلة ، ولكن طابعها العام حديث ، وأبرز ما فيها عساكر المرور الذين ينظمون المرور في

مياذنها الفسيحة كأن كلّا منهم يقود أوركسترا من السيارات ، كذلك أبرز ما فيها أن يوم العمل بها يبدأ في الساعة السابعة صباحاً فإذا نظرت من نافذتك بالفندق في السادسة صباحاً رأيت الشوارع مكتظة بالسيارات وبالمارة ، كل يسعى لعمله وكأنك في الساعة التاسعة في أحد ميادين القاهرة الكبرى . وسرعان ما أدركت برغم عوائق اللغة أنّي وسط شعب معقد التكوين ، لأنّه متعدد القوميات ، متعدد اللغات ، متعدد الثقافات ، متعدد الأيدياليات ، متعدد الأديان ، ففي يوجوسلافيا ٢٠ مليون نسمة ينقسمون إلى ستة شعوب مختلفة يضمها إطار سياسي واحد ، وهذه الشعوب هي الصربي (نحو ٨ ملايين) والكردات (نحو ٤,٥ ملايين) وسكان سلوفينيا (نحو ١,٧ مليون) والبوسنة والهرسك (نحو ٣,٥ ملايين) ومونتينغرو أي الجبل الأسود (نحو نصف مليون) ومقدونيا (نحو ٥١ مليون) . وهناك قومية إسلامية قوامها نحو مليون مسلم إلى جانب المسلمين المندرجين تحت القوميات الأخرى .. هذا بالإضافة إلى الأقليات القومية الأخرى التي تعيش في يوجوسلافيا كالأتراك (نحو ربع مليون) ، والمجرو (نحو نصف مليون) ، والغجر (نحو ٤٠ ألفاً) والألبان وغيرهم وهم يمثلون نحو عشر سكان البلاد ، وقد سمعت أن الغجر في يوجوسلافيا قد رفعوا شعار : «يا غجر العالم اتحدوا» وأنّهم يطالبون بوطنه القومي للغجر وبجمهوريته غجريه داخل الإطار السياسي اليوجسلاف . والقوميات الرئيسية في يوجوسلافيا تعيش في جمهوريات شبه مستقلة داخل إطار الجمهورية اليوجسلافية التي يرأسها الرئيس تيتو . فإذا عرفت

أن يوجوسلافيا في مجتمعها لم تولد كدولة إلا عام ١٩١٨ بموجب معاهدة فرساي التي قننت تجتمع كل هذه الأشتات في دولة واحدة ، ذهلت أن تجند هذه الدولة الملفقة التي كانت مقسمة بين تركيا واليونان والمنسا والمجر تسعى نحو وجود سياسي واحد ونحو هدف قومي واحد . وفي اعتقادى أنها لم تنجح في تحقيق هذه الوحدة السياسية إلا بفضل اعترافها بالشخصيات القومية المختلفة وبالثقافات القومية المختلفة التي يتتألف منها الاتحاد . فاو أن الكروات حاولوا طمس ثقافة الصرب أو أن الصرب حاولوا طمس ثقافة المقدونيين . . إلخ . لعزقت يوجوسلافيا وتفسخت قبلما تقوم لها قائمة .

ولأن يوجوسلافيا دولة جديدة فمما صفتها بلجراد عاصمة جديدة أيضاً . . واسم يوجوسلافيا اسم حديث لا معنى له إلا «بلاد السلاف الجنوبيين» تمييزاً لهم من سلاف الشمال من تجدهم في روسيا وغيرها ، فالعنصر الغالب في يوجوسلافيا إذن هو الجنس السلافي ، ومن هنا كان اليوجوسلاف بوجه عام ثقال العظام كالروس ولكن بيئتهم الجبلية جعلتهم أكثر خشونة وغلظة وأقل وسامة وأطول ألواناً من الروس ومن كافة السلافيين في تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وقلما تجد بينهم رجالاً أو امرأة يتميز بالدقة أو الرشاقة في التكوين الجسماني ، ولكن الجميلات من نسائهم جمعن بين الجمال والجسم الرياضي الذي لم تتلقه المدنية بعد . وإحساسى أن تكوينهم الجسماني الجبلي ينعكس أيضاً في سلوكهم وسيرهم وحركتهم بوجه عام .

أما بـلجراد نفسها ، فرغم أنها عاصمة جديدة ، صغيرة التعداد نسبياً (نحو مليون نسمة) ، فيقال لك إنها مدينة عمرها ألفاً عام أو يزيد ، ومعناها «المدينة» [جراد] البيضاء [بيو] أو إن شئت أن تقرها للعربية فهي «المدينة البالقاء» والأبيض والأباق شيء واحد . وعرفت من آثار بلجراد أن أساس هذه المدينة وضع في القرن الرابع ق.م. أيام فتح قبائل الكلت لهذه المنطقة من البلقان وكان اسمها يومئذ سنجدن ، أى قلعة السنج ، كما أن لندن معناها قلعة اللون ، فكلمة «دون» تعني قاعدة أو حصنًا في لغة قبائل الكلت ، فهي إذن بدأت كتحصينات حربية ، وقد أدرك الترك قيمتها العسكرية فيما بعد وأنشأوا فيها تحصينات تعرف حتى الآن باسم كلاميجدان ، وهي كلمة تركية يقول من رأيهم من المصريين أنها تحريف لعبارة «قلعة الميدان» العربية أما مراقبو اليوغوسلافي فيضر على أن الكلمة تركية صميمها معناها الحرف «معسكر القتال» أو كما نقول نحن «ميدان القتال» ، والله أعلم . وعلى كل إخواننا المصريون قد تعودوا منذ سنوات قريبة أن يروا العرب ولغتهم وراء كل أكمة وخلف كل شجرة من بلاد الصنوبر إلى بلاد البنجوين . وقد حدثنى السيدة المشرفة على مهرجان دوبروفنيك ، قالت إن شاباً مصرياً فسر لها أصل اسم دوبروفنيك بأنه مادامت «دوبرو» في اللغة اليوغوسلافية معناها «الغابات» وما دام العرب قد عرفوا «البنديمية» فاسم دوبروفنيك إذن مأخوذ من العربية ، ومعناها إذن «بنديمية الغابات» [بدلاً من مدينة البنديمية البحرية] ، فضحت وقلت لها : ربما ،

ولكن إذا كان هذا اشتقاق اسم بلدتك ، فالرومانيون والأتراك لم يكونوا بحاجة إلى العرب ليعلمونهم أن بلدتهم فينيسيا كان اسمها فنديكيا ، فقد كان هذا اسمها اللاتيني قبل أن يخرج العرب إلى الأمسار برّاً وبحراً . وعلى كل فلا داعي للخجل ، فهذه الفهلوة المصرية قد لمست نظيراؤها في الفهلوة اليوغوسلافية .

كنت قد طلبت لقاء أديبهم الكبير إيفو اندربيتش وسواء من الأدباء المعروفيين ، فوجده في مصحة ووجدت أكثرهم في الأرياف وعلى الشواطئ وفي خارج البلاد . قال محدثي — وهو المقابل اليوغوسلافي للدكتور محدثي وهبة في إدارة العلاقات الثقافية الخارجية — إن إيفو اندربيتش يسبب لنا حرجاً شديداً . فمنذ أن ماتت زوجته منذ سنوات وهو في حالة كآبة مستمرة ، وقد زهد في الكتابة والحياة ، يدخل المصحات بمعدل مرتين سنوياً وتأتيه الدعوات له من اليابان أو السويد أو غيرهما ، فيجيب بأنه قبلها ، وحين يحين موعد رحلته تبحث عنه في كل مكان فنجده معتكفاً في مصحة عازفاً عن لقاء الناس . لقد قال لي مرة إنه منذ وفاة زوجته لا يعرف لماذا يعيش . لقد كف عن الكتابة تماماً . أجبت : لقد لاحظت عليه شيئاً من ذلك . فقد عرفته في القاهرة أيام أن استقبيله الدكتور ثروت عكاشه ، ثم تركنا فجأة وطار إلى يوغوسلافيا . قال إنه مريض ، ولكن يبدو أن ذوبان الكآبة أدركته .

وركزت على دراسة حالة المسرح في يوغوسلافيا لعل أجد في تجربتهم المسرحية شيئاً يمكن أن ننتفع منه في مصر ، فتعزرت على المخرج

الناقد الموهوب تشير يلوف وفي أكثر من لقاء حصلت منه على صورة دقيقة للحياة الفنية في يوجوسلافيا .

عرفت منه أن في يوجوسلافيا نحو خمسين مسرحاً مختلفاً ، كلها تابعة للدولة ، وليس لديهم مسرح خاص واحد ، وكل هذه المسارح معاونة من الدولة ولكن المهيمن على المسارح في يوجوسلافيا ليس وزارة الثقافة وإنما المجالس البلدية في كل جمهورية من جمهوريات يوجوسلافيا الفيدرالية الشعبية .

أما في بلجراد نفسها ففيها سبعة مسارح هي :

١ - المسرح القومي وعمره ١٠٠ عام ، وهو ليس مختصاً بالدراما وحدها وإنما يضم فرقة للتمثيل المسرحي وفرقة للأوبرات وفرقة للباليه ، وله حالياً مرسحان ، أو خشبتان ، ويبنى له الآن مرسح ثالث ، وهو يقدم سنوياً نحو سبع مسرحيات جديدة وثلاث أوبرات جديدة بالإضافة إلى الإعادات [الريبراتور] ، أما فرقته المسرحية فأعضاؤها نحو خمسين ممثلاً وممثلة.

٢ - مسرح الدراما اليوجوسلافية ، وقد تأسس في ١٩٤٨ وله خشبتان في بلجراد ، مسرح يتسع لسبعيناً متفرج ومسرح يتسع لأربعين ، وفرقته المسرحية تضم ٧٢ ممثلاً وممثلة يقدمون على الخشبتين بين ١٠ مسرحيات و ١٢ مسرحية جديدة سنوياً .

٣ - المسرح الحديث أو المعاصر له خشبتان ، وهو يقدم الأوبريتات والكوميديا الموسيقية كما يقدم العروض الدرامية ، وحصيلته السنوية من ١٠ إلى ١٢ عرضاً جديداً على الخشبتين وبه نحو ١٠٠ فنان وفنانة منهم ٧٠ للتمثيل المسرحي و ٣٠ للغناء .

٤ - مسرح الأتلبيه ٢١٢ وقد أنشئ عام ١٩٥٦ ويضم ٢٢
مثلاً ومثلة وله خشبستان الكبرى سعتها ٤٠٠ متفرج والأخرى صغيرة
كمسرح الجيب .

٥ - مسرح الأطفال [إتلبيه بوشكويوسا] .

٦ - المسرح الشعري وهو مخصص للدراما الشعرية والقراءات .

٧ - مسرح الدراما القومية وهو مخصص لعرض إنتاج الأدباء
اليوجوسلافيين وتنمية المواهب الجديدة .

أما بالنسبة لتكليف إنتاج المسرحيات فقد عرفت من المخرج الناقد
الشاعر تشيرياوف [وهو أيضاً مدير مسرح اتلبيه ٢١٢] أن متوسط
الحد الأقصى وتتكليف أكبر عرض عرفه المسرح اليوجوسлавى هي ٣٠٠
ألف دينار يوجوسلافى أي ما يساوى نحو عشرة آلاف جنيه مصرى خلاف
مرتبات الممثلين والإدارة ، وإن إنتاج مسرحية من مسرحيات شكسبير
يكلف ما بين ٧٠٠ و ١٠,٠٠٠ جنيه خارج مرتبات الممثلين والإدارة
(أى بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف دينار) ، وأن متوسط الحد الأدنى لتكليف
المسرحيات البسيطة هو ٥٠ ألف دينار أي نحو ١٧٠٠ جنيه . أما
المسرحيات العادية فينفق عليها نحو ٥٠٠٠ جنيه (١٥٠ ألف دينار)
خلاف مرتبات الممثلين والإدارة . وقد ذكر لي تشيرياوف أن « في التظار
جودو » وما هو في حكمها قد كلفتهم ١٠٠ ألف دينار (أى نحو ٣٣٠٠
جنيه) .

كل هذا النشاط المسرحي يشرف عليه في بلجراد هيئة تسمى « مجلس

الشئون الثقافية ». وكل المسارح يعينها المجلس البلدي باستثناء المسرح القومي الذي يعيّنه مجلس بلدية بلجراد كما تعيّنه جمهورية الصرب .

أما الاعانة التي تتلقاها المسارح في يوغوسلافيا فليست رقمًا أصم كل سنة كميزانية الإنتاج والخدمات المسرحية في هيئة المسرح عندنا ولكنها مترتبة بحجم جمهور المسرح الذي يدخل طرفاً في تحديد الإعانة . فالجبلس البلدي يدفع لكل مسرح إعاناً متساوية لدخله من شباك التذاكر طوال العام ، فإذا كان متوسط ثمن التذكرة المباعة فعلاً ١٠ دنانير وعدد رواد المسرح ١٠٠ ألف شخص دفعت البلدية إعاناً قدرها مليون دينار وتشجيعاً للتأليف المسرحي القومي ترفع الإعاناً بنسبة ٥٪ بالنسبة لعرض أعمال المؤلفين اليوغوسلافيين ، كما تدفع البلدية إعاناً ابتدائية إضافية قدرها ٥٠٠٠ دينار (نحو ١٧٠ جنيهاً) عن كل مسرحية جديدة تخرج مؤلف يوغولي بشروط أن يستمر عرضها عشر حفلات ، وهو مبلغ رمزي ، ولكنهم يعتبرونه حافزاً لإنتاج المؤلفات المسرحية القومية إلى جانب الخمسين في المائة الإضافية التي تدفع فوق الإعاناً المتساوية لحصيلة شباك التذاكر . ولكن لكي لا تتساقط الفرق في بلجراد على استرضاء الجمهور بعرض المسرحيات الرخيصة طمعاً في شباك تذاكر ضخم وإعاناً حكومية ضخمة ، يخصص المجلس البلدي سنوياً إعاناً قدرها مليون دينار (نحو ٣٣ ألف جنيه) بصفة جوائز لأحسن أعمال مسرحية تعرض من حيث القيمة الفنية خلال العام بناء على قرار هيئة تحكيم بصرف النظر عن عدد الرواد لكل مسرحية ، وهذا المبلغ قد يعطى

كجائزه واحدة أو جائزتين أو ثلاث جوائز وقد يصل العدد إلى عشر جوائز .
أما حق المؤلف المسرحي فمحدد على الوجه التالي : ١٠ آلاف دينار
(نحو ٣٣٠ جنيهها) مكافأة يضاف إليها ١٢٪ من حصيلة شباك التذاكر
عن كل حفلة يعرض فيها أعماله سواء في موسمه الأول أو في الإعادات .
والدولة تنتظر مقابل هذه الإعلانات من كل مسرح انتاجاً كمياً
متواسطه خمس إلى ست مسرحيات جديدة كل عام بالإضافة إلى ما بين
١٥ إلى ٢٠ إعادة من مسرحيات الرِّبْوتوار . والمقصود بالمسرحيات
الجديدة لا المسرحيات الخديوية التأليف ولكن المسرحيات التي لم يسبق
تقديمها على هذا المسرح بالذات ولو كانت من اليونان أو من شكسبير
أو راسين أو من المحدثين .

والممثلون يتناصفون في يوجوسلافيا بوجه عام نفس المرتبات التي
يتناصفها المخرجون ويعامدون نفس المعاملة المالية من جميع الوجوه ، إلا في
جمهوريَّة سلوفينيا ، وهي أرق جمهوريات يوجوسلافيا من الناحية الفنية
والحضارية ، فإن مرتبات الممثلين فيها تقل عن مرتبات المخرجين بنسبة
٢٠٪ ، والمخرج الضيف يتناصف في يوجوسلافيا ما بين ١٠,٠٠٠,٥٠٠٠ دينار على
كل مسرحية يخرجها بحسب مكانه أي ما بين نحو ١٧٠ جنيهها
و ٣٣٠ جنيهها ، وجدول المرتبات محمد كالآتي : ١٠٠٠ دينار شهرياً
للفنان المبتدئ (مثلاً كان أو مخرج) أي نحو ٣٣ جنيهها و ٢٠٠٠ - دينار
(٦٦ جنيهها) للفنان المتوسط و ٣٠٠٠ دينار (١٠٠ جنيه) للفنان الكبير
وهذه المرتبات تعادل على وجه التقرير ما يتناصفه أساتذة الجامعات

في ريو جوسلافيا ، ولكن للفنانين عادة دخل إضافي من التليفزيون يعادل ضعف دخلهم من عملهم الأصلي ، وقد يصل إلى ثلاثة أمثاله . وجدول مرتبات فناني التليفزيون مطابق بجدول مرتبات فناني المسرح . أما المخرج السينمائي فيتقاضى ١٠٠ ألف دينار عن كل فيلم يخرجه (نحو ٣٣٠٠ جنيه) تدخل فيها مكافأة الحوار .

ومقابل المرتب الذي يتلقاه يشترط على المخرج أن يخرج مسرحيتين سنويًا في مسرحه على وجه الإلزام ويجوز له أن يتجاوز هذا النصاب بالإخراج للمسارح الأخرى أو في مسرحه بمكافأة مستقلة .

وميزانية المسرح القومي ٤ ملايين دينار سنويًا أي نحو ١٣٣ ألف جنيه تمثل لإيرادات الشباك منها ٢٠٪ وتمثل إعانة البلدية منها ٨٠٪ أما مسرح الالبيه ٢١٢ فميزانيته السنوية مليون دينار فقط (نحو ٣٣ ألف جنيه) ٣٠٪ منها من إيراد الشباك و ٧٠٪ من إعانة المجلس البلدي ، هذا بالرغم من أن المسرح القومي به ١١٠٠ كرسى بينما مسرح الالبيه به ٤٠٠ كرسى (متوسط المسارح الأخرى نحو ٥٠٠ كرسى) .

وهذه الإعانة التي تصل إلى ٨٠٪ من ميزانية بعض المسارح ناتجة من أن مرتبات الفنانين والإداريين والفنين والإضاءة والصيانة إلخ مع نفقات الإنتاج المسرحي تساوى أربعة أمثال دخل الشباك . ولكن تشير يافو夫 أوضاعه إلى أنه بوجه عام تغطى الإعانة المرتبات ويغطى لإيراد الشباك نفقات الإنتاج . وميزانية كل مسرح تنفق بنسبة ١ للفنانين : ٢ لغير الفنانين (الإداريين والفنين إلخ . .) وهذا في رأيه هو العرف

المستقر في أوروبا كلها منذ مائة عام في مسارح الربيرتوار ، أما في مسارح البولفار (التجارية) فالفنانون ليسوا موظفين ولكن يعملون بالقطعة . . وكل زيادة في حصيلة الشباك في المسارح اليوغوسلافية تؤدي للمسرح ويمكن إنفاقها في نهاية كل عام ، إما على الفنانين كحوافز وإما على مزيد من الإنتاج المسرحي بحسب ما يقرره مجلس إدارة المسرح . أما متوسط ثمن التذكرة فهو ١٠ دنانير (نحو ٣٣ قرشاً) . وأرخص تذكرة ثمنها ديناران (سبعة قروش) وأغلى تذكرة ثمنها ٢٥ ديناراً (٨٥ قرشاً) بلا ضريبة ملاه .

ولكل مسرح في بلجراد مجموعة من المخرجين مرتبطين به يتراوح عددها بين ٢ و ٤ مخرجين ، وكل مسرح له استقلاله الذاتي ويديره مجلس إدارة وعلى رأسه مدير المسرح ، وهذا المدير قد يكون فناناً أو إدارياً أو سياسياً ، بحسب ما يقرره مجلس التعيينات ، والأغلب في يوغوسلافيا أن مديرى المسارح من الأدباء ، ولا سيما في المسرح القوى الذى ياغت نسبة مديرية من كتاب المسرح أو النقاد خلال مائة عام ٩٠٪ ؛ أما مجلس إدارة المسرح فيتكون ثلاثة من رجال الفن والإدارة التابعين للمسرح وثلاثة من مثل البيادية دافعة ، الإعاقة ، ولكل مسرح مستشار أدبي ، أما وظيفة المدير فهي بالاعلان ، وهي لمدة ثلاثة سنوات .

ونسبة المترجمات إلى المؤلفات في مسارح بلجراد هي ٥٠٪ للمترجمات و ٥٠٪ للمؤلفات ، وهو عرف مستقر دون أن يكون عليه نص . أما المؤلفات فتحصل المسارح عليها إما بالتكليف المباشر وإما بفحص المؤلفات المعروضة عليها ، وهي عادة تعرض عند اختيارها على الخشبة .

التجريمية الصغيرة قبل أن ت تعرض على المسرح الكبير . والمسرح القومي يطبع نفس المنهج . ولكن تشير يأوف لم يخف عن امتعاضه من مستوى التأليف المسرحي القومي في بلاده .

أما الجهة المنوطة . راقبة المسارح المعانة من حيث سلامة الإنفاق فهي البلدية ، ويمكن للبلدية أن تتدخل لإيقاف عرض مسرحية إذا أثبتت المسرحية إحدى قوميات يوجوسلافيا على قوميتها الأخرى أو إذا هاجمت دولة صديقة . وفيما عدا هذا فليس هناك رقابة على المسرح وإيقاف المسرحيات لا يكون إلا بحكم محكمة ، ولم يحدث أبداً أن صادرت المحاكم مسرحية ما ، ولكن حدث منذ ١٨ سنة أن أوقفت مسرحية «مرقص اللصوص » لجان أذوي بقرار وزيري بحججة الانتحال أيام الاستالينية ثم لم تتكرر هذه السابقة . ومع ذلك فقد أوقفت مسرحية واحدة أيام استحكام الخلاف بين تيتتو وستالين في ١٩٤٨ وهي مسرحية «عندما يزهر القرع » لأنها عرضت بالبولييس اليوجوسلافي وأتهمته بالنازية لاعتقاله عدداً من الشيوعيين الاستالينيين في يوجوسلافيا . والذى أوقف المسرحية هو إدارة المسرح الذى كان يعرضها ، أوقفتها بسبب الحملة التى شنتها الصحافة عليها ، أما الحكومة فلم تتدخل .

هذه صورة المسرح اليوجوسلافي كما استخلصتها من حديث الناقد المخرج تشير يأوف ، وقد أوردتها بتفاصيلها عسى أن ينتفع بها المسؤولون ورجال المسرح عندنا . وأهم الحقائق في هذه الصورة بالنسبة لوزارة الثقافة وزارة الحزانة معًا هي أن الدولة في يوجوسلافيا تعين المسارح

بنسبة ٨٠٪ من ميزانيتها ، وأن مرتبات الفنانين تمثل ٥٠٪ من مرتبات الإداريين والفنانين وعمال المسرح ، وأن إعانته الدولة للمسارح مربوطة بعده روادها . وقد توكيت أثناء إقامتي في روسيا وفي ألمانيا الشرقية أن أجرب دراسة مشابهة لحالة المسرح من الناحية التنظيمية هنا وهناك ، فربما ساعدتنا هذه الدراسة المقارنة على إعادة تنظيم حياتنا المسرحية داخل البناء الاشتراكي .



الفصل الثاني

التجربة اليوغوسلافية

سلبيات وإيجابيات

دخلت يوغوسلافيا وخرجت منها دون أن أحس بأني في بلد اشتراكي ، فالاشراكية تقرن عادة في أذهان الناس بالبئر وفراطية والإحساس بالحكومة (التي يسمونها خطأً بالدولة) في كل خطوة يخطوها الإنسان ، وبكثرة القيود والمنعوات واللوائح والقوانين ، وبالعين المراقبة التي تتجلو في محفظتك لتعرف كم دولاراً تحمل وفي عقلك لتعرف فيم تفكر وكيف تحس ، وبكثرة الشعارات والكليشيهات في الكلام وفي وحدة الماصقات من صور الزعماء والتوجيهات العامة . فلما نزلت يوغوسلافيا لم أحس بشيء من هذا بل أحسست على نقىض ذلك بأنني في مجتمع مفتوح لا يكاد يختلف كثيراً عما ألفته في بعض بلاد الغرب التي زرتها . ومع ذلك في يوغوسلافيا بلد اشتراكي أو شبه اشتراكي ، فيه كل المصانع والمتأجر والفنادق والعماائر والشركات وكافة وسائل الإنتاج والخدمات الكبيرة مؤمة ، والملكية الزراعية فيه محددة بحدود ومقيدة بقيود (بحد أقصى نحو ٢٠ فدانًا للفرد الواحد) . وإنهيت إلى أن يوغوسلافيا بلد شبه اشتراكي بعد أن عرفت أن اقتصادها

اقتصاد مختلط فيه مكان للقطاع الخاص والنشاط الفردي ، في استطاعتك أن تملك مصنعاً أو متجرًا أو عمارة أو فندقاً أو مشروعًا مادمت تديره بنفسك ولا تستخدم فيه أكثر من كذا عامل وتنفذ أحكام القانون والضمان الاجتماعي بشأنهم .

والزائر لا يجد من يتخصصه من رأسه إلى أحصنه قدميه ويتمعن في أوراقه أكثر من اللازم أو يسأله لماذا جئت وأين تقيل ومنى تمضي . وربما لم يجد الزائر كثيراً من أصول этиكيت وأداب السلاوك التي تثقف بها الناس في حضارة الغرب عبر مئات من السنين ، ولكنه يجد ما يطلب به أو يحتاج إليه منفذاً بلا تراخ ، في بدأوة ولكن بلا تراخ ، في بساطة وبلا احتفال ولكن بلا تراخ ، فكل الناس تعمل بجد من السابعة صباحاً إلى الثالثة بعد الظهر (منها ساعة للغداء) رغم أنهم جميعاً وظفون في القطاع العام . وحين يصبح الحرison أو عامل المصعد أو وظيف الشركة ق.ع . يجب أن تتوجس خوفاً من آثار الاشتراكية . ولكن لا . في يوغوسلافيا كل مافى الدولاب يتحرك بلا تراخ . التليفونات تعمل بدقة . التلغرافات ، المواصلات ، الطائرات ، البنوك ، الح匪يات ، الكهرباء ، المطاعم ، المتاجر ، الشوارع ، تهمل بدقة رغم أنها ق.ع . وبكرامة أيضاً . لا أحد يتضرر البقشيش . إن جدت به فكلمة شكر وإن لم تجد فلا أحد يتضرر منك شيئاً . وأهم من هذا ذاك فأنت لا تحس بوجود « الحكومة » (في أية خطوة تحظواها . عشرة أيام لم أسمع فيها كلمة « بعدين » أو « غداً » أو « عند الأفندي الثاني » أو « الختص غير موجود »

رغم أنها كانت من أيام يوليووفيقيط دونه قيظ القاهرة ، كل يؤدي عمله وكأنه رئيس نفسه . لا أحد يعطل عملا بحججة الرجوع إلى الرؤساء ، رغم أنهم لا شك يرجعون ، ولكن مكالمة تليفونية تكفي حل الإشكال في دقيقة . لقد نجحت الاشتراكية في يوجوسلافيا لأنك لا تحس بوجودها وهذا ما يسمونه التسبيير الذاتي .

ومع ذلك فربما كانت هذه نظرة من الخارج ، فإذا اقتربت من الصورة قليلا بدأ تتكشف لك عورات كتلك التي تركتها في مصر . ذهبت لأشترى بعض قطع غيار سيارة فباع لي المخل جزءا منها بعد حديث طويل متقطع بينه وبين مترجمي لم أفهم منه حرفاً ، ولكنني أحسست من لغة النظارات ومن تغيير درجات الصوت وكأنني أشتري منواعات أو مهربات . ثم أحالنا الرجل إلى الأجناس الرئيسية الذي يستورد قطع غيار أو بل لحساب الدولة فوجدت الطوابير التي تركتها في مصر والباعة ، يقاون للزبائن « ما فيش » « مش موجود » « بعد شهرين » . وقالت نظارات البائع لنا « مش موجود » قبل أن يفتح أحد فمه ، فلما فتح صاحب فمه جاءه الجواب « مش موجود » . وأحسست أنني في مصر . فحيث يتจำกوا على القطاع الخاص مع القطاع العام تتسرّب السلع من العام إلى الخاص وتبعا بسعر السوق السوداء ، وت تكون بصورة آلية عصابات من الموظفين العموميين ، إداريين وفنين ، للاتجار في سلع القطاع العام أو الارتشاء فيها والمسماة عليها مع التجار . وتصورت هذا المرض ضاربا في كل السلع الاستهلاكية المستوردة وفي كل السلع ذات السدرة ،

ربما كان هذا ثمن «تبسيط» الاشتراكية ، ثمن إلغاء البير وقراطية وحضور الدولة المستمر : نهب القطاع الخاص للقطاع العام وخلق طبقة من السمسرة بدرجة مدير عام ، وبدخل صاحب كازينوف شارع الهرم . شيئاً أحلاماً . فما العمل ؟ يبدو أن طريق الاشتراكية حاويل كطريق الديمقراطيات . وكما انتظرت إنجلترا أو فرنسا مئات السنين قبل أن تتبادر فيهما الأخلاق الديمقراطية وبعض المبادئ العامة التي ذهبت مذهب المقدسات ، يجب أن تنتظر بعض البلاد قرناً كاملاً قبل أن يتبدأ فيها الإنسان الاشتراكي .

وفي يوجوسلافيا حركة قومية لجمع الدولار والعملات الصعبة بوجه عام ، تتجلّى في افتتاح البلاد للسياحة والخدمات السياحية التي بلغ حجم إيراداتها في العام الماضي (١٩٦٩) ٣٢٠ مليون دولار وارتفاع حجم الصادرات إلى نحو ٥١ مليون (ألف مليون) دولار (أى ثلاثة أمثال قيمة صادرات مصر) منها ٨٢٪ من المنتجات الصناعية و ١٨٪ من المنتجات الزراعية . ومع ذلك فهذه الأرقام ليست شيئاً مذكوراً في التجارة العالمية لأن صادرات يوجوسلافيا لا تمثل أكثر من ١٪ من التجارة العالمية . وقد كانت تجارة يوجوسلافيا الخارجية بعد الحرب مباشرة تقوم أساساً (بنسبة ٨٠٪) على اتفاقيات الدفع بالمقاييس مع دول الكتلة الشرقية ولكنها منذ ١٩٤٨ أى منذ اختلفت مع الاتحاد السوفييتي أخذت نحو التصدير بالعملات الحرة حتى استردت استقلالها الاقتصادي عن الكتلة الشرقية ، وقد سمعت أنها عادت منذ يوليول الماضي عن التعامل - على الأقل في بعض

القطاعات - بالمعنى الحسابي وهو التعبير المصرف لنظام المعايضة وقررت ألا تتعامل إلا بالعملات الحرة . وما تعجز يوجوسلافيا عن تحصيله من الدولارات عن طريق التصدير تحاول أن تستكمله عن طريق الخدمات السياحية . فحامل الدولار هناك ملك .

ويكفي أن تذكر أن إيرادات السياحة من العملة الأجنبية تعادل نحو ربع أو خمس إيرادات يوجوسلافيا من صادراتها لتعرف مكانة السياحة في تلك البلاد . وفي يوجوسلافيا الآن نحو نصف مليون سرير لا ستقبال السياح في الفنادق والبنسيونات والبيوت الخاصة ، وبها مطاعم يمكن أن تطعم مليوناً ونصف مليون شخص في وقت واحد . وفي كل مكان محلات تجارية مخصصة للبيع بالجملات الحرة بأسعار مغربية لا صطياد الدولارات من السياح ، وعلى ساحل الأ드리اتيك مستعمرات عراة ، قليل إنها لتشيط السياحة ! (لا شك قد كتب عليها : من نوع اللمس !) . وقد كان من نتائج ذلك كله أن مركز الدينار اليوغوسлавي قد قوى حتى كاد أن يصبح في ثبات العملات الحرة .

وгин جاء وقت الرحيل إلى دوبروفنيك للاشراك في مهرجانها الحادي والعشرين تصفحت الكتاوج فوجدتهم يقدمون باليوجوسلافية مسرحيات « يوليوس قيصر » لشكسبير و « أوديب ملكاً » لسوفوكليس و « طرطوف » لمولير وثلاث مسرحيات يوجوسلافية هي « العشاق » مؤلف مجھول و « العم هارويا » لدرجيتش و « البخيل » لدرجيتش كذلك و « ثلاثة دوبروفنيك » لفويزوفيتش ، وهي أسماء لا تعنى شيئاً للقارئ

العربي لأننا لا نعرف شيئاً عن الأدب اليوغوسلافي . أما في باب الموسيقى والغناء والباليه فقد كان البرنامج أكثر خصوبية فقد كانوا يقدمون : « صلاة المساء للقديسة العذراء » لانتفيريدي ، وكوكتيل من سكارلاتي وبيتروفن وبروكوفييف وليسوا بـ « جان دارك على المحروقة » لهونيجر وأوبرا « فيديليو » لبيهوفن و « بحيرة البجع » لتشایكوفسكي و « الخليقة » لمايدن و « المسيح » لهاندل و « روميو وجولييت » لبرليوز وكوكتيلات من باخ وفيفالدي وبريتن وفورشاك وروسيني وشوبرت وشتراوس . إلخ . الخ . ثم جملة فرق لارقص الشعبي اليوغوسلافي .

وفي مطار دو برفنيك تكررت نفس المهللة التي جرت في مطار
بلجارد أكد لي مرافقني في بلجارد أني بمجرد نزولى من الطائرة فى دو برفنيك
سأجله فيها مرافقا آخر فى انتظارى يلازمى خلال المهرجان . ولم أجد أحداً
في المطار .

وفكرت في العودة من حيث بحثت واكفي ضغطت على نفسي وقررت أن أعتمد على نفسي ولو بلغة الإشارة . وبعد أن بلغت المدينة نزلت في فندق بشارع الماريشال تيتو ثم اتجهت إلى مكتب المهرجان . قالت لي إحدى المنظمات معتذرة : « لقد انتظرتك ساعتين هذا الصباح في المطار . يبدو أن خطأ ما حدث » . فلم أعاق . وحين خرجت مع رافقي لا تعرف على المدينة قال المرافق معتذراً : « قيل لنا إنك ستصل بطائرة بعد الظهر وهذا لم أنتظرك في المطار » .

ولم أعلق ، ولكنني تحققت من أن هؤلاء القوم يحلون الأخطاء بالفهمواة

بدلاً من المواجهة — شئ مأوف لنا في مصر — وهو أمر ينذر أن تتجهه في إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا، حتى بين طبقات أقل استئثاراً وأقل شأنًا، قلت لمسئول يوجوسلافى : يبدو أنكم لستم خيراً هنا في الفوضى وقلة التنظيم . فأجاب : ربما، ولكنني أعتقد أن هذه الفوضى مقصودة ، ومقصود كل ما صادفت من متاعب وكذلك اوكالدات الدرجة الثانية التي حجزوها لك وانخفاء المرافقين أكثر اليوم بحجة المشغولية . لقد كانت تعليمات إدارة المهرجان أن تستقبل كما يستقبل إيهاندرىتشن في مصر . هذه الفوضى ربها مدير يهودي يوجوسلافى في العلاقات الثقافية اسمه أوتو دينشن للإساءة بين البلدين . لقد فعل نفس الشيء مع الفنان سيف وانلى حين نزل يوجوسلافيا ، وهو يرتدي كل شيء من خلال الغير فلا تستطيع أن تواحده شخصياً . حتى علم ترتيب لقاءات بينك وبين كبار الكتاب مقصود ومادروس ، فقد كان كثيرون منهم على بعد خطوتين منك في بال مجرد في دوبروفنيك . حتى مستوى المرافقين : كان ينبغي أن يخصصوا لصحبتك أحد الأدباء المعروفين لا مجرد موظفين .

فليكن . هذه إذن دوبروفنيك عروس الأدرياتيك الثانية بعد فينيسيا ، وأجمل بلد في يوجوسلافيا . وأخذ مرافق الشاب يشرح لي تاريخ المدينة . قلت : أعرفه . لقد كان اسمها راجوزا أيام اليونان والروماني . قرأت عنها في كتاب جيبيون عن « تصدع الإمبراطورية الرومانية وانهيارها » فقد زارها الإمبراطور القاسي . المتعالي دقلديانوس ، الذي تنازل عن عرشه في أوج مجده ، ثم حكمتها بيزنطة ، وفي العصور الوسطى حكمتها البندقية

تم المجر ، وأخيراً حكمها الباب العالى حتى ١٨٠٨ حين استولى عليها نابليون وضمها إلى الليرسيا ، وبعد سقوط نابليون في ١٨١٤ آلت هذه المدينة التاريخية إلى حكم الإمبراطورية الفنساوية طوال القرن التاسع عشر وبعض القرن العشرين حتى ولدت جمهورية يوجوسلافيا . وقد كانت دوبروفنيك أو راجوزا القديمة طوال العصور الوسطى « جمهورية » أو مدينة دولة على غرار المدن التجارية الشهيرة في ذلك الزمان كالبندقية وفلورنسا وفيارا وفيرينا ، واحتضنت بكينانها الجمهورية سواء في عهود استقلالها أو تبعيتها . ولكن دوبروفنيك كانت أكثر من جمهورية أو دويلة تجارية ، فهي موقع حربى خطير ، أو مجموعة من الحصون والاستحكامات البحرية أقيمت تحت جبل محصن على مساحة لا تتجاوز خمسة كيلومترات مربعه ، والمدينة ذاتها بنيت داخل هذه الاستحكامات والمحصون .

وحيث مر دقلديانوس ذو المذايحة الكثيرة ، العبد الذى أصبح إمبراطوراً للرومانيون ونقل عاصمة إمبراطوريتهم إلى الشرق ، وفدت ساهماً أستعرض ما قرأته فى جيبون عن هذه الشخصية الملغزة فى تاريخ الرومان وهو الذى روى عنه الرواية أنه استعمل ليبر وأنه كان أول من استحدث فى بلاط الرومان فخامة ملوك الشرق ، فاشتهر بطريقه المنشاة بالذهب والفضة وبنعاله المرصعة بكريم الجواهر ، وكان المثال بين يديه يزداد مشقة مع الأيام ، بعد أن ملأ بلاطه بالمحاجب وبطقوس البروتوكول وملا شعاب قصره بالحرس الإمبراطوري ومقاصير حرمه بالقصيان

الرابضين كال فهو ، فإن مثل بين يديه واحد من رعيته مهما علا قدره ألزم بالسجود أمام حضرته وكأنه في حضرة إله . ثم ترك دقلديانوس كل ذلك المجد العظيم باختياره واعتزل العرش والملا . وهو في التاسعة والخمسين من عمره بعد أن جلس إحدى وعشرين سنة ، فلم يعرف له التاريخ صنوا غير الإمبراطور شرل كان . وكان في معتكفه يتأمل جرأته العديدة ويتردد نادماً أو شبه نادم : « ما أكثر ما يحدث أن يلتقي أربعة أو خمسة وزراء في المصالحة فيتفقوا على خداع ملوكهم ! فلأنه يعيش في عزلة عن البشر بحكم هيبيته الرفيعة ، تراهم يخفون عنهم الحقيقة ، فهو لا يرى إلا بيونهم ولا يسمع إلا أصواتهم . ولذا فهو يمنح أسمى الوظائف لأهل الرذيلة والضعف ، وهو ينكل بأشرف رعاياه وأعظمهم استحقاقاً . وهكذا يتredi أكرم الملوك وأرجحهم عقولاً بسبب فساد بلاطهم وأشعبية حاشيائهم » .

سألت صاحبى عن زاردوبروفنيك من الأدباء والفنانين في عصرها الحديث ، أى منذ بدأ مهرجانها السنوى في ١٩٥٠ ، فأجده ذاكرته كثيرة ولم يذكر لي إلا هيربرت فون كارايان وباربيرولى وماريو روسي وإيزاك شتيرن ثم كتبية لا يأس بها من فناني الصاف الثانى . أما الفرق الموسيقية العالمية فلم يذكر لي منها إلا أوركسترا برلين السيمفونى وفيالهارمونية وسكسو . ولم أكن أسؤال صاحبى ومنظمى المهرجان هذه الأسئلة اعتماداً ، فقد لاحظت رغم النشاط الفنى والأدبى الشديد كل ليلة أن مئات الآلاف من الزوار الوفدین من أطراف الأرض المتجولين نهاراً وليلاً في أردية المصطافين

قد أعطوا للمكان شخصية المصيف وطبعوا كل شيء بطباع السياح . لقد أحسست في لحظات أن كل هذا « التيارات » المنصوب وسط الآثار باسم مهرجان الفنون ليس إلا وسيلة لتنشيط السياحة ، وهو طبعاً وسيلة نبيلة لغرض مشروع ، مثل حكاية مهرجان بعلبك ، وتحتية أن يكون للإسكندرية والأقصر ، مثل هذا المهرجان السنوي صيفاً وشتاء . غير أن نوعية ضيوف المهرجان والمشاركين فيه يجب أن تعدد رأياً فيه وحكمها عليه من الفنانين والأدباء . بقعة من أجمل ما سوت يد الطبيعة كان يمكن أن تكون عكاذاً العالم ، ومع ذلك تحولت إلى كان أو نيس أو ميامي فلوريدا .

وعرضاً عرفت أن حدثاً جللاً جرى في دوبروفنيك . قالوا لي إن أول اجتماع عقده أدباء العالم لمناهضة النازية عقده نادى القلم الدولي في دوبروفنيك عام ١٩٣٤ ، وكان هـ. جـ. ويالز بين الأدباء المشركيـن . قالوها باستخفاف وكأنـها لا تعنى شيئاً ، أو كأن النازية التي حصدت في بلادهم مليون قتيل غدت في أرض تـيو المناضل العظيم شيئاً من أشياء الماضي البعـيد لم تـبق منه حتى الذكريـات . وأنا من يعتقدون أن النازية لم تـمت ولن تـموت حـثـيـاً ، لأنـ لها أرواـحاً سـبـعاً وـأـقـنـعـة سـبـعة ولـنـا يـنبـغـي أـنـ نـضـعـ وـرـوـدـاً لـا تـذـبـلـ عـلـىـ كـلـ شـاهـدـ لـضـحـاـيـاـهـ أـيـهـاـ نـزـفـ دـمـاـؤـهـمـ عـبـرـةـ وـادـ كـارـاـ .

قلت : أـلـديـكـمـ سـجـلـ أـوـ مـاحـضـ أـوـ ثـبـتـ منـ أـيـ نـوـعـ كـانـ يـدـونـ



هذا الحادث الخطير ؟ قالوا : لا شئ لدينا . قالت : من حضر هذا المؤتمر وماذا قالوا ؟ هل مشى هنا أراجون أو توماس مان أو شباب الأدب الإنجليزي الحديث في الثلاثينيات ، أودن وسبنسر وكريستوفر إيشروود ، وكل من زار بصوت راعد في وجه البربرية النازية قبل أن تكون النازية شيئاً مذكور ؟ قالوا لا علم لنا بشئ من هذا . مدينة كان على صدرها وسام شرف عظيم فخلعته وألقت به في ساحل المهملات . قلت وأني لي أن أجمع هذه الوثائق المنسية ؟ قال مرافقي : أستاذى الذى علمنى الأدب المقارن في جامعة زغرب ، واسميه هرجيسيتش ، كان حاضراً في المؤتمر وربما أعطاك بعض الخيوط . وطلبنا هرجيسيتش العجوز في زغرب بالتميرون وكلماته وكأني أكلم شبحاً من وراء القرون . ووعدنى الرجل أن يرسل لي على عنوانى « بالأهرام » خطاباً بذكرياته عن كل ما كان . ولا زلت أنتظر الخطاب .

وأخذت أتردد كل مساء على حفلات المهرجان ، وكان درساً لي أن أراقب المايسترو اليوغوسلافي الكبير لافروفون ماشاشيتتش وهو يجري حتى الثانية صباحاً تدريبات أوبرا « فيديليتو » لبيهوفن في حيوية ابن الثلاثين رغم أنه قارب السبعين . وكان بلا جدوى أن أشهد المسرحيات باليوغوسلافية باللهبلي باللغة فاكتفيت « بطرطوف » مولير . وأنصت لقراءات بالألمانية من أدب برینخت في الدعوة للسلام قدمتها هيلين فايجل ، أرملة برینخت ، وأثنان من ممثلين مسرح « البزيلير انسامبل » ، وتواتدت معها على لقاء في برلين ، وركزت على عروض الرقص الفولكوري

اليوجوسلافي الذي قدمته فرقه « تانتز ». وكانت قد رأيتها في نيويورك ثم في القاهرة من بعد فوجئت أنها لم تضف جديداً.

وحيث التقييت بتوماليوف مدير فرقه « تانتز » للرقص الشعبي اليوجوسلافي - وهي تقابل فرقه رضا عندنا - وجاءتها مناسبة لأن أناقشه في المبادئ التي تقوم عليها حركة الفولكلور في يوجوسلافيا ولا سيما أنه من كبار المنظمين والمستخلين لهذه الحركة في بلاده وخارج بلاده . فقد سبق أن شاهدت عروض فرقه « تانتز » مرتين . مرة في نيويورك سنة ١٩٥٥ أو ١٩٥٦ لا أذكر بالتحديد في قاعة كارنيجي الشهيره التي كان الأمريكيون لا يعطونها عادة إلا للحفلات « الكلاسيك » ثم تنازاوا وأعطوها للمطرية الفرنسية الكبيرة إيدريت بياف ثم لفرقه « تانتز » هذه . وكان لفرقه دوى شديد . ثم مرة منذ ستين في أوبرا القاهرة ، وكان انتبااعي واحداً في الحالين : إن هذا اللون من الفن الشعبي سوف يدخل حتماً في طريق مسدود لأنه محدود في تقاليده . محدود في إمكانياته الفنية ، مالم يتم التلامم الحقيقي بين العبقريه الفردية وروح الجماعة . ولا أستبعد أن بعض الروس يتذمرون أن هذا حدث بالفعل في بلادهم : ولكن بعد أن رأيت عروض فرقه موسيف للرقص الشعبي خرجت بنفس الانطباع ، وتيقنت من أن حركة الرقص الفلکوري في العالم ، أي تحويل التعبير التلقائي الجماعي عن النفس إلى فن موضوعي يعرض على الغير ، لا يزال وليداً يحبه ، وبالذات لأنه وليد يحبه فهو عالى الصراخ والضجيج .

وعلمت من توما ليوف أن الرقص الفولكاوبي اليو-وسلافي بدأ كحركة استعراضية منظمة في ١٩٤٥ بعد الحرب مباشرة كاتجاه لإحياء التاريخ والجغرافيا عند السلافين الجنوبيين . وخرج منه كونيل من القومية التي تتمثل في تمجيد الروح السلافية الجنوبية ومن الاشتراكية التي تتمثل في تمجيد التعبير الشعبي الجماعي في ذن الرقص . وقد كان هناك بعض الحتمية في هذه الحركة لأن يوجوسلافيا كما اعترف ليوف بذلك صغير حديث لا يملك قرائناً كلاسيكيّاً كبيراً يمكن استلهامه . ولذلك كان استلهام الفنون الشعبية هو البديل الطبيعي لاستلهام التراث . ونظراً لتنوع القوميات داخل يوجوسلافيا لم يكن بد من أن تختفي حركة الرقص الشعبي بالرقص الشعبي في مختلف القوميات اليو-وسلافية . وقد كان السؤال الطبيعي في هذا المجال : ألا يؤدي التعدد في التعبير الفني الإقليمي كتعدد اللغات والثقافات . إلى إزاء القومية اليو-وسلافية . لأنه يؤكّد الفوارق في الثقافة والتعبير الفني بين المتذوقيين مثلًا والمربي والكتروات إلخ . ولكن توما ليوف أجاب على هذا بقوله : إن الشخصية السلافية تجمعنا جمیعاً واختلاف الإيقاع لا يضر بل ينفع لأنه يزيد معرفة المقدوني بالصرب والكريري بأبناء البوسنة والمدرسك ويزيد احترام هذه الثقافات بعضها للبعض الآخر . إنما الفسر في خطهاد إنـدى الثقافات القومية لغيرها من الثقافات القومية . قالت : المشكلة عندي هي أن الكلاسيكية قد تكون مرضياً طبيعياً والفولكاوپ قد يكون مرضياً قومياً ، فتهجيـل التراث قد يقرن أحياناً بتمجيـد « الصحفة » القادرـة عليهـ المنتـجةـ والمستـملـكةـ لهـ ،

وتجريد «روح الجماعة» قد يؤدي إلى تقليل الجماعات في ذاته وتلاليه قدراته الفطرية بغض النظر عن مستوى الحضارة . واعترف ليوف بذلك ، ولكن حجته كانت أن الكلاسيكية تقتل النقاوئية والحسانية الطبيعية وتنهي بفقدان الشخصية باسم العالمية وباسم الاحفاظ على تراث الإنسانية . وهو يعترف حقاً بأن التعبير الشعبي خليط من النبل ومن الانحطاط ومن الحكمة الفطرية ومن الجهالات الفطرية ومن التعبير العميق ومن السفاسف والسيخافات ، ولكن الأمل عنده هو في العبرية الفردية عند الكوريوجراف («صميم الرقص ومبادعه») أو عند الموسقار الذي يستلهem الوجدان الشعبي ويصفى تبره من ترابه ويصوغ منه فنّاً عظيماً ، فسقراط يوناني ولكن ليس كل اليونان سقراطاً . وزهرت توماليوف أنه بهذا الكلام يعود إلى المأزق الذي حاول أن يخرج منه . فإن الاعتماد على عبرية المبدع الفرد سوف تخرج الفولكاور عن فولكاوريته وتدبر روح الجماعة في روح الفرد وتسعى بنا إلى كلاسيكية جماليّة هي في حقيقتها من صنع الصحفة لا من صنع الشعب . واعترف ليوف بذلك ولكنه أجاب : الأمل إذن هو أن يصبح الشعب نفسه موضوعاً ل عبرية المبدع الفرد ، وأن يصبح الشعب بطل هذه الكلاسيكية الجميلة بدلاً من الأبطال الأفراد .

كان كل هذا الكلام كلاماً جميلاً في حدود المناقشة النظرية ، ولكن ملاحظي عليه في التطبيق هي أنه رغم مرور ٣٥ سنة على هذه الاندفاعة نحو تمجيد الرقص الفولكاوري وتحويله إلى فن استهلاكي بعد أن

كان مجرد فن تعبيري ، فإن الرقص الفولكلوري قد تجدد ولم يتتجدد سواء في يوغوسلافيا أو في غيرها من البلاد لأن شيئاً ما في روح الجماعة قد هزم المبدع الفرد ، فلعبة السيف المقدونية لا تزال بعد ثلاثة عاماً هي لعبة السيف المقدونية وطقوس الفرح الجماعي في احتفالات الحصاد أو في احتفالات الزواج لم تتغير على المسرح كثيراً رغم مرور السينين لأنها لم تتغير في الحياة ، وكل ماحدث هو أن الرقص الفولكلوري اليوجسلافي قد غدا سلعة سياحية عظيمة تصادرها يوغوسلافيا إلى عواصم العالم في أزيائه الوطنية أو تستقدم العالم لرؤيتها في دوبروفنيك ، وحيث السياحة يوضع الفن في خدمة الدولار .

أربعة أيام قضتها في دوبروفنيك ، أخذت فيها شيئاً من جمال الفن وشيئاً من جمال الطبيعة ، وعدت أدراجى إلى بلجراد لأنها لرحتي الروسية .



الفصل الثالث

مأساة يوحوسلافية

روسیہ ملکہ

حدثنى سفيرنا في بلجراد ، يحيى عبد القادر ، قال : « لا تحكم على اليوغوسلافيين بما تراه في بلجراد وحدها ، فأكثرب السكان هنا من الصرب ، ولكل قومية يوجوسلافية مستواها الحضاري الذى يميزها عن غيرها ، فأرقى اليوغوسلاف هم أهل سلوفينيا فى الشمال . ويليهם فى الرق أهل كرواتيا ويليهم أهل صربيا . إلخ ، ومن أكثرهم تختلفاً أهل البوسنة والهرسك ومقدونيا والجبل الأسود . وربما كان الألبان فى المؤخرة . قاعدة عامة تحكم التقدم والتخلف بين قوميات يوجوسلافيا : المناطق التى حكمتها الإمبراطورية النمساوية أو المجر هى المناطق المتقدمة ، والمناطق التى حكمتها الإمبراطورية العثمانية هى المناطق المختلفة ، وكما كانت التبعية للترك أقوى وأطول كان التخلف أعمق وأوضع » .

وبعد العشاء انصرفت أفکر في تاريخ هذا الشعب الغريب ، سلاف الجنوب ، الذي فقد استقلاله وسقطت كل معاقله في يد الترك قبل

عام ١٤٠٠ ولم يجمع أشيازه المهزقة ويسترد وحملته إلا منذ ١٩١٨ .

وكلما استفسرت أو تطاءعت في وجوه الناس وتأملت حديثهم وساواكفهم تأكّلت من مهني واحد وهو أن جذوة الوطنية ظلت متقدّة فيهم تحت الرماد طوال هذه المأساة التي استغرقت خمسة قرون . وحين جاءتني ملحمتهم الوطنية وأسمها « ماركتو » . وهي موال قصصي نظمه شاعر مجهول في نحو منتصف القرن الرابع عشر ، وترجمته لي بالإنجليزية الشاعرة الكرواتية فيسنا كريبيو تيتиш ، أحسست بروح الشعب اليوجوسلاف تتجول حزينة وقوية من وراء القرون ، على لسان المنشد ذي الربابة يتتجول بين القرى في الجبال والوديان يذكر بني قومه بقصة ضياعهم العظيم بعد مجدهم العظيم .

فقد كانت لهم دولة كبرى قبل أن يجيء الترك ، دولة تضم أكثر البلقان ، تساليا وابيروس وألبانيا ومقدونيا والصرب والبوسنة . وكان لهم إمبراطور عظيم حكم اسمه دوشان ، كان قيصر زمانه ومشعر عصره وأوانه . فاما توفي الملك دوشان لم يكن ولده الأمير الشاب أوروش قد بلغ الثامنة عشرة بعد . وتنازع إخوته الثلاثة فيما يخلفه في عرشه ، فطعنوا في نسب الأمير الصغير أوروش ، وادعى كل^٢ الحق لنفسه :

أربع خيام التفت
على سهل كوسوفو الجميل
بحوار كنيسة سانودريا البيضاء :

في الخيمة الأولى كان الملك فوكاشين
وفي الخيمة الثانية كان السلطان أوجاليشا
وفي الخيمة الثالثة كان الدوق جويكوا
أما الرابعة فكانت خيمة الأمير الصغير أوروش .
أربعة ملوك اقتتلوا على المملكة كل يريد الفتاك بأخيه
بنججر ذهبي يطعنـه .

لا يعرفون من صاحب الصوـلحـان .

كان الأمير الصغير يسمع ويتعجب لأنه ولـيـعـهـدـ الشـرـعـىـ .
وفي الخفاء أوفـدـ كل رسـولـهـ الخـاصـ إـلـىـ مدـيـنـةـ بـرـيزـرـينـ .ـ حيثـ يـقـيمـ البـطـرـيقـ ،ـ
ليـفـقـىـ لهمـ مـنـهـمـ صـاحـبـ الصـوـلـحـانـ .ـ وـكـانـ الـبـطـرـيقـ شـيـخـاـ صـالـحاـ عـارـفاـ
بـالـأـنـسـابـ وـبـكـتـبـ الـقـدـماءـ ،ـ وـبـاغـ الرـسـلـ الـأـرـبـعـةـ المـدـيـنـةـ فـيـ الصـبـاحـ .ـ
وـوـجـدـواـ الـبـطـرـيقـ يـقـيمـ الـقـدـاسـ فـيـ الـكـنـيـسـةـ .ـ فـلـمـ يـتـرـجـاـوـ بـلـ اـقـتـحـمـواـ
بـخـيـلـهـمـ حـرـمـ الـكـنـيـسـةـ وـضـرـبـواـ الـبـطـرـيقـ بـالـسـيـاطـ وـأـمـرـهـ أـنـ يـصـبـحـهـمـ
إـلـىـ كـوـسـوـفـوـ لـيـحـسـمـ الـأـمـرـ وـفـقـاـ اـوـصـيـةـ الـمـلـكـ الـراـحـلـ دـوـشـانـ ،ـ وجـرـتـ دـمـوعـ
الـبـطـرـيقـ عـلـىـ خـدـيـهـ وـاستـهـلـهـمـ حـتـىـ يـفـرـغـ مـنـ وـاجـبـهـ نـحـورـ بـهـ .ـ وـحـينـ
فـرـغـ مـنـ الـصـلـاـةـ تـقـدـمـ نـحـوهـمـ قـائـلاـ إـنـهـ لـمـ يـسـأـلـ الـمـلـكـ دـوـشـانـ وـهـوـ
يـنـاـوـلـهـ الـأـسـرـارـ الـمـقـادـسـةـ عـلـىـ فـرـاشـ الـمـوـتـ لـمـ يـكـوـنـ الـمـلـكـ مـنـ
بـعـدـهـ ،ـ وـلـكـنـ سـأـلـهـ مـاـذـاـ كـانـ ذـنـوبـهـ وـمـعـاصـيـهـ عـنـدـ اللهـ .ـ وـأـوـفـدـهـمـ
الـبـطـرـيقـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ بـرـيزـرـينـ حيثـ قـلـعـةـ الـأـمـيـرـ الـبـطـلـ مـارـكـوـ ذـيـ الـبـأـسـ
الـعـظـيمـ ،ـ تـابـعـ الـمـلـكـ الـأـمـيـنـ الـذـيـ لـاـ يـقـولـ إـلـاـ الـحـقـ وـلـاـ يـخـافـ إـلـاـ اللهـ ،ـ

رغم أنه ابن أحد الملوك المتسارعين ، وهو الملك فوكاشين ليلاً عوه إلى كوسوفو فيجسم الأمر بين الملوك الأربع . ويتجه المرسل الأربع إلى مدينة بريياوب ويعرفون الأمير ماركو بمساعهم ، وحين يطأطع الأمير ماركو أمه الجليلة بفروسيها على ما جرى وما يجري تهيب الأم الجليلة بولدها قائلة :

أى ماركو ، يا ولد أمك الوحيد !

إياك أن تجعل جرحى لعنة عليك

ولكن يابني لا تنطق بكلمة ضلال

لاتستمع لحق الأبوة ولا لحق العمومة

بل لصوت العدل ، عدل الله رب الحق .

إياك يا ولدي أن تفقد روحك

فما خير أن يفقد الماء رأسه من أن يجر على روحه الخطيئة .

ويخرج الأمير ماركو على صهوة جواده إلى كوسوفو حاملاً كتاب أنساب الملوك وحين يقترب من الخيام الأربع يراه أبوه الملك فوكاشين ، فيتهلل الأب فرحاً حاسباً أن والده قد جاء لينحاز له ويسلمه تاج الملكة . ولكن الأمير ماركو يتخطى خيمة أبيه دون أن يلتفت إليه . وحين يمر ماركو على عميه ، يحاول كل منهما إفساد ضميره ، ولكن ماركو يزور عنيما حتى يبلغ خيمة الأمير الصغير أوروش ولـ العهد ابن الملك الرascal دوشان ويقضى اليوم في خيمته . وفي اليوم التالي – يوم التحكيم – يجتمع الأمراء والنبلاء والفرسان ويتجهون للصلوة في الكنيسة ثم يخرجون ، المأدبة العظيمة ويشربون البراندي في انتظار القرار الأخير . ويقف

مارکو بينهم خطيباً في يده كتاب الأنساب ، ويؤذن أباه وعميه على جشعهم العظيم ، فلكل منهم ولایته وهو يهادع في ما في يده الغير . ويأتي عليهم لعنته أن تصير ديارهم خراباً يباباً جزاء لهم على جشعهم ، ويعلن أن الناج تاج الأمير أوروش ، بحق النسب المقدس .

وعندما سمع ذلك الملك فوكاشين

ذهب واقفاً على قدميه

واستعل خنجره الذهبي

ليعلن ولده مارکو حتى الموت

وحرى مارکو ليتهاشى أباه

لأنه لا يحق يا رفيقى

أن يقتل ابن مع أبيه

واندفع مارکو إلى الكنيسة وأبوه يطارده شاهراً خنجره . وسمع مارکو نداء من الكنيسة يقول : « ادخل الحرم أيها الأمير مارکو ! لسوف تهلك اليوم ، تهلك بياد أبيك ، تهلك في سبيل العدل ، عدل رب الحق » وانفتحت أبواب الكنيسة ، ودخل مارکو ، وانغلقت من وراءه الأبواب . وهجم الملك فوكاشين على الباب وطعنه بخنجره ، فإذا دماء انهمرت من الواحه مدراراً . وأدرك الأب أنه قتل ولده ، فذهب ينوح في ندم ، ولكن صوتاً جاءه من الداخل يقول : « اسمع أيها الملك فوكاشين ! أنت ما قتلت ولدك ولكنك قتلت ملاك الله ! »

وهكذا حلت اللعنة على هذه المملكة العظيمة فصارت خراباً يباباً

غزّها جحافل الترك في كل مكان وأشاعت فيها النار والدمار . وفي ١٣٨٩ على سهول كوسوفو سقط زهرة فرسان الصرب ونبأ لهم ، سقطوا عن بكرة أبיהם . وفي هذه المعركة الفاصلة سقط أيضاً السلطان مراد الأول ، وكان أوروش آخر ملوك الصرب الذين فقدوا استقلالهم أكثر من خمسة قرون جراء لهم على انقسامهم وتمزقهم .

وهكذا كانت مأساة أمة محاربة محبة للحرية كما دونتها أشعار الشعراة المجهولين . قصة اختلط فيها الرمز بالحقيقة والخيال بالتاريخ ، وعبر خمسة قرون غناها الشعراة الجواون البسطاء على أنغام الربابة فأذكوا بها حب الوطن في قلوب الصربين . والدرس الذي تعلمه جميع اليوغوسلاف هو أن التفرق لا جراء له إلا العبودية والضياع والآن ننتقل من المأساة اليوغوسلافية إلى الملاحة الروسية .

* * *

قبل أن أبدأ رحلتي الروسية بأسبوعين أو ثلاثة أدرك الرفيق كوميساروف الملحق الثقافي للسفارة السوفيتية بالقاهرة إلى وزارة الخارجية بموسكو يطلب لي تأشيرة دخول، للاتحاد السوفيتي راجيا إرسال الإذن بالتأشيرة إلى السفارة السوفيتية بالقاهرة حتى ١٥ يوليو أو إرساله إلى السفارة السوفيتية ببلجراد في الأيام العشرة التالية وفقاً لبرنامنج رحلتي .

ولم يرد الإذن بالتأشيرة الروسية حتى تاريخ سفرى من القاهرة . وما إن نزلت ببلجراد حتى اتصلت بالسفارة السوفيتية هناك لأستفسر

عن التأشيرة فعرفت أنها لم ترد بيد . وتهافت على الرفيق أناطولي ستيبانيوك قنصل روسيا في باجراد ، فوجأته رجلاً ربعة ذكياً مرحباً متذفقاً لبقا يشبه في خلقته وفي طباعه الروائي الإنجليزي الكبير لورانس داريل صاحب « رباعية الإسكندرية » فكانهما توأمان . وسخا ستيبانيوك في الترحيب بي وكأنه يرحب بجريدة « الأهرام » نفسها وأعجب ما في الأمر أنني وجئت نفسي بجريدة يقتين أحادثه وكأنني أعرفه من عشر سنوات ، واستوقف انتبهادي أنه رغم عمراه في بلجراد ورغم أنه لم يقيم في القاهرة ، كان يعرف مصر مترفة شبيه . . لم يكن يتحدث عن هرم خوفو أو متاحف مصر أو سخان الخليل أو الموقف المصري – الإسرائيلي أو أي شيء يمكن أن يعرفه المرء من الكتب أو من الصحف الأجنبية ، ولكن كان يحكي عن الاتحاد الاشتراكي ، ويزدكر أسماء شخصيات في المناصب العادلة وما جرى عليها من تغييرات . قال ستيبانيوك لا شك أن التأشيرة ستأتي غداً .

ولم تأت التأشيرة غداً . . قال ستيبانيوك : إذن ستأتي غداً بغير شك سأستعجلها بتشراف لوزارة الخارجية . . ولم تأت التأشيرة بعد غد . قالت لاستيبانيوك : سأناور إلى دوبروفنيك وسأحصل بك من هناك بعد أيام . وبعد أربعة أيام اتصلت من دوبروفنيك بالسفارة الروسية في باجراد . وعرفت من استيبانيوك أن التأشيرة لم تصل بعد . وبذلت التحوف ، وقررت أن أقطع إقامتي في دوبروفنيك وأعود فوراً إلى بلجراد لواجهة الموقف الجديد . لقد استنفذت زيارتي اليوجوسلافية أغراضها أو أشكت ،

وبعد ستة أيام أحسست بأنني لن أحصل بسهولة من يوجوسلافيا أكثر كثيراً مما حصلت وأن كل بقاء فيها أطول من الأيام العشرة المقررة سوف يكون مضيعة للوقت .

وفي اليوم السابع اتصلت بالسفارة الروسية من جديد . لا خبر عن التأشيرة .. قلت للقنصل : اسمع يا صديقي الطيب . أنا لم آت إلى أوروبا لأصيف ، وإنما جئت في عمل « للأهرام » ولادة شهر فقط . جئت لأجمع مادة لقرائي . وإذا لم أستطع جمعها من روسيا فسأبحث عن هذه المادة في غيرها من البلاد . إذا لم تحصل التأشيرة غداً صباحاً فسأغير وجهي وأسافر إلى إيطاليا وفرنسا وإنجلترا بدلاً من روسيا . فمن غير المعقول أن أقطع رحاتي أو أن أفوّل لقرائي بعد شهر : آسف ، أنا لم أر شيئاً في رحاتي هذه المرة لأنني كنت أنتظر التأشيرة الروسية في صالون فندق سلافيا .

وبذا الخرج الشديد على أنا توبي ستيفانيوك . وعاد يؤكد لي أن التأشيرة ستحصل لا محالة . وأبدى معه استغرابه من تأخر التأشيرة ثلاثة أسابيع رغم تكرر البرقيات من القاهرة وبمجراد ، وأضاف : لابد أنهم يعادون العدة لاستقبالك رسمياً في اتحاد الكتاب وأن هذا سبب التأخير .. قلت : أنا لا أريد أن أستقبل رسمياً في اتحاد الكتاب . أنا لست مدعواً من أحد وإن أنزل ضيقاً على أحد . إن « الأهرام » أعطاني من الدولارات ما يكفي لإقامة في موسكو ولنجراد وأعطاني أيضاً تذاكر الطيارة . افترض يا أخي أنني سائح . هل روسيا مفتوحة أو مغلقة في وجه السياح ؟

قال استيبانيوك : مفتوحة طبعها . لو أتيت قات ذلك منذ البداية لأعطيتك التأشيرة في عشر دقائق ، قلت : ولماذا لا تهتم بي لياما الآن . قال : يجب أن تحجز غرفة في لوكاندة أولاً . وبعد هذا لن تكون هناك عقبات ، قلت : غداً صباحاً ، إذا لم تصل التأشيرة ، فسأجري هذه الترتيبات . قال : اتفقنا .

وفي اليوم التالي (الثامن) اتصلت بالسفارة الروسية . لا سخراً عن التأشيرة وخرجت لفوري إلى مكتب السياحة اليوجوسلاف المركزي الذي يرتب مثل هذه الأمور . وحجزت غرفة في أحد فنادق الدرجة الأولى . دفعت الدولارات المطلوبة . وأعطوني إيصالاً . سألت : وما اسم الفندق ؟ قالوا لا نعرف بعد : ربما روسيا أو مينسك أو المتروبول أو أوكرانيا أو لنجراد سكايا . عندما تنزل في مطار موسكو تقدم هذا الإيصال إلى مكتب السياحة السوفياتي ، واسميه أنتوريست ، وهذا المكتب هو الذي يحدد لك المكان الحالي في الفندق . إنه الهيئة السياحية التابعة للدولة وهو الذي يحدد لكل سائح الفندق الذي سيستقبله بحسب الغرف الشاغرة .

وذهبت فرحاً إلى القنصل الروسي . قلت : هات التأشيرة . هذا هو الإيصال الذي طلبته وهو يثبت أنني حجزت مكاناً في أحد فنادق موسكو فأأخذ استيبانيوك مني الإيصال وأخذني معه ، ثم رفع سماعة التليفون وطلب مكتب السياحة اليوجوسلاف المركزي . وبعد مناقشة دامت دقائق لم أفهم منها حرفاً التفت إلى " وقال : متأسف ، ولكن لا بد من انتظار الرد من هيئة السياحة بموسكو (الانتوريست) على برقيه هيئة السياحة المركزية .

(ستروتوريست) ببلجراد ، ردًا ينفي أنهم وجدوا لكت غرفة خالية في أحد فنادق موسكو . لن تنتظار أكثر من ٢٤ أو ٤٨ ساعة .

ونخرجت آسفاً . وقد عقدت العزم على العدول عن رسالتى الروسية .

ووصلت إلى هيئة السياحة اليوجوسلافية لأنجى المبيز وأسترال دolarات .

وكانوا كراماً . فأخذوا إيراصاتهم وسلموني الدولارات في ثلات دقائق .

وحين سألهم كم من الوقت يستغرق الرد عادة على برتيلات الحجز ، أجبوا : أنت وحظك من ٢٤ ساعة إلى ثلاثة أيام .

ونخرجت على عجل إلى السفارة الإيطالية فتحققـات منها على تأشيرة دخول إيطالية في خمس دقائق . ثم توجهـت إلى السفارة البريطانية ، وفي خمس دقائق أخذـت التأشيرة البريطانية وقد انتهـي التنصـل البريطاني في بلجراد أن يستقبـاني ويـاغـو وهي نحو نصف ساعة مرسـباً ، وعرفـت منهـ أـنهـ كان أحد الضـباط الذين زـلـوا بـورـسيـيدـ أيام الـدوـانـةـ الـثـلـاثـيـ فيـ سـنةـ ١٩٥٦ـ . قالـ : فيـ الواقعـ أناـ دـاـمـيـنـ بـحـيـاتـيـ لـنـائـبـ مـحـافـظـ بـورـسيـيدـ ، فقدـ وـقـعـتـ فيـ يـدـ الـحـماـهـيرـ وـكـادـتـ أـنـ تـفـتـكـ بـيـ . ولـوـ لـنـائـبـ الـحـافـظـ لـكـنـتـ الـآنـ فيـ خـبـرـ كـانـ . أـكـمـ تـهـنـيـتـ أـنـ أـشـكـرـهـ عـلـىـ هـذـاـ الصـنـيـعـ . وجـرـناـ هـذـاـ إـلـىـ الـكـلامـ فـ السـيـاسـةـ الـمـصـرـيـةـ الـإـنـجـلـيزـيـةـ وـكـانـ يـرـىـ أـنـ إـنـجـلـتراـ حـاـولـتـ أـنـ تـفـعـلـ بـعـضـ الـخـيـرـ فـ مـصـرـ . قـاتـ : نـحنـ الـمـصـرـيـنـ كـانـ يـسـوءـنـاـ فـ إـنـجـلـتراـ . وـهـيـ بـلـدـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ . أـنـهـ كـانـتـ دـائـمـاـ تـعـرـقلـ نـمـوـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ الـمـصـرـيـةـ بـأـنـحـيـازـهـاـ الدـائـمـ إـلـىـ الـمـلـكـ وـابـاشـوـاتـ وـالـحـكـومـاتـ الـدـكـتـاتـورـيـةـ ، بـحـجـةـ أـنـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ الـإـنـجـلـيزـيـةـ غـيـرـ قـاـبـةـ لـلـتـصـمـيدـ .

قال القنصل البريطاني : هذه سنة الحياة وهذه مسئولية كل بلدناشىء تحرر حديثاً . إنه شيء كالآمونة . إن المرأة حين تنجب طفلها الأول تتجدد نفسها في مواجهة هذا الوليد بغير عون ولا تلقين إلا ما توحى به غريزتها وما تتعارمه بالممارسة . تجربة شاقة أن يعلم الإنسان نفسه ولكن لا مفر منها . وووجدت نوعاً من الحكمـة في ذلك على إطلاقه . ولكنـي عدت فــذـكرـتهـ بأنـ الاـستـعـمـارـ كالـغـولـ المـتـرـبـصـ لـيـلـهـمـ كـلـ وـلـيدـ . أـجـابـ القـنـصلـ الحـكـيمـ : وهذاـ أـيـضـاـ جـزـءـ مـنـ التـجـربـةـ . أـنـ تـلـهـمـ فـطـرـةـ الـأـمـوـمـةـ الـأـمـ أنـ تـحـسـيـ أـلـادـهـاـ مـنـ الغـيـلـانـ . ثـمـ عـرـجـتـ عـلـىـ السـفـارـةـ الفـرـنـسـيـةـ وـحـصـلتـ عـلـىـ التـأـشـيرـةـ الفـرـنـسـيـةـ فـ خـمـسـ دـقـائقـ .

وبعد أن فرغت من جمع التأشيرات الغربية على جواز سفرى قصدت إلى شركة الطيران العربية المتحدة . وأعانت مديرها الاستاذ مصطفى عبد الله على استبدال تذاكر سفرى الروسية إلى روما ولندن وباريس ثم أبرقت إلى الأستاذ هيكل عن طريق أ. ش . الأبلغه بتغيير برنامج رحلاتي وأبرقت إلى معارف في غرب أوروبا بقدومي . وهكذا انتهى كل شيء في يوم واحد . انهارت أحلامى الروسية وأنا موزع بين الأسف والامتعاض والتوجس والحزن على فرصة العمر

ولكن بقيت في ضميري بعض الألغاز التي حررت في فهمها . فنحن والروس أصحاب قاء تربطنا اليوم آصرة كفاح عظيم ، ولم أفهم أن يختار الروس هذا الوقت بالذات ليؤدوا تأشيرتي . وكنت أعرف عدداً لا يحصى من زملائي في القلم ومن رجالات مصر ومن غيرهم يتجلون كل

يُوْمٌ بَيْنَ الْقَاهِرَةِ وَهُوْسَكُوْ وَكَانُوهُمْ يَتَّفَلُونَ بَيْنَ الْقَاهِرَةِ وَالْاسْكَنْدَرِيَّةِ . فَلِمَاذَا أَنَا بِالذَّاتِ بِيَحْالِ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذِهِ التَّجَرْبَةِ الْكَبْرِيَّةِ . ثُمَّ لِمَنِي أَقْرَأْ كُلَّ يَوْمٍ أَنَّ الْإِتَّحَادِ السُّوفِيَّ مِنْذَ اِنْقِشَاعِ الْإِسْتَالِيَّيَّةِ قَدْ فَتَحَ حَدَّودَهُ لِكُلِّ الْزَّائِرِينَ حَتَّىٰ مِنْ بَلَادِ أَعْدَاءِهِ .

وَزَادَ مِنْ حِيرَتِي أَنِّي شَخْصِيًّا ، وَلَتَكَلَّمَ بِصَرَاحَةٍ ، بِغَضْبِ النَّظَرِ عَنْ مُعْتَقَدَاتِي الشَّخْصِيَّةِ ، لَاقِيتُ فِي بَلَادِي وَفِي غَيْرِ بَلَادِي فِي مَرَاجِلِ عَدِيدَةٍ وَمَتَعَاقِبَةٍ ، عَلَى اِمْتَادِ عَشَرِينَ عَامًا ، عَنْتَأً شَدَّادِيًّا كَلْفَنِيْ آنَا لِقَمَةَ عِيشِيْ وَآنَا حَرِيَّ وَأَمَنِيْ ، بَلْ وَمَا هُوَ أَخْطَرُ مِنْ هَذَا غَيْرِ طَرِيقِيِّ فِي الْحَيَاةِ وَحَوْلِيِّ مِنْ أَسْتَاذِ يَعِيشَ بَيْنَ «أَطْلَالِ» سَبَّنْسِرْ وَيَتَجَولُ فِي «فَرْدُوسِ» مِيلَتُونِ الْمَفْقُودِ وَيَسْتَمْعُ مَعَ شَلِّي إِلَى زَمْرَةِ الرِّيَاحِ الْغَرِيبَةِ وَيَسْكُنُ عَاجِيِّ الْأَبْرَاجِ مَعَ فَرِسانِ كِيَتِسْ وَسَيِّدَةِ شَالَوْتِ إِلَى أَدِيبِ صَحْنِيِّ يَضْبِيعُ وَقْتَهُ وَوَقْتَ قَرَائِهِ عَلَى أَشْيَاءِ عِلْمِ اللَّهِ أَنَّ أَكْثَرَهَا هَبَاءُ وَزَبَدٌ يَذَهَبُ جَفَاءً .

كُلُّ هَذَا حَدَثَ لِي لَا عَتْقَادَ الْكَثِيرِينَ أَنِّي شَيْوَعِيُّ خَطِيرٌ وَهُوَ شَرْفٌ لَا أَدْعِيهِ وَتَهْمَةٌ لَا أَنْكِرُهَا . وَلَا شَكَ أَنَّ الرُّوسَ كَعِيرِهِمْ قَدْ سَمِعُوا بِذَلِكَ . وَلَمْ يَقِنْ أَمَامِي إِلَّا أَنْ أَتَصْوِرَ أَنَّ لِي مَلْفَأً سَيِّئًا عَنْدَ هُؤُلَاءِ الْقَوْمِ جَعَلَهُمْ يَتَرَدَّدُونَ طَوِيلًا أَمَامَ اسْمِيِّ لَا يَعْرِفُونَ أَيْمَانِهِمْ وَأَمْ يَتَجَهُهُمْ .

وَعَلَى كُلِّ فَقْدِ بَقِيِّ الْلَّغْزِ عَنِّي بِغَيْرِ حَلٍّ ، وَلَا يَرْزَالُ . وَكَانَ مَصْبَارِ رَاحَةِ لِي أَنْ أَسْتَعْرَضَ تَجَارِبِيِّ وَتَجَارِبِ الْغَيْرِ الْمُسْلِمِيَّةِ وَغَيْرِ الْمُسْلِمِيَّةِ مَعَ حَفَاظِ الْحَدُودِ فِي كُلِّ بَلَادِ الْعَالَمِ . ذَكَرْتُ مَا حَدَثَ لِصَدِيقِيِّ الدَّكْتُورِ عَلَى الْجَرِيَّاتِ لِمَنِيَّ نَزَلَ مَطَارَ نِيُويُورَكَ لِأَوَّلِ مَرَةِ عَامِ ١٩٤٦ فِي طَرِيقِهِ إِلَى مَؤْتَمِرِ

بريتون ووزر ، فقد استوقفه ضابط الجوازات وسأله هذا السؤال الغريب : « هل جئت إلى أمريكا لاغتيال رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ؟ » (وكانوا قبل ذلك بشهرين قد عثروا على قنبلة في البيت الأبيض دسها شاب من كوستاريكا) . وذكرت ما قاله لي ضابط الجوازات في ميناء نيويورك عندما وطئت أرض أمريكا لأول مرة عام ١٩٥١ في طريقه إلى جامعة برستون ، قال وهو يتفحص جواز سفرى « عملك محاضر في جامعة القاهرة . هل جئت لمحاضر في الشيوعية بجامعة برنستون ؟ » دعابات ثقيلة أكرم منها المنشق الشامل ، فلخير أن يرد الضيف كريماً من أن يلقاك رب الدار في جهادة واستراحته .

ثم حدثت مفاجأة . في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، فوجئت بدق شديد متواتي الضربات على باب غرفتي بفندق سلافيا ، فهرعت وكانت لا أزال في بيجامتي ، إلى الباب لأعرف من الطارق وما الخبر . وإذا بي وجهاً لوجه أمام قنصل روسيا في بلجراد . وصاح أناطولي ستيبانيوك عبر الباب قائلاً في بشر عظيم : « يادكتور عوض . لقد وصلت تأشيرتك ». قلت : أولاً تفضل ثم قل لي ما الخبر . ودخل استيبانيوك الحجرة قائلاً : « ناولني جواز سفرك . جاءتنا من موسكو أمس مساء برقيه تقول إن اتحاد الكتاب في انطالقك . هات الباسبور لأعطيك الفيزا ثم اتبعني إلى السفارة ». قلت في ارتباك : « ولكنني غيرت كل شيء ، غيرت التذاكر وحصلت أمس على التأشيرات لروما ولندن وباريس . . . بل وأبرقت لرئيس تحرير الأهرام بأنني غيرت خط سيري

وفتح الباب القنصلي وأدخلني ثم أغلقه . وجلست أمامه أرقبه وهو يتم — إن هذا غير ممكن ، فلنترك رحاتي الروسية إلى فرصة أخرى » قال وقد بدا عليه حزن شديد : « لا . لا . سوف يحزنون في اتحاد الكتاب إذا لم تزر الاتحاد السوفيتي . لأنهم أعدوا كل شيء لكي تزور ما تريده ، لا بد أنها كانت غلطة من دوطف صغير في وزارة الخارجية أو في اتحاد الكتاب أحمل البرقيات أو لم يقدر من تكون . إنني اعتذر بحرارة . »

وكان استيفانوك طبعها يعتذر « للأهرام » لالي . فهو صحفي قديم ويعرف « معنى » الأهرام » ولعلها عندما التقينا لم يكن سمع باسمي ، ولكن صحفي كمحرر أدبي بجريدة « الأهرام » كاذب . مصدر حفواته وارتباكاته السابقة .

وكان لا بد من اتخاذ قرار فوري . وحسبتها بسرعة البرق : إن رفضي دخول الاتحاد السوفيتي بعد أن جاءتني التأشيرة سوف يقول على أنه موقف ، وأنا جئت لأتعلم لا لأنخدع مواقف . ثم إنني لست وحدى في هذا ، فهناك أيضاً جريدة .

وسلمته جواز سفرى في استسلام . وهرول به إلى السفارة الروسية التي كانت على مسيرة خمس دقائق . وفي دققتين كنت في بدلتي . وفي لحظة صبيانية أصبحت بربع شديداً على جواز سفرى ، أن يحدث له شيء ، فأنت خارج بلادك بلا جواز سفر . فجل فقد دليل وجوده . وبلاجت للسفارة فوجدتها لا تزال مغلقة . لقد كانت الساعة السابعة والربع . ودرت حول السور فرأيت من خلال زجاج النافذة صاحبى أنا تولى ستيفانوك يكتب على مكتبه . وذكرت له زجاج النافذة ، فرأني وتهض

الإجراءات مع زملائه وصوت الآلة الكاتبة يدق عنيفاً أعنف من التي كررها
وسألني أين تريده أن تذهب؟ قلت: «موسكو ولنجراد». فقط؟
نعم، فقط. وكتب الآلة: موسكو ولنجراد. كم تحب أن تبقى
قالت: أسبوعين. قال: فقط؟ نعم، فقط. هذا قليل. خذ شهراً.
وكتب الآلة شهراً. ثم بعض التوقيعات وبعض الأختام، وانتهى كل شيء.
ولم يتركني أناةول: اتصل أولاً بشركة الطيران الروسية وحجز لي مكاناً
في طائرة الغد، ثم قال: هيا إلى شركة الطيران العربية المتاحة نبدل تذاكر
السفر. وكانت هذه أشقاً مرحلة في الموضوع. بالأمس فقط أزعجهم
لتغيير تذاكري إلى الغرب وهذا أنا أزعجهم اليوم من جديد لتغييرها
إلى الشرق. وفي الشركة شرحت لهم الموضوع. وأدركت الرجل الذكي
ونصطي عباد الله دقة الموقف فأولى الأمر عناته الشهخصية. ولم يتركني
أناةول استيباري و إلا وأنا على سجاج العطاء الروسي الميمون، وكأنني وديعة
يحف أن تصيب في الطريق.
ولم أنس قبل سفرى أن أبرق بخبر ياتى بالعدل عن العدول.



الفصل الرابع

موسكو

مدينة القباب والأخلاق الفاضلة

عندما نزلت مطار موسكو كانت مني رغبة إلى درجة الغمام ، كنت أولاً فرنساً بتحقيق حلمي الكبير . وهو زيارة الاتحاد السوفييتي . وكانت تجربتي اليوغوسلافية المرهقة ثانياً قد أعلمني نفسياً لقبول أي شيء يأتي به القادر بصدر واسع . وكان اليوم عصر السبت ، وهو يقابل عصر الخميس عندنا ، أي بداية عطلة نهاية الأسبوع ، ولم أكن أعرف إن كان اتحاد الكتاب السوفييت قد تسلم برقية الفحص الروسي في بلجراد بوعده وصول أم لا . ولم يبعد يخييفني ألا أجده من يتضمنني في مطار أو أن أجده نفسي وسط قوم أكلمهم بمفردات عالمية تكملها لغة الإشارة . بعد عشرة أيام من الإقامة بين سلاف الجنوب كنت على تمام الأبهة لواجهة سلاف الشمال .

وفي مطار موسكو ركبت تاكسي . وقلت : « هوتيل » . وزلت في فندق مينسك . لا مكان .. وبعثت لي الموظفة عن مكان في الفنادق الأخرى .. لا مكان في فندق روسيا . لا مكان في متروبول .

لا مكان في أوكرانيا . لا مكان في الناشيونال . قلت ضاحكاً :
يبدو أنى سأقام في الشارع . قالت السيدة ضاحكة : هذا من نوع في
الاتحاد السوفياتي . قلت ضاحكاً : إذن سأقام في قسم البوليس . قالت :
لا أظن أننا سنتركت تنام في قسم البوليس . واختفت دققيقتين ثم عادت
وقالت : حجرتك رقمها ١٥ ، وسيقرضك الفندق ٢٥ روبل لتحاسب
التاكسي حتى تبدل دولاراتك غداً من المبنى . وحمل السائق الصبور
أمتعمى داخل الفندق وهو لا يكف عن الابتسام ، وكأنه شريك
في هذه الاهبة المسليمة .

وهكذا تجاوزنا الأزمة بالابتسام . وكان كل شيء في موسكو
يشعر بالدفء ، دفء القاوب ، من المطار إلى حجرتي . من موظف
الجهاز إلى عامل المصعد . فهن لم يبتسם لك بشفتيه ابتسام بمحينيه . ولم
أضيع وقتاً . استبدلت ملابسي وزلت أتجول في شارع جوركى ، وسرت
أتسّكع من ميدان مايا كوفسكى إلى ميدان بوشكين ومن ميدان بوشكين
إلى الميدان الأحمر وقبابه الذهبية في ظلال الكرملين . وشارع جوركى
الفضييع مشرق بالنهار حتى بعد الغروب . وذهبت أتعنم تماثيل موسكو
العظيمة الواقفة في قوة وشموخ من قوة الإنسان وشموخه ، لا تأله فيها ولا
تهاظم كذلك الواقف هاده في السحاب في ميدان الطرف الآخر بلندن ،
ولا صقل ولا جمال ولا واقعية كذلك الواقفة في متناول الكف في
ميدان مدينة النور ، وإنما اعتزاز من عزة الإنسان الذي يحصل على
كاملية عباء مصير الإنسان . وعلى تمثال بوشكين قرأت

أشعاره على قاعدته تقول :

« لسوف يسمعون بي في كل أركان روسيا العظيمة ولسوف يلهمون كل لسان :

أنا سليل السلاف الطموح سليل الفين والتونج المتبر برین حتى الآن سليل الكالميلك ، أصحاب السهوب » .

« ولسوف يحبني قومي طويلا لأن قيماتي هزت جمبل المشاعر ، ولأنني أنشدت للحرية الأناشيد في زمني العاتي ، وناديت بالمرحمة على المقهورين » .

فأجد أن بوشكين قال شيئاً أكثر من قول المتنبي : « إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدآ » وأكثر مما قال هوارس في قصيده الشهيرة : « لقد بنيت أثراً أكثر شوخاً من المهرم .. إلخ » لأن بوشكين لم يذكر نفسه فحسب وإنما ذكر حرية الأحرار وشقاء العبيد .

ثم أعود القهقرى من ميدان بوشكين إلى ميدان ما ياكوفسكي فأقرأ شعره يقول على قاعدة تمثاله :

« وأغنى لوطنى وجمهوريتى ، فغنائى لربع الإنسانية يولد من الكلج والقتال » .

فأقول هذه رؤيا شاعر عاصر صراع البلاشفة العظيم وحلم بالعالم الجديد الموعود يخرج من العالم القديم الشقى كما تخرج تباشير الربيع من أحشاء الشتاء الحزين . والشوارع كلها فسيحة جداً كأنك في روما منتظمة تماماً ، كأنك في نيويورك كلها عمارات رازحة شهباء بنوافذها

الصغريرة الكثيرة وكأنها أواح حجرية جسيمة مقلوبة تماماً وجه السماء ، فالمدينة طابع خاص وشخصية خاصة ، والمدينة حديثة التخطيط رغم أن عمرها من العصور الوسطى . ولا مكان فيها للفيلا أو لمبيت الصغير لأنه لا مكان فيها لفرد مستقل عن الجماعة يبني لنفسه بيته مستقلاً عن الجماعة . وكانت من قبل أتوهم موسكوف في خيالي مدينة قاسية عابسة مظلمة كلها قباب كقباب الكرملين تراكمت عليها الغيوم الثقيلة المطيرة السوداء ، فإذا هي مدينة عصرية سمححة وودود تحب الزائرين وتعطيهم ما عندها بقلب سخي . قالوا تلك صورة موسكوف ، بقيت لك مما قرأت من روايات دوستويفسكي أو نوادر عن إيمان الرهيب . أما موسكوف الجديدة فهي بنت المجتمع الاشتراكي . وأحببت هذه المدينة منذ اليوم الأول رغم أنها لم تكن « جميلة » كبروسا أو باريس .

ثم بدأت أستكشف أشياء عن مدينة . عضني الجوع نحو العاشرة مساء فخرجت أبحث عن زاد فوجئت الشوارع مقفرة أو شبه مقفرة . قالوا لي في الفندق إذا لم تسرع فسوف تنام على الطوى ، لأن كل المطعم تطفىء أنوارها وتغلق أبوابها في الخامسة عشرة . قلت : ألا تسهرون في موسكوف ؟ فضحكوا ضحكة فيها تغافل وقالوا : كل السياح يسألون هذا السؤال . تقصد هل لدينا كاباريهات ؟ عندنا نكتة تقول : استوقف سائح رجلاً من موسكوف وسأله : أين أقرب كاباريه ، فأجابه الرجل : في هلسنكى . (وهلسنكى هذه عاصمة فنلندا !) ها ! ها ! ولكن هيا عجل . ستجد مطعماً قرب الميدان الأحمر . ومشيت نحو ربع ساعة

لا يحمل لي إلا قراءة اللافتات التي لم أفهم منها شيئاً ، لأنها مكتوبة بالأبجدية السيريلية وليس بالأبجدية اللاتينية . وأخيراً قرأت لافتة تقول : PECTOPAH (الروس ينطقونها « رستوان » ويكتبونها « بكتوباه » بأبجديتهم) . وصعات في عمارة جسيمة وفي القاعة العظيمة وجدت نحو خمسة طاعم يأكلون ومحنيه تقى على نغمات أوركسترا رقصات أمريكية كلها شبيهة بالتويست ، وما هي بالتويست ، والراقصون كلهم من الروس ، كانت المغنية « تجود » التويست الأمريكية بقاطع أوبرالية ثم تعود إلى الإيقاع السريع المنتظم ! وكان طنداً وقع غريب في تنسى أحست بأن الروس يريدون أن ينفحوا للآجاز الغربي ، ولكن منهج حياتهم الاجتماعية وبطبيعتهم النفسية الخلاصة وربما طول عزلتهم لا تمكّنهم من التعبير عن مشاعرهم باغة الجاز .

وهكذا اكتشفت منذ ليلي الأولى في موسكو أن حياة الليل لا وجود لها في موسكو ، وقس على ذلك بقية مدن الاتحاد السوفييتي . وليس في موسكو كلها إلا بار واحد صغير بجوار الميدان الأحمر أعد للأمريكيان وأضريتهم من السياح ، يشهر حتى الخامسة صباحاً ، وليس فيه طعام ولا موسقى وإنما فيه الشراب حتى الصباح ولا تقبل فيه عملية إلا الدولار ، وبهذا يضمون عالم تردد الروس عليه . ولعلها بمحاجلة من الحكومة الروسية لرجال الأعمال الأجانب الذين اعتادوا في بلادهم السهر خارج بيتهم . أما الروس فيشربون في بيتهم ، ويندر أن ذري روسيّاً خارج داره بعد منتصف الليل ، فإذا رأى روسيًّا يتزاح من الشراب في الطريق العام اعتبروا

عمله هذا مجانية للعام على المبتدئ الشيوعي . وفضله . وذكره على أن أستاذًا في جامعة موسكو ضبط في حالة سكر بين ، وبعد إجراء اللازم نحوه في قسم البوليس (الدوش وغسيل الأدماء) . التقاطوا صورته وعلقوها في الأتوبيسات بأمر الحزب لينحظ الكافة بفضيحته . وفي موسكو الأتوبيسات بلا كمساريه ، وكل راكب يقطع تذكرةه بنفسه بعد الركوب ، فإن ضبطوا راكبًا بالسفرقة صوروه وعاقبوه صوره في كل وسائل المواصلات وعلى الجدران . وهذا يفهرون مع كل الجرائم الصغيرة التي لا يعاقب عليها القانون ، أو الانحرافات الخلقية التي ينفع فيها الردع الاجتماعي ولا تدخل تحت طائلة قانون العقوبات . كطالب يسرق أشياء زملائه أو عامل يهمل في عمله وغير ذلك ، ويعنى هذا أن الحزب يقوم بدور « المطوعين » ، بطريقة أقل إيلاء لشخص الإنسان ، ولكن أكثر خدشاً لكرامته . وهذا عندهم وسيلة ناجحة ل التربية « الضمير » الاجتماعي ، وفي الغرب يسمون هذا « الخوف » الاجتماعي ولا يعلقون في الأماكن العامة إلا صور عتاة المجرمين المطلوب التقبض عليهم . وسواء سميت هذا تربية للضمير أو تربية للخوف فقد رأيت النتيجة ماماً ومرة خلال أسبوعين من إقامتي في أكبر مدينتين في الاتحاد السوفييتي : موسكو ولنجراد . كل الناس تهرباً في بيتهم قبل منتصف الليل . لا سكاري في الطريق العام إلا ماندر . كل الناس كمساريه نفسها في وسائل النقل الخ . .

وأنا من المدرسة التي لا ترافق الضمير بالخوف ، بل أعتقد أن الضمير لا يصبح ضميراً حتماً إلا إذا صفي من كل شائبة من شوائب

الخوف كحال القادر على الظالم ثم لا يظلم أو القادر على السرقة أو الزنا أو أي خطأ كان ثم لا يسرق ولا يزني ولا يخطئ . أما الإرهاب الخاطئ فلا يثمر الضمير وإنما يشمر العقد النفسية وقد جر به البيوريتان وجهه اعات الميثوديست في الغرب من غلاة التطهر الديني ، فكان القدس حين يجتمع برعيته في الكنيسة يوم الأحد يزار وسط المصلين : « وأنت يا مسخر كل ماذا كنت تفعلين في حديقة جارك فلان بعد منتصف الليل » فترتجف المرأة المسكونة تحت النظارات النازية المسددة إليها من كل جانب وتنهار وتتحبب وتعرف بذنبها أو « تندد ذاتها » كما يقولون باغة اليوم . ومع ذلك فقد انتابي إحساس واضح بأن هذا ليس بالضبط ما يجري في الاتحاد السوفييتي . انتابي الإحساس بأنني أقيم في مجتمع « باطريسي » أو « أبوى » كبير لا يقوم على إرهاب السلطة للشعب . ولكن يقوم على علاقة تشبه وصاية الأب أو الأم على الأبناء القصر

فكما تقول الأم لولدها : الساعة الآن التاسعة ، اشرب لبنك ونم فينصح الولد لنصالحها بشور غير شعور الخوف من الزجر أو بشعور مضاد إلى شعور الخوف من الزجر ، وهو شور هزيرج من الحب والولاء والثقة في حكمية الأم وحرصها عليه ، وكما يقول الأب لابنه : لا تذهب هذا المساء إلى السينما أو إريك أن تعاكس بنت الجيران فينصح ابن او صايه ، كذلك أحسمت بأن استجابة الناس لتوجيهات أولى الأمر منهم شبيهة بطاعة البنين للأباء ، أساسها ليس مجرد الخوف من التأديب ولكن عواطف عديدة مركبة مضادة إلى ذلك . وربما كان

هذا مصدر خطاً الغرب في فهم منابع الساوك الاجتماعي الروسي والطريقة الروسية في التراسك الاجتماعي والسياسي بل ونهج الروس في التفكير الاجتماعي . فالغرب يعزز كل ما يراه من طاعة وانصياع وتماثل أو « كونفوردية » في الفكر الروسي والساوك الروسي إلى مجرد عامل انلوف من السلطة ، والأرجح عندي أن الشعور بأبوة السلطة هو الأساس الأقوى ، حتى في عهد الإرهاب الاستalinي . ومن الآباء من يربط أولاده في عمود السرير ولا يتركهم إلا بعد أن تتحطم العصا على ظهورهم بدافع الأبوة وبقصد التنشئة الصالحة .

والذى هداني إلى هذا التفكير هو ما لا حظته في مناقشاتي مع عشرات من الروس الذين التقى بهم ، من أنه لا أثر للتزمس الأخلاقي بالمعنى الفكتوري أو البيوريتاني عندهم ، ولا أثر لتأصيل النضالية في الدين ، فالماركسية قد جعلتهم علمانيين مائة في المائة وصفتهم من الإيمان بالغيبيات التقليدية . فاستقامتهم إذن ليس منبعها نوازع الدين أو أواصره أو نواهيه ، وهم قد تخففوا في نظرهم للجنس أو الشهوات عامة من فكرة « المحرمات » أو فكرة « الخطيئة » التي تغرسها المسيحية وكل أديان التوحيد في نفوس المؤمنين . والماركسية ذاتها ليس فيها مجموعة من القوانين الأخلاقية يمكن أن تحمل محل الأخلاق الدينية . فالذى ظهر محل الأخلاق الدينية في روسيا بعد « الموجة » الشيوعية الأولى هو لا شئ غير مكتوبة بالحقوق والواجبات الاجتماعية التي ترسبت في وجدان الروس فاتخذت قوة القوانين الأخلاقية . وقد كان لستالين رغم

عيوبه الكثيرة فضل كبير في إقامة مجتمعه على الأخلاق الجديدة ، وأسماها تقديس العمل وتقديس الوطن وتقديس المجتمع .

ولم أجد أحداً يتحمل من نظام « بيتك .. بيتك » قبل الساعة العاشرة . بل على العكس من ذلك كنت أجده دفاعاً منطقياً هادئاً من كل من حديثهم في هذا الموضوع . والمنطق بسيط وواضح : من يسهر في الليل يتراخي في النهار . ونحن نريد أن نكون مجتمعاً منتجأً ، ولذا فنحن لا نسهر في الليل . كان هذا الكلام يقال لي فأجده مقنعاً وغير مقنع ، وكنت أجده يذكر بنصائح الآباء للأبناء . ولكنني كنت أسأله : وما بال شعوب الغرب تسهر في الليل وتعمل في النهار ؟ بيكماديلى وونمارتر شعلة من ضياء في الثانية صباحاً ورغم ذلك لا أحسب الإنجليز أو الفرنسيين أقل إنتاجاً من الروس . ووجدت تفسيراً آخر : حياة الليل معناها حياة المتعة ، وحياة المتعة مهما كانت بريئة معناها الإنفاق عن سعة . وفتح عيون الناس على المتعة يدفعهم إلى البحث عن الدخل الواسع بالمشروع وغير المشروع أو يدفعهم إلى القلق والسرخط إذا لم يجدوا إليه سبيلاً . فليغلق إذن هذا الباب باللغاء حياة الليل . وهذه هي الفضائل الاقتصادية . ليس فيها جدوى ، فهي الفضائل الممارسة في كل أسرة من الأسر البورجوازية الصغيرة التي تندد بكل متعة تبدد دخل الأسرة المت逞فة على الاستهلاك بدل الاستثمار . وقد كانت هذه هي الفضائل الالزمة للشعب الروسي الباهل الفقير المستعبّد تحت القيصرية الالهية السفيهية لكي يتحول إلى شعب متعلم يعيش حياة مستورة

محررة من ذل الفقراء وختنوع البحياع .

وكان على أن أواجهه يوم التالي (الأحد) في موسكو وحيداً قبل أن أتمكن من الاتصال باتحاد الكتاب في يوم الاثنين ليرسلوا إلى مترجمأ أو مرافقاً، وما أدرأك ما يوم الأحد في بلاد لا تعرف لغتها ولا أسماء معالمها . وتبئأت بأحد مفترض صائع أقضيه وحدي في غرفى لا أرى شيئاً ، فإن خرجت فليخطوات حتى لا أتوه . ولكن حظى كان خيراً مما توقعت .

دق جرس تليفوني وببدأ هذا الحوار الغريب . امرأة تقول بالروسية أى كلام ، افتراضاً « خراشوش خراشو خراشو ». وأجبت بالفرنسية أنا كذا واسمي كذا وصفتني كذا . أتفهمين الفرنسية؟ .. أجبت بفرنسية متعرّثة : « قليلاً .. أنا أسأل عن صديقتي . سونيا » قلت : « آسف يا سيدتي لا بد أنها رحلت قبل مجئي » ، قالت : « خسارة . كنا اتفقنا مع صديقتي أوس أن نخرج بالأطفال للجناهن » . ثم ضحكت . قلت : « آسف يا سيدتي ، ولكن صاحبتك غير موجودة » ثم لمع في عقلي خاطر عملي غريب . مادامت هناك سيدة تريد أن تتسلّك يوم الأحد فلماذا لا تتسلّك معي في المتاحف بدلاً من الجناهن . قلت : « اسمعى . مادمت تريدين التزهّة فأنا غريب هنا وأريد أن أزور المتاحف ولا أجده من يساعدني على لغتكم . فهل تستطعين مساعدتي؟ » وضحكت ضحكة طويلة كأنما كلامي دغدغها . قالت : « توريست؟ » (أى سائح)؟ ولم أجده داعياً لتفسير الأمور فقلت : « نعم سائح مصرى » وعادت إلى ضحكتها فقد كان الموقف مسلينا . قالت : « كم عمرك؟ » قلت : « ٥٦ » . قالت :

«هل أنت أبيض أو أسود؟» وبدأت أتوjis . قلت : «متوسط». قالت : «هل أنت طويل أو قصير؟» وضحكتنا معاً . قلت : «متوسط» قالت : «آتى مع صديقتي لوس والأطفال». قلت : «عظيم . متى؟» أجبت : «الساعة الواحدة . أنا إسمى أو بحـا». قلت : «تعالى في الواحدة واطلبـي من صـالـون الـدوـتـيلـ بالـتـلـيفـونـ أـنـزلـ فـورـاً» . قـالـتـ : «ـكـلاـ ، سـنـتـظـرـكـ خـارـجـ الـأـوـكـانـدـةـ» . قـالـتـ : «ـكـماـ تـريـدـينـ . ولـكـنـيـ لاـ أـعـرـفـ شـكـلـكـ» فـضـيـحـتـ وـقـالـتـ ، «ـأـنـاـ أـلـبـسـ بـأـوـزـةـ زـرـقاءـ . وـسـتـعـرـفـ بـالـأـطـفـالـ» . قـلـتـ : «ـاتـفـقـنـاـ». وـانـتـ هـذـهـ المـكـالـمـةـ الغـرـيـبـةـ . وـخـفـ إـلـىـ صـبـاحـ الـأـحـدـ الكـاتـبـ رـوـمـاـنـسـيـفـ المـوـظـفـ بـاتـخـادـ الـكـتـابـ . قـصـصـتـ عـلـيـهـ قـصـةـ أـوـبـحـاـ وـحـدـيـثـاـ التـلـيفـونـيـ . فـضـيـحـكـ وـقـالـ : «ـبـدـاـيـةـ لـاـ بـأـسـ بـهـاـ» . وـيـبـدـوـ أـنـ ذـهـنـهـ اـنـصـرـفـ إـلـىـ أـشـيـاءـ أـخـرىـ وـهـوـ مـعـذـورـ فـيـ ذـلـكـ . قـلـتـ : «ـهـيـاـ بـنـاـ نـتـظـرـ خـارـجـ الـفـنـدـقـ فـالـسـاعـةـ الـآنـ الـواحدـةـ إـلـاـ دـقـيـقـتـيـنـ» .

وخرجنا ووجلنا سيدتين متتوسطتين في الجمال في نحو الخامسة والثلاثين . ومهما ثلاث بنات بين السابعة والعاشرة وعرفت أولئك من يلوزتها الزرقاء .. وتعارفنا في لحظة .

ودعوت الجميع للغداء معى في مطعم فندق منسك ، قبل أن نبدأ التجوال . وعرفت أن أو بلحا مهندسة بناء سفن وأن صاحبها خبيرة اقتصاد وكان حديثنا بثلاث لغات : مع رومانسيف بالإنجليزية ومع السيراتين بالفرنسية . وكانت تدخله مناقشات طويلة باللغة الروسية بين أو بلحا



ورومانسييف. ثم لا حظت الارتباك على وجهه أو بخلاف فسألت رومانسييف : « عم تتحدى ثان ؟ » قال : « كانت تعذر لي عن تعارفكمـا الغريب بأنها حين عرفت أذنك سائح غريب ظنت أنها تقدم خدمة وطنية بمساعدتك ». وضحكـت في استياء لأنـي لم أستسـغ هذا النوع من الكلام . ولا أعرف إن كان رومانسييف قد أخرجـها بقلة ذوق فعاتـها على هذا الأسلوب في التـعارف بالـغرباء أم أنها أحـست بالـخرجـ من وجودـه فـذهبـت تعـذرـ من تـلقاء نـفسـها بعدـ أنـ أدرـكت صـفتـي وـعـرـفتـ أنهـ منـدـوبـ اـتحـادـ الـكتـابـ . والأـمرـسيـانـ فيـ الـحالـينـ ، وهوـ وـضـعـ اـمـرـأـةـ تـخـجلـ مـنـ سـوـءـ تـصـرـفـهاـ وـتـقـالـمـ تـفـسـيرـاـ عـنـهـ لـلـغـربـاءـ ، وـكـأـنـهاـ مـسـؤـولـةـ أـدـامـ روـمانـسيـيفـ ، وـكـأـنـهـ مـثـلـ الـمـجـتمـعـ وـيـشـيرـ إـلـيـهاـ بـأـصـبـعـ الـاتـهـامـ رـغـمـ أـنـهـ لـاـ تـرـبـطـهاـ بـهـ حـتـىـ أـوهـيـ الـرـوابـطـ . ثمـ هـذـاـ الـتـبـحـثـ فـيـ «ـ خـدـمـةـ الـوـطـنـ »ـ كـأـنـماـ مـجـرـدـ الـاسـطـلـاعـ الـإـنـسـانـيـ العـادـيـ الـذـيـ يـدـفعـ النـاسـ لـلـتـعـرـفـ بـالـنـاسـ أوـ الـبـرـ بـالـغـربـاءـ فـيـ حدـ ذاتـهـ جـريـمةـ . لـوـ أـنـ هـذـاـ جـرـىـ فـيـ إـنـجـلـيـزـاـ أوـ فـرـنـسـاـ أوـ إـيطـالـيـاـ مـاـ اـجـتـرـأـ أحدـ عـلـيـ التـطـلـلـ عـلـىـ السـاـوـكـ الشـخـصـيـ لأـحـدـ ، وـلـاـ أـحـسـ أـحـدـ بـأـنـ فـيـ مـثـلـ هـذـاـ ماـ يـسـتـوجـبـ الـاعـتـذـارـ .

وـأـنـاـ أـذـكـرـ هـذـاـ الـحـادـثـ التـافـهـ لـأـبـيـنـ مـبـلـغـ سـطـوةـ «ـ الضـمـيرـ »ـ الـاجـمـاعـيـ فـيـ روـسـيـاـ السـوـفـيـيـتـيـةـ . كـلـ يـتـصـرـفـ وـكـأـنـ أـلـفـ عـيـنـ تـراـقـبـهـ حـتـىـ فـيـ أـخـصـ خـصـصـيـاتـهـ . أـقـوـلـ الضـمـيرـ الـاجـمـاعـيـ لـاـ الضـمـيرـ الـأـخـلـاقـيـ ، فـحـيـثـ لـاـ تـرـمـتـ وـلـاـ إـحـسـاسـ بـالـحـطـيـةـ نـحـنـ خـارـجـ نـطـاقـ الـأـخـلـاقـ . أـذـكـرـهـ لـأـبـيـنـ لـلـنـاسـ أـنـ الـمـجـتمـعـ الـروـسـيـ السـوـفـيـيـ مجـتمـعـ فـضـيـلـةـ وـمـكـارـمـ

أخلاق على عكس ما كان يشيع عنه أعداؤه المضطهدون .
وصحبتي أو بليا ومجموعتها إلى متحف قصر الأمير يوسف خارج
موسكو وسط غابة أرخانجلسكوفيا .

دخلت متحفًا صغيرًا ثم غابة كبيرة تبلغ نحو عشرين فدانًا . وقبل
أن أدخل المتحف وجدت نفسي أليس فوق حدائق كبقية الداخلين
أنهافاً من كاوتشكوك . فأحسست برهبة المصلى يخلع نعله قبل الصلاة ،
وكان المقصود حماية باركيه القصر من آلاف بل ملايين الأقدام .
وربما دفع التزيف والكركبة ليتأمل الناس في صمت وجلال . ووجدت
نفسي بين كنوز من أروع نفائس أوروبا في التصوير والنحت ومن كل
مدارس الفن ، جمعها هذا الأمير الخطير الذي اشتهر اسمه في التاريخ بأفه
قاتل راسبوتين الجبار . كان يوسف بوف من أوسع أرستقراطي روسيا
ثراء أيام القيصرية وكانت له ضياع لا حصر لها : خمسة قصور وأوستة
مبشونة في أرجاء روسيا ، فاستولى عليها البلاشفة ، وحوواها إلى متحف ومرافق
عامة : نهب الفلاحين ليجمع كنوز الفن على تقاليد الأرستقراطية
الأصيلة فظل بلا دهون خدمها في آن واحد .

ولم أر بليا بعد ذلك المساء . قات : غدا يتسلمهني اتحاد الكتاب .
شكراً من القلب ووداعاً .

أربعة عشر يوماً قضيتها في روسيا بين موسكو ولنجراد وبعض
الريف . لم أر فيها متطلعاً متسكعاً أو شحادة أو رجلاً أو امرأة في
أسماك أو بغياً تناسب بين مصابيح الشارع . ولا شك أن هناك نماذج

من هولاء وأولئك ولكنها نادرة لا تراها إلا العين المترصدة ولم أر إلا مخموراً واحداً رغم شهرة الروس في قربعة الفودكا . أربعة عشر يوماً قضيتها في روسيا ونظمت فيها مئات المواجهات وتحركاتي فلسم يحدث فقط أن اختلت المواعيد ولو دقيقة واحدة . يقظون في الثامنة أو العاشرة فيتم المطلوب في الثامنة أو العاشرة . ولم أر إلا (مبنى جيب) واحدة ولم أر شاباً واحداً من طراز الهيببيز . ولم أر رجلاً واحداً أنيقاً أو امرأة واحدة أنيقة ، ولكنني رأيت ملايين الناس ، حتى الخدم وأفقر الفقراء في ملابس سوية نظيفة وسط لا رثاثة فيها ولا هندام .



الفصل الخامس

رحلة في عقل ساشاسخاروف

جاءني رجل وقال بالفرنسية: « اسمي تشيرنوكوف من اتحاد الكتاب
القسم الإفريقي ، جئت في الموعد المحدد لأصطحبك إلى الاتحاد لتلتقي
بالمسئولين وترسم معهم برنامج زيارتكم للاتحاد السوفييتي . لقد كنت
المترجم المعين لمرافقه الدكتور محمد مندور منذ أكثر من عشر سنوات .
كنت أحب أن أكون مرافقك ولكنهم عينوا لك مرافقاً آخر . ومع ذلك
فربما جئت لمساعدتك في بعض المراحل . سيخصصون لك سيارة
لانتقالاتك أو ما يقوم مقامها » .

وكان ذكر الدكتور مندور كافيا لإزالة الحواجز بيني وبينه .
وفي الطريق طفقنا نتبادل الذكريات عن الدكتور مندور ، وخيل إلى
أن تشيرنوكوف خير من يكتب فصلاً اسمه « محمد مندور في الاتحاد
السوفييتي » تنشره مجلة « الشرق » التي رأس تحريرها زماناً وفاء لذكره
ثم اكتشفت أن تشيرنوكوف يعرف كل أدبائنا الذين زاروا الاتحاد
السوفييتي معرفة شخصية وقرأت في عينيه المداعبين أن له آراء فيهم
ولإن لم يفصح لي بشيء منها .

وبلغنا اتحاد الكتاب . قال : هذا القصر كان قصر الكونت سواوجوب فصادره الدولة في ثورة ١٩١٧ . أتذكر شخصية الكونت روسستوف في «الحرب والسلام» لتوستوئي ؟ قلت : نعم ؟ قال : سواوجوب هو النموذج الحى الذى بنى عليه تولستوى شخصية الكونت روسوف . نحن لن نذهب إلى القصر ولكن إلى هذا الجناح . وأشار إلى مبنى قمى يشبه جزءاً من كلية الفنون التطبيقية عندنا إلى اليسار : « هنا إدارة العلاقات الثقافية الخارجية . ستقابل رئيسها الرفيق كوسور وكوف ، والرفيق تكاشيف رئيس القسم الأفروأسيوى فيها . هذا المبنى كان اسطبلات القصر » .

سألت تشيز نوكوف : « هل المستشارة يلينا ستيفانوفا تعامل معكم ؟ أنا أحب أن أقابلها فقد تعرفت بها في القاهرة وأحب أن أراها » . قال : « لا أظن أنك تستطيع أن تراها . فأمها مريضة في المستشفى وهي تلازمنها ثم إنها في أجازة . وقفزت إلى ذاكرى كلمات كنت قد سمعتها في القاهرة منذ سنة ، إن ستيفانوفا مغضوب عليها من اتحاد الكتاب . وتأملت كلمات تشيز نوكوف فوجدها غير مقنعة فكلنا لنا أقارب في المستشفيات ولكننا لا نلازمهم ٢٤ ساعة في اليوم .. أعدت في إصرار : « أرجو أن أراها ، فأنا في حياتي النقيت بعشرات المستشفيات . ولكنى لم أجد منهم من يتقن لغتنا الدارجة بالجهة غير يلينا ستيفانوفا وصاديق الإنجليزى دنيس جونسون ديفيز ، وصاديق الهولندي يان بروخمان الأستاذ بجامعة لايدن » . قال : سترى .

والتيقىت بالمسئولين في اتحاد الكتاب وتناولنا في برنامج زيارنى

وَكَانَتِ الْمُشَكَّلَةُ أَنَّا فِي عَزِ الْصَّيفِ وَأَكْثَرُ الْكِتَابِ خَارِجٌ مُوسَكُو . هَكُذَا قَالُوا . طَلَبْتُ مِقَابِلَةَ الشَّاعِرِ يَوْفِيتِيشِنْكُو وَالشَّاعِرَةِ بِيالَا حِيمِدُو لِيَنَا وَغَيْرِهِمَا فَهَا وَهُمْ جَمِيعًا فِي الْمَصَائِفِ أَوِ الْأَرِيَافِ . قَلْتُ : مُسْتَحِيلُ أَنْ تَقْتَصِرْ زِيَارَتِي عَلَى مِقَابِلَةِ الْمَبَانِي وَالْأَثَارِ وَالْأَحْجَارِ . أَنَا أَرِيدُ أَنْ أَلْتَقِي بِالْمُبَشَّرِ . قَالُوا : هَلْ لَكَ اهْتِمَاماتٌ خَاصَّةٌ ؟ قَلْتُ . أَرِيدُ أَنْ أَدْرِسَ حَالَةَ الْمَسْرَحِ الرُّوسِيِّ . وَبِالْمَذَاتِ مِنِ النَّاحِيَةِ التَّنْظِيمِيَّةِ كَمْذَلَكَ أَرِيدُ أَنْ أَلْتَقِي بِبعضِ نَخْبَرَاءِ التَّعْلِيمِ لِأَعْرِفَ شَيْئًا عَنِ التَّعْلِيمِ فِي بِلَادِكُمْ ، وَأَنْ أَلْتَقِي بِبعضِ الشَّيَانِ : وَبِبعضِ الْمَهْتَدِينَ بِالدِّرَاسَاتِ الشَّرْقِيَّةِ . قَالُوا : سَنُرْتِبُ لَكَ لِقاءً مَعَ بَعْضِ أَسَايَّةَدِهِ الْمَارِكِسِيَّةِ الْلَّيْنِيَّةِ وَمَعَ بَعْضِ الشَّيَانِ مِنْ مُحْرِرِي مَجْلِسَةِ « يُونَاسَتْ » (الشَّابِابِ) وَمَعَ الرَّفِيقِ جَرُومُوفِ الْمُخْتَصِ فِي الْمَسْرَحِ . وَنَقْرِحُ أَيْضًا أَنْ تَزُورَ عَزِيزَةَ تُولْسْتُوِي فِي يَاسِنِيَا بُولِيَانَا قَبْلِ سَفَرِكَ إِلَى لِيْنِنْجِرَادِ . وَأَنْ تَحَاضِرَنَا فِي اِتَّحَادِ الْكِتَابِ عَنِ الْأَدَبِ الْمَصْرِيِّ الْحَدِيثِ . . قَاتُ : كُلُّ هَذَا جَمِيلٌ وَلَكِنْ . . أَيْنَ الْأَدَباءِ ؟ قَالُوا : سَنَحَاوِلُ . وَأَسْهَسَتُ أَنْ زِيَارَتِي سَتَكُونُ عَلَى غَيْرِ مَا كَنْتُ أَرْجُو .

وَتَذَكَّرْتُ يَا يَنَا سَتِيفَانُوفَا ، وَطَلَبْتُ مِقَابِلَتَهَا ، فَأَعْدَادُوا عَلَى نَفْسِ الْكَلَامِ الَّذِي سَمِعْتُهُ مِنْ تِشِيزُوكُوفِ . وَإِنَّتِبْنِي ثَمَّى مِنِ الضَّيْقِ . قَلْتُ : « لَسْتُ أَفْهَمُ ، هَلْ الْمَرِيضَةُ فِي الْمَسْتَشْفَى أَمْهَا أَمْ هِيَ ؟ ». قَلَّمَهَا بِطَارِيقَةٍ تَعْنِي : أَنَّا نَقْرَأُ عَنْكُمْ أَنْكُمْ تَضَعُونَ بَعْضَ الْأَدَباءِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ فِي الْمَسْتَشْفَيَاتِ عَلَى طَرِيقَةِ الرَّوَائِينِ دَانِيِيلِ وَسَنِيَا غَسْكِيِّ . وَأَضْفَتُ : « أَنَا

أفهم أن تقول هي إنها لا تستطيع مقابلي أما أن يقول هذا غيرها فغير مفهوم . أعطوني رقم تليفونها » . ولم تحدث كلاماتي أى أثر فقد كانت الوجوه كالألقحنة . وكرروا في هدوء نفس العبارات الأولى ، ونسوا رقم التليفون .

وقبل أن أصرف عرفي بشاب ضئيل الجسم طولاً وعرضًا متلقي الوجه حال من الوسامنة في الثانية والعشرين من عمره ، وقالوا : هذا ساشا .. ساشا سخاروف . سيكون مترجمك أثناء إقامتك ، وهو يعرف الإنجليزية قلت : تشرفنا وشكراً ، وخرجت أتوكاً على مرافقي .

فيما بعد عرفت أن « ساشا » هو اسم التدليل الروسي لاسم الكساندر وإن « سخاروف » معناها « السكري » أو أي شيء متصل بالسكر . وبعد ذلك اكتشفت أن ساشا هذا من أثمن الأشياء التي عرفتها في الاتحاد السوفييتي ، فقد كان فتى شديد الذكاء يفهم ما يلقى إليه من كلام مهما كان مغلفاً . وكان يتقن الإنجليزية لائقاً مختصاً قليلاً بالخطاء رغم أنه كان في السنة المائية بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة موسكو ، وكان يعرف عن الأدب ما يكتفى ، ثم اختار أن يتخصص في فرع من اللغويات الإنجليزية حديث جداً غايتها تركيز اللغة في بوتقة بحيث تصلح لتغذية العقول الأليكترونية بالمعلومات . وكان يعرف الكثير عن بلاده وعن العالم الخارجي ويتمتع بدرجة عالية من الفضول العقلي ومن ملكرة النقد والتحليل . وكان تحت مظهره الهادئ يحمل شحنة عاطفية ضخمة نجح في إخفائها تحت سطح من الدعاية والظهور بالاستخفاف ، كما نجح

في إخفاء إرادته الحديدية وقدرته على تحمل الشقاء بنفس المنهج .
ومنذ تعارفنا في اليوم الأول سرى بيننا سينال كهربائي غريب كذلك
السيال الذي يسرى بين الآباء والأبناء ، وتهنئت أن يكون لي ولد مثله
فأنا أعيش من غير ولد وكأنى أوليس يبحث عن تليماك . عرفت منه
صادفة أنه ابن زنا ، لا ترتعب ، في الاتحاد السوفييتي تفقد هذه العبارة
مداوتها البعض عندنا . ولم يكن هناك أى أثر من آثار الخجل الاجتماعي
في كلامه .

قلت : كيف أتيح لك أن تتقن الإنجليزية المثقفة على هذا الوجه .
هل هذا مستواكم في الجامعة ؟ قال ببساطة : أمي التي ربته بمفردتها
كانت مدرسة لغة إنجليزية وقد علمتني الإنجليزية منذ أن كنت صبياً ،
لقد ماتت في العام الماضي وأنا أحياها أفتقدها . قالها ساهما ففهمت أن
أغواره تقول : وأنا أفتقدها طول الوقت ، ثم أضاف : لقد كانت امرأة
مجاهدة مثابرة . وحسبت أنني بإذاء قصبة كلاسيكية اولد نشأ يتيمماً ، فسألته
هل مات أبوك وأنت صغير ؟ أجاب : كلا . أبي لا يزال حياً .
وهو متزوج وله أولاد . قلت : طلاق ؟ عفوا ، أنا لا أريد أن أتطفل ..
أجاب بهدوء : لا . أبي ترك أمي ، وهي حامل بي . أراد أن يتزوجها بعد أن
حملت ولكنها طرده . كانت تحبه ولكنها أحسست أنه لم يكن يحبها ،
ولهذا رفضت أن تتزوج لمجرد استيفاء الشكل أو من باب قبول الاحسان ،
ثم تعيش بعد ذلك معذبة مع زوج لا يحبها . وتذكرت أنني التقيت منذ
ثلاثين عاماً بأمرأة أخرى من هذا الطراز هي شخصية استر ووترز في

رواية جورج بور التي تحمل هذا الاسم . فقد فعلت إستر بصاحبها المتلاط وليم عين ما فعلته أم ساشا بالرفيق سخاروف ، ولكن إستر كانت من البيوريتان ، من الأخوات البلemos ، ونحن هنا في عالم الاشتراكية العلمية . يالنا من القلب الإنساني ومن الشخصية الإنسانية ! هذه آلام ساشا الدفينة التي كان يخفيها تحت دعاباته العقلية الماءة . وكان مفتاح شخصيته الازدواجية : أى شيء إلا أن يظهر ضعفك أمام الناس . ومادمنا في موسكو فلنبدأ ببداية كل الأشياء : بناء على طلبي بدأنا البرنامج بزيارة ضريح لينين في سفح قصر الكرملين . جاءنى ساشا في الثامنة وأفطرنا معًا ثم ركبنا إلى الميدان الأحمر . وكان أربابنا طابور من البشر أزواجاً أزواجاً طوله نحو كيامتر (أحياناً يبلغ الطابور ثلاثة كيامترات) والطابور يتحرك في بطء بطيء كأنما يسير في موكب جنائزى . وأبرز ساشا أوراقاً للحراس عند مدخل الميدان الأحمر فتركونا ندخل متتجاوزين دورنا في الطابور ومن باب اللياقة اندمجنا في الطابور مرة أخرى على مبعدة مائى متر من الضريح حتى لا نخترق هذا الرائد المسجى فنؤم مشواه كما يؤم السياح برج إيفيل . وكان واضحاً أن آلاف الحجاج وأغلبهم من الروس ، يأتون من أطراف الاتحاد السوفياتي ليؤدوا فريضة الذكرى لهذا الرجل العظيم . وكان على الوجوه خشوع . حتى بلغنا مدخل الضريح برزامة الأسود والأحمر ونفذنا بين الحراسين المتواجهين في المدخل كأنهما تمثلان بعنديين من الشمع لا يحتاج لدمما رمش ولا يتحرك إنسان عين .. ونزلنا الدرج فقادنا إلى ممر تحت الأرض

غير عميق ، ثم أفضى بنا الممر إلى المرقد الأكبر حيث تابوت من زجاج
رقد في داخله جثمان فلاديمير إيلاتش لينين المحظى في كامل ثيابه وقد
أضاء محياه نور خفي دائم ، فيما على غير ما تبدو دواعي واتنا السوداء ،
أبيض لا معًا ، شرباً بالحمرة بأحماض غير أحماض الفراعنة ، وعلى شفتيه
ابتسامة الغبطة تحس ولا تحس ، وطوفنا بالجثمان مرة واحدة حتى قادنا
الطواف إلى دهليز مقابل المدخل بنا إلى الدرج الذي أفضى بنا إلى الخلاء
من جديد عند سفح الكرماني حيث وجدنا أنفسنا نمر بين مائة قبر
كلها رخام أسود وكلها على مستوى سطح الأرض يحفها عشب دائم الخضراء
 وكلها منقوشة بأسماء زعماء الثورة الباشفية . وفي المقدمة نحو عشرة تماثيل
نصفية لزعماء وقادة لا يمكن لتخليدهم رخام القبور ميزت بينهم كاليينين .
وفور وشياوف وفيشننسكي وستالين وجاجارين . وبطريق جدار الكرمانين
مائة أوifice رخامية مشيدة نقشت عليها أسماء أبطال الثورة الباشفية ومن
وراء هذه الأواحة وضع رماد أجدادهم . وقرأت بينهم اسم كروبسكايا
زوجة لينين . وكانت هذه كعببة الشيوعيين .

وأنا لا أعرف إن كان الروس يصاونون أم لا يصاون ، ولكن الجحود
الدينى قد نشر على المكان ثلاثة من الرهبوت . وألاف الحجج يأتون
كل صباح إلى مقام لينين وكأنه زوار ولـ عظيم من أولياء الله الصالحين
في بلاد الكاثوليك أو الماسونين أو أقباط مرقس الرسول . ولا تحس بأن
الدولة تهـيء أحداً للهزار ولا تحس بأن الحزب يجيش الجماعات لأداء
الطقوس ، ولا تحس بأن ناظر مدرسة كلـا الثانوية يقود أبناءه في رحلة

استطلاع أو لتقديم الفروض . إنما كل من هناك ساع بقدميه وباختياره مستجيب لنداء داخلي كالهاتف الديني ، وتمييز بينهم الفلاحين الذين نزلوا المدينة لأول مرة ، كما نفعل نحن بالسيدة زينب وسيدنا الحسين . لقد انتصرت الميتافيزيقا في أرض اللامتا فيزيقا ، ولم أجده هذه الظاهرة تفسيراً إلا أن الشعب الروسي الذي اشتهر بعبادة قدسييه قد حافظ على العبادة وغير أسماء القديسيين . وفي الشوارع والميادين والعمائر العامة والخاصة صور لينين بكل حجم وبغير عدد ، أيقونات عصرية مبثوثة في كل مكان . إن للماركسية ملامح « الدين » الجديـد . ومع ذلك فقد أكـبرـت هذا الشعب الوفي لذكرى منتـشـلهـ من قـاعـ الـجـهـنـمـ هـكـذـاـ استـقـرـ فـيـ روـعـ الرـوـسـ منـ أـبـسـطـ الـبـسـطـاءـ إـلـىـ أـعـقـدـ الـمـشـفـقـينـ أـنـ لـيـنـينـ هـوـ أـبـوهـمـ جـسـداـ وـرـوـحـاـ . وـكـانـتـ هـنـاكـ فـتـاةـ تـكـفـكـفـ دـمـعـهـاـ كـمـ فـقـدـ أـبـاهـ اللـيلـةـ الـبـارـحةـ . فـمـاـ أـعـظـمـ الـوـلـاءـ لـذـكـرـىـ مـصـلـحـ عـظـيمـ .

وكنت كلما ناقشت ساشا في موضوع ذكرى آية من لينين . نتكلـمـ عنـ الاستـعـمـارـ والـصـهـيـونـيـةـ أوـ عنـ الـحـربـ والـسـلـامـ أوـ عنـ الـكـوـنـتـوزـ والـسـوـفـخـوـزـ أوـ عنـ الـحـبـ أوـ عنـ التـكـنـوـلـوـجـيـاـ أوـ عنـ التـعـلـيمـ أوـ عنـ الـمـساـكـنـ أوـ عنـ الـقـنـوـنـ أوـ عنـ الـمـلـوـخـيـةـ أوـ عنـ الـمـهـلـبـيـةـ فيـبـدـأـ سـاـشـاـ كـلـامـهـ بـقولـهـ : « لـيـنـينـ قـالـ . . . » وأـحيـاناـ يـذـكـرـ مـارـكـسـ ، فـالـحـقـيقـةـ الـكـبـرـىـ فـيـ الـاتـحـادـ السـوـفـيـيـىـ هـىـ لـيـنـينـ قـبـلـ مـارـكـسـ ، أـوـ قـلـ لـيـنـينـ لـلـشـعـبـ وـمـارـكـسـ لـلـمـثـقـفـيـنـ ، رـغـمـ أـنـهـمـ رـسـمـيـاـ يـعـرـفـونـ فـيـ كـلـ مـكـانـ بـأـنـ مـارـكـسـ هـوـ مـوـسـسـ الشـيـوـعـيـةـ الـعـظـيمـ ، وـمـقـابـلـ كـلـ صـورـ رـأـيـهاـ لـكـارـلـ مـارـكـسـ رـأـيـتـ عـشـرـاـ

لليينين. أما انجلز فنادرًا ما ورد ذكره أمامي . ولم يكن ساشا وحده في ذلك ، فقد كان كل من قابلت يتحدث على هذا النحو ويعنون في كلامه عن ماركس وعن لينين ، وكنت أقبل هذا من الآخرين لأنني كنت أناقشهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثة في اليوم ، أما من ساشا الذي كان يلازمني كظلي ، فيبعد فترة أصبحت أجده هذه الطريقة مستنزفة ، وبعد أربعة أيام لم أعد أحتمل فقلت لساشا : « ساشا يا بني . اسمع جيداً . أنا قرأت كل ماركس وكل انجلز ونصف لينين قبل أن تولد أنت بعشرين سنة . وأنا الآن لا أناقش لينين ولكن أناقش ساشا ساخاروف . أنت طبعاً تريد أن تقنعني لا أن تثبت لي أنك تلميذ نجيب أجاد حفظ دروسه الماركسيّة ، فإذا أردت أن تتبين رأياً للينين فهذا من حقوقك . ولكن أرجو أن تعبر عنه بلغتك الخاصة وأن تنسبه لنفسك وكأنك صاحبها لأنك مقتنع به . صدقني أن نسبة أي رأي للينين لن يزيد عندي قوة أكثر من نسبة لساشا لأنني أناقش ساشا ولا أناقش لينين» . ثم أردت إيلامه قليلاً حتى لا ينسى في المستقبل ، وكنت طبعاً أعرف أن تفكيره مصوّر من الغيبات بسبب إيمانه بالmadie البحدليّة . قلت : « أنا لا أعرف كيف أصور لك وقع كلامك في نفس سامي . أنت طبعاً غير مؤمن بال المسيحية ، وهذا من حقوقك ، فتصور أنك تناقش رجالاً مؤمناً بها بإيمانك بالماركسيّة ، وكلما جادلته في شيء أجابك : قال بطرس الرسول أو قال بولس الرسول : هي مقدسات عنده ولكنها لا تعنى شيئاً بالنسبة لك . ها إذا يكون وقع كلامه في نفسك ؟ ألا ترى أنكم بهذه الطريقة تحولون الماركسيّة إلى دين ؟ إذا

أردت أن تناقش ، فناقشت بالمنطق وفي حدود الواقع المعروف . »
وأحس ساشا بالخجل ولم يجد بعد ذلك إلى العنعة .

وكان ساشا يجهزني كل يوم في الثامنة صباحاً ولا يتركني حتى يطمئن إلى أنى دخلت سريري نحو العاشرة مساء . ولا أظن أنه كان مكافهاً بذلك من اتحاد الكتاب ، فيوم العمل عندهم سبع ساعات . ولكن يبدو أنه انجدب نحوه بقوة كما انجدبت نحوه بقوة ، فأصبح لا يستغنى عن صحبتي كما أصبحت لا تستغنى عن صحبته . وكنت أحيااناً أحب أن أخوا إلى نفسي وأن أسترد حرري وأول ساعات قليلة فلا أستطيع التخلص منه دون جرح لشعوره . وكنت أحيااناً أتميز غيظاً أو كاد أحس أنه معين لرصد تحركاتي وعمرفة كل مقابلاتي وقراءة كل أفكارى . وكان الفتى حساساً يشعر بالخارج من هذه الملازمة فيتطوع بقوله : « إذا أردت أن تنفرد بنفسك انصرف وعدت إليك غداً » ؛ ولكنه كان يقولها بطريقه تعنى : « أرجوك ألا تأمري بالانصراف لأنى أحب البقاء معك » . فأجيب صادقاً : « لا . أبق معى ياساشا . فإذا أفعل بحرري ما دمت لا أفهم لغة بلاكم ؟ أنت على الأقل تمثل صلتي بالعالم الخارجي ، ثم إن صحبتك ممتعة ونافعة جداً » . لقد أصبحت كالطفل . أخاف أن أترك وحدي .

ثم قلت لساشا : الوقت يمضي ، وبعد خمسة أيام نسافر إلى لينينغراد أرجو أن تبلغ اتحاد الكتاب شيئاً . أولاً لأنهم اهتماماً خاصاً بمقابلة

يلينا ستيفانوفا، وأنى أصر على مقابلة عدد من الأدباء الروس قبل عودتى إلى مصر . أنا لا أريد أن أحرجهم فأطّلب مقابلة الروائى « ولېجنيشين » الذى سمعت أن إقامته محددة في بيته المرينى ولا مقابلة دانييل وسنيافسکى وهما في « المستشفى » كما يقولون ، ولكن أعطهم هذه القائمة غير يفتشنكو وبيلالا أحمله ولينا ونجيمىين الذين يقاولون كل الناس : أريد أن أقابل أندرىا فوشنسكى وحربيجورى بـ كلاذوف وجربا تشوف وكوتسيتوف وكو جيفينيكوف ثم طبعاً صديق الطيب سو فروفوف رئيس تحرير مجلة « أوجانیوك ». إن أكثر هؤلاء من الأدباء الحافظين المتمشين مع « الخط » ولا أظن أن هناك ضيئلاً في ترتيب لقاءات هؤلاء .

وكنت أسمع عن حال الأدب الروسي الراهن أنها حال لا تسر وأتتبع ما يجرى في مجالاتهم الأدبية من تقلبات ، فربما كانت الصراعات داخل المجالات الأدبية السوفيتية هي المؤشر الحقيقي لا تجاهات الأدب الروسي الحديث . وقد كانت مجلة « نووى مير » Nowe Meer « العالم الجديد » ، التي صدرت قبيل الحرب العالمية الثانية هي محور الحياة الثقافية في الاتحاد السوفيتي ، وكانت أكثر تقدمية وتفتحاً وإيماناً بر رسالة الثقافة من كل المجالات الأدبية الأخرى . وكان يتبادل رياضة تحريرها روائى الكبير كونستنتين سيمونوف Simonov والشاعر الكبير تفاردو فسکى Tvardowski ، وهو شاعر محافظ ملهم الوطنية ملتزم بالخط الماركسي الحزبى ، اشتهر قبل الحرب وعمره الآن نحو الستين ، وقد حارب في الجبهة وله قصائد مأثورة في الوطنية كتبها أيام الحرب ، ورواية

اسمها فاسيلي توركين » تصف أمجاد جندي روسي بطل بهذا الاسم ، وهو متفان في تمجيد الروح الروسية . وكانوا كماما غضبوا على تفاردوفسكي أسندوا رياضة تحرير « نووى مير » إلى سيمونوف .

وفي السنتين الأخيرتين بدأت مجلة « نووى مير » تواجه متابعة حقيقة فاتهمت بالانحراف ولا سيما فيما تنشر من مقالات تحايلية خاصة بتقسيم التاريخ ، كما اتهمت بالانحراف لأنها دأبت على نشر القصص المتشائمة ، وقد غضبوا عليه . وحين أقول غضبوا عليه أقصد غضب عليه القسم الثقافي داخل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي . وطلبوه إليه الاستقالة لكنه رفض وطلب إليهم أن يقيموا إذا شاءوا ، فلجموا إلى ترتيب جديد أكره الشاعر الكبير تفاردوفسكي على الاستقالة . وهو تغيير مجلس تحرير مجلة « نووى مير » مع إيقائه رئيساً للتحرير احتراماً لمقامه . ولما لم تجد اعتراضاته قدم استقالته ، ومنحوه وساماً رفيعاً من باب التكريم الأدبي . وهو الآن يعيش معتكفاً في بيته الريفي هركونزاً على الرف . وقد سمعت أنه رجل مغرور يعتبر نفسه الأب الروحي للمثقفين اليساريين الروس .

أما مجلة « الاتحاد السوفييتي » فرئيس تحريرها هو الشاعر جريباشوف Gribatchov وهو رجل متزمنت جامد التفكير يسير على الخط الشيوعي التقليدي الأورثوذكسي الذي لا مجال فيه للإجهاادات الجديدة ، ويقال عنه إنه في داخل الإطار الشيوعي يماني متطرف متسلك بالمبادئ الأولى على حرفتها ، وإنه سفاح أدبي يضرب أصحاب الأفكار الجديدة بقصوة

لا ترحم ، ولكنه رغم جموده يتمتع بسمعة الكاتب الشريف الحالى من الانهزامية .

أما مجلة « زداميا » (الرأي) فهى مجلة معتمدة اتجاهها . وسط بين المحافظين والجدد من الشيوعيين الروس . ورئيس تحريرها هو كوجيفنيكوف Kozevnikov وقد تخصصت هذه المجلة في نشر قصص الحرب وأدبها بصفة عامة ، وقد تعود الروائى الكبير كونستانتين سيمونوف أن ينشر فيها رواياته .

وأخيراً فهناك مجلة « أكتوبر» التى يرأس تحريرها الروائى كوتشيتوف Kotchetov الذى اشتهر بروايته السياسية التى يندد فيها بالمشقين الروس ويصورهم فى صورة المعادين للسلطة السوفيتية الموالين للغرب . وعندما أن الشيوعى الروسى الخالص « العامل » الذى يرفض الثقافة الغربية . وقد أصدر كوتشيتوف هذا منذ شهور رواية اسمها « عازز إيه بي ؟ » يهاجم فيها مجلة « نوى مير » والمشقين اليساريين فى روسيا ، وبطل هذه الرواية رسم على نموذج الشيوعى الإيطالى فيتوريو سترادا الذى تعلم فى الاتحاد السوفيتى وتزوج من روسية ثم أقام فى روما . ولكنه انحرف بالأفكار الجديدة المشبعة بالتعاطف مع الغرب . أما زوجته الروسية الصهيونية فنراها فى هذه الرواية نادمة على زواجهما من أجنبى . ونراها تحب رجلاً روسيًا كان يزور روما وتستنجده لإنقاذهما من الجحيم الذى تعيش فيه . فالزوج المثالى عند هذا الروائى هو الرجل الروسي وكوتشيتوف مثل جرباياتشوف متخصصان فى تأليب السلطة على المشقين .

فهناك إذن صراع سافر بين المحافظين والمجددين ، أو ما يسمونه اليين واليسار ، في المجتمع السوفييتي ، وقد انحدر هذا الصراع تعبيرًا عنه في طلب السلطة داخل الحزب الشيوعي من ناحية وفى الأدب والفكر من ناحية أخرى . وجواهر هذا الصراع ، كما استطاعت أن أذهمه هو : إلى أي مدى يجوز أو لا يجوز للحضارة السوفيتية أن تتفتح حضارة الغرب ؟ . المحافظون ينادون بصراع الأضداد وبمزيد من مركبة السلطة والمجددون ينادون بفتح النوافذ والانفتاح لمزيد من الحريات الليبرالية . وقد كان آخر جريج كبير في هذه المعركة منذ باستراك صاحب الدكتور « جيفاجو » هو الروائي المعروف سولجينيتسن Solgenitsen الذى نشر في مجلة « نوى مير » أيام خروشوف وباء رخاص منه روايته الشهيرة « يوم واحد من حياة إيفان دنيسوفيت » . وهى تصور قصة فلاح روسي فى معاقلات ستالين ، وقبل مؤلفها عضواً فى اتحاد الكتاب ، ثم أردف سولجينيتسن هذه الرواية بروايتين آخريتين تدخلان فى باب الأدب السرى لأن نشرهما محظور فى الاتحاد السوفيتى : الأولى هي « مستشفى السرطان » ، وهى رواية رمزية تصور الحياة فى جناح السرطان بأحد المستشفيات تصويراً لتجربة شخصية لمجموعة من المثقفين احتجزت فى هذا الجناح لاشتباه إصابتهم بهذا المرض الخبيث . ولكن الرمز فيها شفاف يشير إلى أن حياة الفكر فى الاتحاد السوفيتى تجلب شبهة الإصابة بالسرطان ، وحيث السرطان يكون الاستئصال . أما الرواية الثانية فعنوانها « فى الدائرة الأولى »

وهي مصورة على غرار « جحيم » دانتي حيث طبقات الجحيم مصورة في صورة الدواير . والدائرة الأولى عند سوبخنيتسن ليست حياة السجون والمعتقلات في الاتحاد السوفييتي ولكن حياة العلماء وأهل التكنولوجيا الذين يقبلهم الاتحاد السوفييتي للاستفادة منهم . وقد نشرت هذه الرواية بالإنجليزية والفرنسية وغيرها من لغات أوروبا ومنع نشرها في روسيا وطرد مؤلفها من اتحاد الكتاب ، وبعد أزمة تشيكوسلوفاكيا فاوضوه في حذف أجزاء منها لنشرها بالروسية ولكنهم رفضوا . وهو يعيش الآن فيها يقال محمد الإقامه في الريف أو ما يتبعه ذلك .

كل هذه المعاونات جمعتها من روسيا نفسها وليس من صحافة الغرب التي أقرأ فيها الكثير . رغم أن ساشا العزيز لم يكن يتركني إلا سواد الليل . وانتهت أيام العشرة في موسكو دون أن ألتقي بشاعر أو ناشر . بيمين أو يسار . فيها خلال صاحبنا الطيب أناطولي سوفرونوف رئيس تحرير مجلة « أوجانيلوك » ، الذي سمعت أن له سطوة كبيرة غير رسمية في اتحاد الكتاب من خلال نفوذه السياسي في اللجنة المركزية . كما سمعت أنه من أهل الميمنة الذين لا يتركون كل الزهور تتفتح . أرجو ألا أكون قد ظلمت أحداً بسرد ما سمعت من طرف واحد ، ولكن ما حيلتي إذا كان اتحاد الكتاب لم يتيح لي لقاء أحد ينير لي شباب الطريق .

لقد كانت مهمتي الشاقة هي : كيف لا تصبح رحلتي الروسية مجرد رحلة في عقل ساشا سخاروف .

الباب الثاني

رحلة الامريكيه

الفصل السادس

أمريكا

كيف تراها ولا تراها

منذ جماعة شهور ، تلقيت دعوة من جماعة عربية في أمريكا ، للمشاركة في أعمال مؤتمرها السنوي الرابع ، المنعقد بمدينة بوسطن بين ٢٩ و ٣١ أكتوبر سنة ١٩٧١ ، بقراءة ورقة بالإنجليزية في موضوع « إمكانيات الحوار في المجتمع العربي المعاصر ». وكانت الجماعة تسمى نفسها : « اتحاد الخريجين العرب الأمريكيين » . أو « الأمريكيين العرب » على الأصح . فأدركت أنها جماعة من جماعات المهاجرين أو المغربين العرب في أمريكا جديداً على ، فقد عرفت منهم عشرات وعشرات في أثناء إقامتي في أمريكا منذ سنوات مديدة . فقبلت الدعوة شاكراً ، لأنها هيأت لي فرصة زيارة أمريكا بعد خمس عشرة سنة كاملة . أى منذ استقالتي من الأمم المتحدة عام ١٩٥٦ .

وكنت قبل سفرى لأمني نفسى بشيئين : أحدهما أن أدرس آخر تطورات الفنون والآداب في غرب أوروبا ، وفي أمريكا بصفة خاصة

وأن تناولت دراسة حركات الشباب «على الطبيعة» في أمريكا ، وهي أكبر مركز للرفض والاحتجاج اللذين اتسمت بهما حركات الشباب في العالم . . كنت أتمنى أن أدرس مجتمعات المهيبيز عن كثب ، لا دراسة كتب ، ولكن دراسة تجربة .

بل لقد ذهب خيالي إلى أبعد من هذا ، فقد كان ولا يزال رأي الثابت أننا لن نستطيع أن ذري بصيصاً من القرن الحادى والعشرين الذى نستشرفه إلا إذا استكشفنا حقيقة ما يجري في عقول شباب العالم وما يجري في قواهم اليوم . فالمهبيز ليسوا مجرد حادة مانسون وقذلة شارون تيت أو متغاطى المخدرات الهايمين بشعورهم الطويلة وملابسهم المرقعة في فردوس أو جحيم من الفوضى الجنسية ، ولكنهم أيضاً اليسار الجديد المتظاهر بمعيات الآلاف ضد حرب فيتنام والمييز العنصري . وربما أيضاً كانت بينهم أنماط ثالثة ورابعة لا تحفل بالجنس والمخدرات ولا تحفل بالقضايا السياسية الصارخة ، وإنما تبحث عن خلاصها في صمت وهدوء لعلها تكتشف لحياتها وللحياة الاجتماعية مغزى مقنعاً ، وقد كان يسيرأ على مثل أن التي بعض هؤلاء الشباب في عواصم العالم المختلفة لقاء «الإنترفيو» الصحفى ، أطرح عليهم الأسئلة وأستمع لإجاباتهم ، فأخرج بفكرة عن فاسفهم ومعتقداتهم ومنابع قلقهم وأمالهم في الحياة . ولكن هذا الأسلوب في نظري هو أسوأ سبيل إلى التعرف على الحقيقة ، كما أنه ينطوى على خدش لكرامة الإنسان فيهم ، أن تنظر إلى الإنسان نظرك إلى قرد أو دب أو ببر في حديقة الحيوان تتأمله في تعال وانفصال

تام وكأنه « ظاهرة » أو تتجسس على دخيلة نفسه تجسس العدو أو الفضولي . لهذا كنت أأمل أن تتبع لى الظروف أن اعتكف في مستعمرة من مستعمرات المبيز في أمريكا وأن أخالطهم أسبوعاً أو أسبوعين مخالطة الإنسان للإنسان عسى أن أفهم بالمشاركة شيئاً عن هذه الدراما العظيمة التي تتخالق درجة درجة في نهايات القرن العشرين ، واعدة بخير عميم أو بشر مستطير لما سيأتي بعدها من أجيال .

ولكن أحلامي كلها طارت بعد أن وطئت قدماء أرض باريس في طريق إلى أمريكا . فقد اعتكفت نحو أسبوعين في فندق بباريس بين أقسام المرض والإكباب على بحث كنت أكتبه بالإنجليزية « المجلة اليونسكو التاريخية ». بناء على طلب اليونسكو عن « غایات القومية العربية وبواطنها ». ولم يخفف عنى أقسام المرض والبحث إلا اعطاء سخي من قلب زميلي الشاب مصطفى إبراهيم مصطفى ، الذي كان قبل عامين ناقد الأهرام الفنى ثم تركنا ليتم علومه في باريس ، فقد ترك كتبه وفراسه في المدينة الجامعية ولا زمنى في بنوة حقيقة يسهر الليالي ليوقظنى كل أربع ساعات لأنتناول البنسلين . وكنت في أيام العافية أتجول بين الأشباح والأحياء ، فكنت أتردد على زميلنا الشاب وحيد النقاش الرائد رقدة الموت في مستشفى كوشان تحت أنبوبة الجلوکوز ، الكل يعلم بموعده تنفيذ حكم الإعدام فيه ويحدثه في مرح مصطنع عن موعد الشفاء . أما هو فالله وحده يعلم ماذا كان يختفى من هاجس خلف عينيه الزجاجيتين الجميلتين وبشرته الخضراء وثغره الباسم ، يلغو في هدوء عن أخبار الأدب والأدباء ،

كنت أتردد على معرض الفناز جاذبية سرى قرب الشانز يائز يه وأتأملأساً و بها
الجديد المنقبض حيث تداعت منازلها القديمة وتلاشت أولاتها الساخنة
وحلت محلها رموز انكماشية وانزوائية داخل إطار فاتحة وكأنها تعبر عن
رغبة في الانسحاب داخل الرحم . موجة من الكآبة تجتاح فنانينا الكبار
كما اجتاحت أدباءنا الكبار . وبرغم قلة روادها بسبب إضراب عمال
المترو وشلل المواصلات في باريس مدة أسبوعين ، فقد استطاعت
جادبية سرى أن تبيع اوحتين أو ثلاثة .

وكنت أزمع السفر إلى أمريكا بعد أسبوع من وصولي باريس ولكنني
أجلست سفري أسبوعاً آخر حتى أشهد افتتاح معرض «فن المصري المعاصر»
الذى افتتحه سفيرنا عبد الله العريان فى متحف جاليري يوم ٢٢ أكتوبر
١٩٧١ ، وحضره دوهاميل وزير الثقافة الفرنسي والوزير جوكس وغيرهما
من الرسميين المعينين برعاية الفنون والأداب . وكان معرضياً يضم نماذج
من أعمال خمسين فناناً مصرىاً فى مقدمتهم رسىيس يونان والهزار (لا أعلم
اذا نسوا كمال خليفة مادام وقد تذكروا الموى) ثم تحية حaim وجاذبية
سرى وفؤاد كامل وأنجى أفلاطون وحامد ندا وسيف وائل وصلاح طاهر
وكنعان إلخ . ومن النحاتين عبد القادر رزق وآدم حنين والسجينى
ومحمد وش موسى وهجرس ومحيى الدين طاهر وصلاح عبد الكريم . ولا
أعرف إن كان المعرض قد استقبل من الصحافة الفنية استقبالاً حافلاً أم لا
لأنى طرت إلى أمريكا بعد ثلاثة أيام من افتتاحه ، ولكنى شخصياً برغم
سعادى بأن أرى فن مصر يعرض فى عاصمة العالم الفنية ، لم أسعد بتاتاً

بيان أرى جناحاً من حجرتين في المعرض يخصص للفنانين المهررين الشبان الذين بدت أكثر اوحاتهم كاجتهدات تلاميذة نجباء . ربما كانوا أوصح حاب موهب واعداً . ولكنهم حتى الآن ما زالوا في طور التكوير . وقد كنت أؤثر أن يقتصر المعرض على أعمال عشرة أو خمسة عشر . من كبار فنانينا يمثل كل منهم تمثيلاً كافياً بدلاً من كل هذا الحشد الخفير من الأسماء بقصد إرضاء كل الناس هنا ، وبهذا اختلط النابغون بالأوساط واحتلوا الأوساط بالمبتدئين (ليس في فرنسا نفسها أو إنجلترا أو أية دولة متقدمة خمسون فناناً يستحقون العرض) . وما في كل يوم يتاح لمصر أن تعرض في متحف مثل جاليري . ومن يذهب إلى سوق الحواهرجية لا يحصل معه كل جواهره من ماسات حقيقية وزجاجية ، أبداً تشجيع الشباب فيه وسائل أخرى ، ونحن لانتصور مثلاً أن فرنسا تقدم بيننا معرضاً لبيكاسو وبراك وجياكومي ثم تعرض معهم اوحات بعض نحريجي كلية الفنون الجميلة بباريس .

بل لقد ساءني في هذا المعرض أن أرى عاديًّا من أرداً أعمال فنانينا المعروفين مثل سعير النجلاني ويونس سيده وخديجة رياض وعفت ناجي ومهنير كنهان ورمزي مصطفى ، حتى سيف وانلى لم يكن ممثلاً خيراً تمثيل ، وأنا أعرف لكل من هؤلاء لوحات تفضل ما رأيت في باريس مائة مرة . وحين سألت قويميسيرة المعرض الفنانة أنجى أفلاطون في سر هذا الاختيار الرديء أبلغتني أن المندوبة الفرنسية هي التي قامت بهذا الاختيار عند مجيئها إلى مصر ، فلتسمع لي وزارة الثقافة هنا وهناك أن أقول لهم إن

المندوبة الفرنسية لا شك عاشقة لمصر بدليل أنها كانت في الاستقبال
تلبس قفطاناً تركياً مزركشاً بالقصب مثل إشارة ترجية الهمتون وشميراميس ،
ولا شك تحمل لنا أطيب النوايا ولكنها لا تفهم كثيراً في الفن فإذا كانت
هذه هي اختيارتها . وقد لا حظت أن عقلية سياح خان الخليلي والأواني
المزخرفة هي التي سيطرت على اختيار المعرضات ، وهذا معناه ببساطة
أن أوربا تقول لنا : لنا الفن ولكم الزخرفة فابقوا في مكانكم ولا تحاولوا
أشياء لا تتفنونها . نحن نحب فيكم ذكاءكم الشرقي الممدوكيه فلا تفسدواها
بالتحليل أو الغوص إلى الأعماق . أبعدوا عن الفيوجواريف ،
وعن التجريد معاً . أبعدوا عن الألم والفرح والقلق والصفاء والزموا الدندشة
بأشكالكم الهندسية المتكررة في صوابينكم وأباريقكم وصوانكم
ومشكواواتكم وأطلوا على العالم من وراء مشربياتكم ، فجماليكم الحقيقي أنكم
لا تصلحون للقرن العشرين .

كلمة للمستقبل . لو أتيح لنا معرض آخر خارج حدود مصر ، فن واجب وزارة الثقافة أن تستغنى عن خمسة جنيه وتدعو بلجنة ثلاثة من أكبر نقاد الفن في العالم تقيم بيننا أسبوعاً لترشد وزارة الثقافة في عملية الاختيار . ولتكن يكون الاختيار مثلاً اوجه مصر الحقيقي ولفن مصر الحقيقي يجب إنشاء سجل في وزارة الثقافة تدون فيه سيرة كل عمل من أعمال فنانينا الكبار منذ خروجه إلى الحياة تماماً كسجل المواليد ترصد فيه حركة كل لوحة أو تمثال . فأنا أعلم أن خير أعمال فنانينا محظوظ في مجموعات خاصة وموزع بين القاهرة والإسكندرية واستوكهولم وبرلين

وباريس ولندن ونيويورك وغيرها من مدن العالم الكبيرة والصغيرة ، وقد رأيت في رحلتي الأخيرة في بروكلين وفي واشنطن لوحات معروفة لرمسيس يونان وفؤاد كامل وتحية حليم وجاذبة سري بين مقتنيات بعض المصريين المهاجرين ، كما أني أعلم أن زوارنا الأجانب يشترون أولا بأول صفة إنتاج فنانينا الكبار ويعودون به إلى بلادهم . وإذا كنا نوثق عقود بيع السيارات في الشهر العقاري ، فلا أقل من أن نفتح سجلا في كل قنصلية مصرية توثق فيه كل لوحة مصرية تباع في الخارج بحيث نعرف أين مستقرها ، ونستعيدها أو نؤجرها للعرض في المعارض الدولية . بهذا نبرز للعالم أصدق ما لدينا ولا نترك عملية الاختيار للمصادفة العميماء أو للبحث بين نفایات الفن التي لا تجد من يشتريها .

وقد كان العقاب أليగاً في باريس ، ثلاثة أيام ترددت فيها على متحف جاليريا بالساعات الطوال بعد افتتاحه ، فلم أر قلما « تهوب » في المكان إلا عابرآ طارئآ في الصباح وعابراً طارئآ في المساء برغم أن موصلات باريس كانت قد عادت إلى الانظام ، قال الفنانون المصريون المرافقون للمعرض : نحن حقاً منحوسون ، فقد جاء معرضنا وقت تتوهج بيكساو في باريس فلم يلتفت أحد إلينا لأن كل الناس في معرض بيكساو . ربما . ولكن الحمد لله أني لم أسمع أحدآ يقول إنها كانت مؤامرة من الصهيونية العالمية ١ .

وفي السابع والعشرين من أكتوبر ١٩٧١ طرت إلى بوسطون في الولايات المتحدة الأمريكية لأشترك في مؤتمر الخريجين العرب . وكانت

تنتابني إحساسات متضاربة أكثرها من إحساسات العائد إلى مكان بعد خمسة عشر عاماً . وكان معنـى في الطائرة الصحفـى الفرنـسي المعـروف أريـك روـلو الذى كان مـادـعـواً مع الاستـاذ جـاك بـيرـك للـاشـتـراك في مؤـتمر بـوسـطاـون . وـبـعـد رـحـلـة سـبع ساعـات مـمـلـة تـسـليـيـنا فـيـها بـمـشـاهـدة فيـامـ سـيـخـيفـ على مـنـ الطـائـرـة نـزـلـنا مـطـارـ بـوسـطاـون . وـبـدـأـتـ أولـ رـوـاـيـةـ أمرـيـكاـ تـهـبـ عـلـيـنـاـ فـيـ أـرـضـ المـطـارـ .

شيء لم نألفه في أوروبا . في الجـهـرـ يـفـتـحـونـ السـقـائبـ . وقدـ كانـ . وماـ إـنـ تـجـاـوزـناـ الـمنـطـقـةـ الـجـهـرـكـيـةـ وـهـمـنـاـ بـالـخـرـوجـ إـلـىـ الـمـدـيـنـةـ حـتـىـ اـسـتـوقفـ مـخـبـرـانـ صـاحـبـنـاـ الصـحـفـىـ الـمـعـرـوفـ وـقـادـاهـ لـالتـفـتـيـشـ الشـخـصـىـ !ـ لـمـاـذـاـ دـوـ بالـذـاتـ ؟ـ لـاـ أـدـرـىـ .ـ كـفـتـ مـعـهـ وـلـكـمـ ماـ لـمـ يـتـعـرضـهـ لـيـ .ـ وـحـرـصـتـ عـلـىـ مـلـازـمـتـهـ فـيـ هـذـهـ الـوـرـطـةـ مـنـ بـابـ الـلـيـاقـةـ وـالـعـجـبـ يـمـاـوـنـيـ !ـ وـوـقـتـ خـارـجـ كـابـيـنـةـ التـفـتـيـشـ أـرـقـبـهـ يـجـرـيـ فـوـجـدـتـ المـخـبـرـ يـتـفـحـصـ جـواـزـ سـفـرـهـ بـعـنـيـةـ ثـمـ يـسـاعـدـهـ عـلـىـ خـالـعـ جـاـكـتـهـ وـيـفـتـشـهـ بـدـقـةـ ،ـ ثـمـ عـلـىـ خـالـعـ قـيـمـصـهـ .ـ ثـمـ أـخـذـ يـتـفـحـصـ شـبـهـ شـبـهـ العـارـىـ حـتـىـ الـوـسـطـ ،ـ وـأـوـشـكـ الصـحـفـىـ أـنـ يـخـالـعـ بـنـطـلـاوـنـهـ وـلـكـنـ الرـجـلـ اـكـتـفـىـ بـاـسـ يـدـهـ فـيـ كـلـ جـيـوبـ الـبـنـطـلـاوـنـ ثـمـ يـتـحـسـ بـدـقـةـ فـيـخـذـيـهـ وـسـاقـيـهـ حـتـىـ الـقـادـمـيـنـ .ـ وـبـعـدـ أـنـ فـرـغـ مـنـ مـرـاسـمـ التـفـتـيـشـ بـدـأـ اـسـتـجـواـبـاـ قـصـيـرـاـ ثـمـ أـخـلـىـ سـبـيلـهـ .

وـفـيـ الطـارـيـقـ أـخـدـتـنـاـ الحـيـرـةـ ،ـ لـمـاـذـاـ هـوـ ؟ـ وـعـمـ يـبـحـثـونـ ؟ـ عـنـ سـلاحـ ؟ـ هـلـ ظـنـوـهـ شـخـصـاـ آخـرـ يـبـحـثـونـ عـنـهـ ؟ـ وـكـانـ رـأـيـ أـنـهـمـ يـبـحـثـونـ عـنـ مـخـدـراتـ قـالـتـ لـهـ :ـ «ـ أـعـتـقـدـ أـنـ لـهـيـتـكـ هـىـ السـبـبـ .ـ فـأـنـتـ بـرـغـمـ هـنـدـاـمـكـ تـشـبهـ

جماعة المبیز ، ونحن الآن في بلاد المبیز ». وقد ثبت صدق ظنٍ ..
فما إن نزلنا مدينة بوسافون وأنحدنا نسأل الناس نفسياً لهذا الحادث حتى
عرفنا أن ما رأينا شئ « مأمور يجري كل يوم وكل ساعة في مطارات
أمريكا وبوازيها ، ولا سيما للقادمين من فرنسا . سواء أكانوا من الفرنسيين
أم كانوا من الأميركيين . إنهم يبحثون عن مخدرات . وقد غدت
فرنسا من المراكز الرئيسية لتهريب المخدرات إلى أمريكا . (قبلها بفترة
وجيزة ضبطوا دباو-ناسيا فرنسيّا اتهم بتهريب ما قيمته ١١ مليون دولار
من الميرورين في سيارة فولكسفاجن استوردها من الخارج) . ولا يعني
المرء أن يكون ذا مركز « محترم » فأستاذ الباحثة قابل للتقييم الشخصى
كتلميذ الجامعة وكأى صدماوك « لا يملك في الحياة إلا شعره » كما تقول
أغنية المبیز المشهورة ، ومع ذلك فالزائر يحس بالمهانة عند التقييم
الشخصى ، فهذا أسوأ استقبال يمكن أن يتعرض له إنسان برأي حالما
تطأ قدمه أرض الولايات المتحدة . مشكلة ، لأن الحكومة الأمريكية
معدورة أيضاً في هذه الإجراءات المتغيرة . حين تقيم في أمريكا قليلاً
تدرك أن المخدرات قد غدت فيها وباء قومياً لا بد من مكافحته بأى
ثمن .

كذلك ما إن تقيم في أمريكا أياماً حتى تدرك أن فيها وباء آخر
هو اختلال الأمن في المدن الكبيرة . كلما سألت أحد معارف الأميركيين
في نيويورك عن مكان أقضى فيه السهرة كان الجواب دائماً واحداً :
لا تسهر بالليل ، فنيويورك ليست غير آمنة ، كلي ليلة عشرات من حوادث

القتل بقصد السرقة تم والبولييس غير قادر على السيطرة على الموقف . شبان ورجال من المتعطلين أو من مهتمي المخدرات يتعرضون بالمساءات في جماعات صغيرة للمارسة في أرق الشوارع وفي أقدرهما طلباً لمحافظتهم . وأدنى مقاومة أو إحساس بالخطر معناها الرصاص . الحكيم من يسلم كل ما في جيشه في إذعان . وأسوأ ما في الأمر أن التحقيقات تثبت أن هذه الاعتداءات لا تنظمها عصابات محترفة كما كان الأمر في العشرينيات والثلاثينيات أيام آل كابوني وجاك ديلانجر وبقية ملوك الإجرام ، وإنما يقوم بها مواطنون عاديون من البيض أو من السود ذاقوا مرارة البطالة المتصلة فأعلنوا الحرب على المجتمع ، أو مواطنون عاديون من المدمنين لم يجدوا إلا السطو سبيلاً للحصول على المال . وهناك أيضاً فئة ثالثة من المواطنين العاديين تعلمت الإجرام في مدرسة فييتنام . أما السطو على المنازل فقد غدا في نيويورك خاصة وغيرها من المدن الكبرى ظاهرة مألوفة إلى حد جعل سكان كثير من العمارات ينشئون فيما بينهم جمعيات تعاونية للدفاع عن أنفسهم يأساً من قدرة البولييس على حماية الأرواح والأموال .

وبالطبع لم ألق بالاً إلى هذه التحذيرات وإلا بقيت سجين فندق البلاتسمر طوال الأسبوع الذي قضيته في نيويورك . فخرجت ثلاثة مرات بمفردی بعد التاسعة مساء إلى الواحدة صباحاً أتجول في برودواي والشارع ٤٢ وحول تايمز سكوير لأرى أصوات المدينة ، ولادرس بنفسی ذلك الوباء الثالث الذي سمعت بعد نزولي أمريكا أنه يحتاجها من أقصاها



إلى أقصاها ، ألا وهو أفلام الجنس . ولم يهاجمني أحد ، ومع ذلك أحسست فعلا بجو الحرية يتهددآلاف السابلة في وضع الليل . وكنت قد قرأت شيئاً لـ توفيق الحكيم وهو يصف رحلته في العام الماضي إلى باريس .. يقول إن مشكلات الجنس تعالج الآن في الأفلام الأمريكية معالجة علمية وإن الجميع يتابعها في احترام تام . أما في أمريكا فقد رأيت ستة أفلام في تايمز سكوير ولكنني لم أر فيها مشكلات ولا جنساً ولا علماً ، وإنما رأيت مجرد دعارات مقرضة لبغيانا وصعاليك يؤدون العملية الجنسية أمامك على الشاشة بصورة من جميع الزوايا الممكنة مع الاهتمام الخاص بالسحاق ، ولم يكن بينها إلا فيلم واحد يقترب قليلاً مما حدثنا عنه توفيق الحكيم ، وهو تعاون الفن والعلم في اكتشاف العمل الجنسية ، ومحاولة علاجها . ومع ذلك ، فمن يدقق النظر فيما يشاهد يجد أنه لا فرق بين هذا الفيلم وسواء ، إلا أن كاتب السيناريو له قواد مثقف عرف كيف يضفي على القوادة رداء الثقافة ، فأوهمنا أنه أقام ندوة مع طبيبة في علم النفس ووضعها العمل الجنسية بين الأزواج وانحرافات الفراش في عشرة نماذج أو « حالات » من مرضى هذه الطبيبة ، وكان يتبع هؤلاء الأزواج ويذع لهم إلى الاستوديو لسرد قصص مرضهم وقصص شفاءهم بالتفصيل بالصورة أمام الكاميرا فيستجيبون له .

وحاولت أن أستقصى من معارف الأمريكيين عن أسباب هذه الأزمة التي دخلت فيها السينما الأمريكية ؟ يقولون إن الموجة جاعتهم أولاً من السويد والدنمارك ، فكان بعضهم يربطها بالثورة الجنسية أو

حركة التحرر الجنسي التي تجتاح العالم اليوم وتجتاح أمريكا بصفة خاصة وهي وجه من وجوه ثورة الشباب والهبيز والبحث عن أخلاقيات جديدة للجنس غير ما ورثناه عن الآباء والأجداد من معتقدات روحية وجسدية باسم مكارم الأخلاق وسيادة الروح على الجسد . وكان آخرون يربطونها بالتشوهات النفسية الناجمة عن الحروب ولا سيما حرب فيتنام . ولم أجدها مقنعاً ولا ذاك مقنعاً . فالهبيز ودعاة التحرر لا يكترثون بأفلام الجنس لأنهم يفضلون ممارسته على الطبيعة كما أن هذه الأفلام لو كانت تعبريراً عن فلسفة تحريرية جديدة وكانت لإباحيتها أكثر فناً من كل هذا . والسويد والدنمارك لم تشاركا في حرب فيتنام رلا في أي حرب من الحروب العالمية ، وأخر حرب اشتركت فيها السويد إذا لم تخفي الذاكرة كانت منذ نحو ٢٥ سنة في القرن الثامن عشر ، حقبة تحملها فولتير في كتابه الخالد « سيرة شارل الثاني عشر » . بل إن هذه الأفلام لم ترق حتى إلى مستوى أمراض الحضارة والترف ، فالروماني والعباسيون عندما أصابتهم أمراض الحضارة لم يعرّبوا بهذه الغاية وإنما عربدوا بتغافل وجهما . وتصورت أن أزمة السينما ربما كانت نابعة من سيطرة التليفزيون الذي فتح في كل بيت داراً للعرض الخاص وفتح البشر إلى ملايين من البؤر الضئيلة المنفصل بعضها عن البعض الآخر بحيث أصبح من أعنوس الأمور تجمّعهم في مسرح أو سينما إلا على شيء خارق في الإثارة ، ومن هنا بدأت صناعة السينما إلى «وجة من أفلام الجنس كما كانت تليجاً في الماضي إلى أفلام الجريمة وأفلام رعاه البقر لتجذب

المراهقين والبسطاء . فإن كان الأمر كذلك فلعلها موجة ثم تنحسر ، ولكن الخطر أيضاً ماثل ، وهو أن تتد هذه الموجة بعد عشر سنوات إلى شاشة التليفزيون حيث تجد تجاوباً أعمق ، لأن الجنس في صنيعه تجربة فردية لاحياء فيها ، بل قد تكون لها قداسة ، بين جدران أربعة . أما عرض قذارتها على الناس جماعة في الأسواق ففيه دائماً ما يقصد البشر الأسواء . وبالفعل كان أكثر من رأيت حولي في سينمات الأفلام الجنسية كله ولا يبدو عليهم الحرج وإنما المراهقين ، ولم أر من النسوة إلا قليلاً ، وندر أن تجد وجهها عليه سيماء الفضول العقلى أو رغبة الاستكشاف ، وندر أن تجد رجلاً اصطحب زوجه أو صاحبته طلباً للإثارة قبل «واجهة الخلوة» . إنهم نفس جمهور «السينما الزرقاء» التي كانت تنهشى في أوربا في الثلاثينيات قبل الحرب العالمية الثانية .

* * *

هذه هي الأوبيث الثلاثة التي شهدتها في أمريكا في زياراتي الأخيرة : انتشار المخدرات ، واحتلال الأمن ، والأفلام الجنسية . والصحافة الأمريكية تتحدث عن وباء رابع وشيك الانتشار في أمريكا هو الأمراض السرية . ولكن الذي يخفف من حدة هذه الأوبيث أن الديمقراطية الأمريكية مجتمع مفتوح لا همس فيه ولا تكتم ، فكل الناس تتحدث عن هذه القضايا بصرامة والصحافة والإذاعة والتليفزيون وكل منابر الرأى والبحث تخوض في هذه المشاكل ليلاً نهاراً ، وتحاول استقصاء أسبابها ونتائجها ووسائل علاجها . وحيث الرأى الحر مكفول فكل شيء قابل

للتبيّح . فلا حرج عند أحد من أهّام البوليس الأميركيكي مثلًا بالإهمال أو بالتسهير على الجريمة للارتشاء . وهم هناك لا يضيّعون وقتهم كثيراً في التنديد بعيوب المجتمع الأميركي على أساس مكارم الأخلاق بل يتجأّون إلى أساليب البحث العلمي في استقصاء الأسباب والنتائج ووسائل العلاج . حتى ظاهرة الشذوذ الجنسي التي تفشت مؤخرًا في أمريكا وبعض مجتمعات شمال أوربا وإنجلترا غدوا يخضعونها لدراسة الكيمياء الحيوية بفحص سلوك المروّنات ونسبيها في أنماط الشذوذ المختلفة . ومن وضع يده على الحقيقة سهل عليه العلاج .

* * *

وحين استفسرت عن مستعمرات الهبيز قال لي أصدقائي الأميركيكيون : سنحاول أن نرتب لك الإقامة بينهم أسبوعاً أو نحو ذلك ، ولكننا نطلب بعض الوقت لإجراء هذا الترتيب . أما مكالمة الاختيار بين كونونات نيويورك ، (والكونون عمارة تستأجرها أية جماعة من الهبيز بقصد المعيشة المشتركة ، فلا أحد يمتلك فيها شيئاً حتى علبة سجائره ، وكل عضو في الجماعة يصب فيها كل مكاسبه ، ويسمى كل فيها بحسب حاجته بغير حسيب) وبمسكرات الماء الطلق ، وهذه أقربها على بعد مئات من الأميال . وهنا تدخل في الحديث سائق التاكسي الذي كان يتبع حلبيتنا ، وكان من الهبيز ويدرس للماجستير في جامعة كواوببيا : « أنصحك ياسيدى أن تذهب إلى مستعمرات الماء الطلق ، هؤلاء هم الهبيز الحقيقيون . أما كونونات المدينة فهم الهبيز المزيفون الذين أساءوا إلى سمعة حركة

الشباب ، وهم في العادة جماعات مغلقة . إنهم يتذرون بمظاهر الهبيز ، فيرسلون شعورهم ويتحدون عن المجتمع الجديد ويحتاجون على القيم السائدة ، ليعيشوا حياة الإباحية والفوضى والكسل وتعاطي المخدرات . أما معسكرات الريف فهي الصحة والإيمان السليم . هناك يعيش الشباب حياة البساطة الأولى ، يزرعون ويقلعون ويربون ويأكلون مما زرعوا وقلعوا وربوا ، ويصنعون ما يتقنون من مصنوعات يدوية ويبينونها للحصول على أوازمهم . وإذا ذهبت إلى هناك فسيستقبلاونك بالترحاب ، ولن ينتظروا منك إلا أن تزرع أو تقلع أو تصنع مثلكم . هؤلاء من حقهم أن يتحدون على مفاسد المجتمع الرأسالي لأنهم تحردوا من غريزة الملكية دون أن يكتسبوا مفاسد أخرى . انظر إلى " مثلا .. أنا واحد من الهبيز ، ولكنني لا أعيش في كومون » .

وعلمت في أمريكا أن بعض رجال الدين يسافرون بحركة الهبيز ، ويفتحون لهم الكنائس لإقامة حفلاتهم الراقصة الصاخبة بقصد استقرارهم إلى حظيرة الدين وأصطياد أرواحهم بعد أن يثبتوا لهم أن الدين ليس مناهضاً لحركات التجديد بهما كانت ثورية . كذلك عرفت أن البوليس الأمريكي له رجال من الهبيز يطلقون شعورهم ويمشون حفاة في هلاهيل ، فما إن يقوم الهبيز بمظاهرة حتى يتمحوها إلى رجال أمن ويشاهدوا في سيارات البوليس .

* * *

وتذكرت جماعات الشباب - فتية وفتيات - الذينرأيهم جالسين

على الأرصنفة حفاة في ثياب مهلهلة في ميدان سان مشيل بباريس وفي مختلف أرجاء الحى اللاتيني وسواء ، ثم رأيت أمثالهم على أرصفة جامعة هارفارد ومدينة أوستن حيث جامعة تكساس ، وقد فرشوا مصنوعاتهم على الأرض ليشربها المارة ، من إشاربات وبواوفرات وشنط ومحافظ جلدية وأحزمة مزركشة وكلها أشياء جميلة . وكنت أحسب أنهم يشربونها جاهزة ليتاجر فيها . ثم عرفت أنها من صنع أيديهم . . . وهو نوع من الاحتياج على عصر الآلة وعلى مبدأ التجارة القائم على وجود وسيط بين المستجد والمستهلك . نوع من العودة إلى العصور الوسطى على طريقة وليم بوريس ، إلى مجتمع الإنتاج اليدوى ومجتمع المقارضة ، ولكن بغير أشراف ولا إقطاع ولا فرسان ولا كهنوت ، وعندما سمعت كلام سائق التاكسي أدركت أن الأمر أعقد مما كنت أتصور . فاستبعدت فكرة كوبون المدينة لأنني لا أتصور نفسي بين جماعة تتعاطى المخدرات وأومن أجل التجربة ، ثم استبعدت فكرة العودة إلى الطبيعة برغم الجذاب إليها ، لأنها ستحتاج إلى شهر كامل . ومن يدرى ؟ فربما ضاعت فيها ولم أعد إلى قوى ؟ إن هاتفًا عميقاً يلزمني منذ سنوات طويلة أن أنسحب نهائياً من حياة المجتمع ، ولكنني لم أجده الشجاعه حتى الآن لأجيب نداءه . وقررت أن أبتعد عن مواطن الغواية .

* * *

وهكذا تبخر أحد الأملين الكبيرين اللذين كنت أحلم بهما قبيل نزولني بأرض أمريكا : أن أدرس عن كثب مشكلة الهبيز في بلاد الهبيز ،

أما الأمل الثاني ، وهو أن أتابع ما يجري في المسرح الأميركي بصفة خاصة وفي الأدب الأميركي بصفة عامة ، فقد تبخر أيضاً وأنا لا أزال في مؤتمر بوسطون في الأيام الثلاثة الأولى من رحلتي الأميركيّة .

فقد توالّت الأحداث في سرعة سريعة منذ اليوم . وجدت نفسي بين نحو مائتين من عرب أميركيّة أكثرهم يعملون أستاذة في الجامعات الأميركيّة ، وبعضهم لا يحسنون العربية كلاماً لطول هجرتهم إلى الولايات المتحدة أو لأنهم هاربون منها . وقرأت على المؤتمرين كلماتي ، واستمعت إلى كلمة جاك بيكر وإلى كلمة نجم باذرجان الأستاذ بجامعة تكساس وإلى كلمة يروسالاف ستكتيفتش الأستاذ بجامعة شيكاجو ، وهي كلمات سأعود إليها فيما بعد . كذلك أحاط بي الطلبة المصريون بعد حضور المؤتمر ، وكأنوا وافدين من جامعات أميركيّة عديدة ، وطلبو إلّي أن ألتقي بهم في جامعتهم وأنا لا أرفض للطلبة طلباً : عقدة جامعية قديمة ما زالت تلازمني برغم مرور السنين . وبين الأستاذة والطلبة وجدت نفسي بين يوم وليلة مرتبطة بجواهرة محاضرات رهيبة قوامها عشر محاضرات في عشر جامعات مختلفة خلال عشرين يوماً ، وكانت كلها تدور حول موضوعين رئيسين هما « التطورات الثقافية في مصر منذ ١٩٥٢ » و « دور المثقفين في مصر الحديثة » ، وبين يوم وليلة دقت التليفونات في عشر جامعات لإعداد الترتيبات اللازمة وبين الجامعة والجامعة ألف كيلومتر . بين يوم وليلة كل شيء تم بالتلفون . وألقيت أولى محاضراتي في جامعة هارفارد ، ثم طرت إلى جامعة لافال

في كويبيك بكندا . قالوا : في عودتك من كندا إلى الولايات المتحدة ستمر طبعاً بمطار مونتريال لتغيير الطائرة ، وهناك ستتجد زليلاً لنا في انتظارك في المطار ليسلامك تذاكر رحلتك ، وقد كان . وطرت أولاً إلى نيويورك التي اتخذتها قاعدة لـ . ومن نيويورك طرت إلى جامعة ميتشجان (آن آربور) ، ومن ميتشجان إلى جامعة شيكاجو ومن شيكاجو إلى جامعة مينيسوتا في مينيا بوليس ومن مينيا بوليس إلى جامعة وسكونسن ، ومن وسكونسن إلى جامعة بوديوف لا فاييت إنديانا ومن لا فاييت إلى جامعة تكساس في أوستن ، ومن أوستن إلى واشنطن وـ واشنطن إلى جامعة برنسون ومن برنسون إلى نيويورك حيث أقيمت محاضرتين أحدهما في جامعة كواوببيا والأخرى في جامعة نيويورك . وأولاً أني فررت من أمريكا فراراً وجدت نفسي أطوف بعشرين جامعة أخرى . وكانت متعة عظمى أن أجد نفسي ثانية بين أبناء عشيرتي الأولى أستاذة الجامعات وطلابها ، واحتملت مشقة لا يحتملها ابن العشرين : أطير ألف كيلومتر في الصباح وأحاضر في المساء وأبيت الليلة في فندة أو في المدينة الجامعية لأطير في اليوم التالي ألف كيلومتر في الصباح وأحاضر في المساء ، — وكانت راحتي الوحيدة أن يحمل بي يوماً سبعة وأحد حين لا يعمال الناس — ومع ذلك لم أحس بأدنى إجهاد إلا في نهاية المطاف . كل شيء مرتب بإحكام كأنك تدور مع عقارب ساعة جسمانية متقدمة الصنع لا تخطي أبداً . الطائرة دائماً تصل في الموعد المحدد . السيارة دائماً تتذكرك في المطار . غرفة نومك دائماً محجوزة . محاضرتك دائماً تبدأ

وتنهى في الوقت المحدد لها . للغداء وقت محمد ، وللحفلة الاستقبال وقت محمد ، ولم يحدث خلل واحد .

* * *

وانقضى الشهر الذي خصصته لزيارة أمريكا . وهكذا دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً ، إلا « الدير » في نيويورك ومعرض ميرو في مينابوليس . لم أر مسرحية واحدة أو أبرا واحدة ، وكان الكتاب الوحيد الذي عدت به « قادوس في لغة البربر » و « أجروميه لغة البربر » ، وهو من تأليف أستاذ مصرى في جامعة ميتشجان اسمه أرنست عبد المسيح . وبرغم أنني دخلت أمريكا وخرجت منها دون أن أرى شيئاً من فنونها وأدابها ، فقد تعلمت أشياء كثيرة غير ما قصدت إليه من رحلتي الأمريكية ، أشياء ربما كانت أحلم من الفنون والآداب . فهذا أن التقيت في اليوم الأول بجامعة هارفارد بفتاة مصرية تدرس الدكتوراه يتدلل على صدرها « العنخ » أو « مفتاح الحياة » ، قررت أن أدرس أحوال المصريين المغربين في أمريكا . وفي كل مكان نزلت به جمعت باقة من المشكلات والحلول . وفي كل مكان نزلت به لم أكف عن مناقشة الناس في المسألة المصرية وجميع الأنباء عن الرأى العام الأمريكي فيها يسمونه « الحل السلمي » . وقد أتاحت لي تنقلاتي المتواصلة أن ألتقي بمئات الناس من مختلف الطبقات والمستويات والمهن والتخصصات . وفي الحالين وصلت إلى نتائج أجد أن من واجبي أن أعرضها على أبناء وطني ، ليعرفوا شيئاً عن مآل إخوتهم المهاجرين في الخارج ، ول يعرفوا شيئاً عن رأي رجل الشارع الأمريكي في محنتنا الوطنية .

الفصل السابع

إمكانيات الحوار في المجتمع المصري

ترجمة لنص محاضرتي في مؤتمر بوسطن

سيدي الرئيس ، سيديّاتي وسادتي .

إنه لمصدر اعزاز لي أن أزور الولايات المتحدة الأمريكية بعد غيبة طويلة امتدت خمس عشرة سنة ، لأنتحدث إليكم في موضوع « إمكانيات الحوار الصادق في المجتمع العربي المعاصر ». ولذا فإني أقدم الشكر لاتحاد الحريجين الأمريكيين العرب لتفضيله بتوفير هذه الفرصة لي ، بدعوى للتحدث إلى مؤتمره الرابع المنعقد في بوسطن .

على أنه لم يكن واضحاً تماماً عندى إن كان المراد أن أتحدث عن إمكانيات الحوار بين المجتمع العربي وبقية العالم ، أو أن أتحدث عن إمكانيات الحوار داخل المجتمع العربي نفسه . ولما كنت أنتهى إلى بلد لم يكُفَّ منذ كارثة ١٩٦٧ عن محاولة فتح باب التفاهم مع العالم الخارجي ، ومع ذلك لا يجدر أن كل الأطراف المعنية تفهمه بوضوح تام ، فإني أسلم بأن جهودنا التي لا تكل لإقامة الحوار مع بقية بلاد العالم ليست وضع شك من أحد . وبناء عليه فإني سأمضي إلى استقصاء الوجه الآخر من الموضوع ، ألا وهو طبيعة التفاهم المتبادل ومداه داخل ما يسمى

بالمجتمع العربي نفسه. ولا كنت لأعرف شيئاً كثيراً عما يجري داخل البلد العربية الأخرى ، فإني سأقصر كلامي على البلد الذي أعرفه أكثر من سواه ، وهو بلدى ، مصر . كذلك فإني سأحدد نطاق فكري عن المعاصرة بحيث تقتصر على أحوال عصرنا منذ ١٩٥٢ ، ولو أنني واثق من أن بعضكم يود مني أن أكون أكثر معاصرة من ذلك .

لو أننا رجعنا إلى السنوات القليلة السابقة لثورة ١٩٥٢ ، وهى آخر أيام القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية ، لوجدنا أن الحرب العالمية الثانية قلتها سبع سنوات من الفوضى السياسية والقلالق والجنوح إلى اللا عقل ، ليس فقط داخل المجتمع المصرى نفسه ، ولكن كذلك بين الدول القديمة والحديثة التي كانت لها من قبل علاقات تقليدية بمصر ، وأهمها بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية . كانت تلك الفترة فترة الالتفاهم العظيم : فى مصر رفض бритانيون في عناد سحب جيش الاحتلال ، برغم أن انتصارهم في الحرب جعل استمرار الوجود бритاني في مصر بغض الدفاع عن النفس أمراً لا معنى له ، في حين بلغ الشعور الوطنى المصرى نقطة الانفجار . كذلك بلغت الحزارات الطبقية نقطة الانفجار ، عندما رفضت طبقة الباشوات ، يقودها ملك لا يحسن بالمسؤولية ، في عناد ، بكل محاولة للتصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعي وعن طريق إصدار تشريعات عمالية تكون أقرب إلى العدالة . أما رأس المال الأجنبى في مصر ، وقد كان خلال مائة عام يحتل مركزاً ممتازاً ، فقد رفض في عناد أن يتخلى عن هذا المركز الممتاز

وأن يصل إلى اتفاق مع البورجوازية المصرية ومع التكنوقراطية المصرية الناميتين أبداً ، ومع رأس المال الأجنبي ، كان هناك ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين الذين تسبّبوا في عناد باعتقادهم في تفوق أصلهم الأوروبي ، وأثروا الخروج من مصر جماعة على أن يستسلموا في إذعان لمصير المواطن المصري المتجلس ، وهو مصير غير سريح . ولكي تم السيطرة على كل هذه التوترات الفظيعة ، أقام الملك فاروق خمس دكتاتوريات : النقراشى وصدقى والنقراشى وعبد الحادى وسرى ، التي توالت في تعاقب سريع . وقد أضافت الدراما الفلسطينية الإسرائيلية اللمسة الأخيرة في هذه الصورة حين تطورت في الخلفية في سرعة لا همة . وأخيراً ولد نقيف الموضع ، وهو الثورة من الموضع ، وهو العهد البائد . وأخيراً استجدت للبلاد الناطقة بالعربية قضية مشتركة تلتئف من حوطها ، وأعطى الإحساس بالمشترك معنى ودفعه لفكرة العروبة .

وفي اعتقادى أنه ينبغي النظر إلى حكومة الوفد بين ١٩٥٢ و ١٩٥٠ على أنها آخر محاولة يائسة لإنقاذ العهد البائد الذى كانت دعامتاه القومية المصرية والديمقراطية الليبرالية . وقد أفضى إخفاقها إلى نهاية عصر وبداية عصر آخر . وقد كان ينبغي أن تقوم ثورة ١٩٥٢ في ٢٦ يناير لا في ٢٣ يوليو .

كان ما تحتاج إليه مصر هو قيام نظام قوى يضع حدًّا للفوضى وللقلالقل وللجنوح إلى اللاعقل ، نظام فى يقدم الحاول لكل هذه

التوترات التي لا سبيل إلى حلها ، نظام يرد مصر كبرى إعها القوى بخلصها من الاحتلال البريطاني ، نظام يعيد مصر استقرارها السياسي والاقتصادي بالتعجيل بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية وإقرار التصالح الطبقي عن طريق الإصلاح الزراعي وعن طريق ترقية تشریفات الطبقة العاملة ، نظام يجعل مصر للمصريين بتصفيه المصالح الأجنبية و«الاستيطان» الأجنبي في مصر، وأخيراً نظام يجد حلاً مرضياً لعقدة الدراما الفلسطينية الإسرائيلية نصف المرتجلة. وبوجه عام ، حاول نظام جمال عبد الناصر – لو حكمنا عليه داخل سياقه التاريخي وفي نطاق الطبقة الوسطى الصغيرة التي حددت إمكانياته – تقديم حلول ناجحة لكل هذه التوترات التي لا سبيل إلى حلها ، ولكنه عندما تقدم حل المشكلة العربية الإسرائيلية ، كان التحدى أكبر من طاقاته . فقد استبان بعد فوات الأوان أنه كان يتعامل مع مجهرولات في السياسة الدولية لم يكن معداً لها الإعداد الكافي ، ولكنه أيضاً استبان بعد فوات الأوان أيضاً أنه بالرغم من أنه حل تناقضات عديدة داخل المجتمع قد استحدث تناقضات أخرى لم يستطع حلها لا تقل خطورة واستفحالاً في الأبعاد عمما حل من تناقضات .

ومن أهم هذه التناقضات التي استحدثتها ثورة ١٩٥٢ اختفاء الحوار داخل المجتمع المصري . واختفاء الحوار بالقطع ظاهرة تتميز بها كل الثورات لا الثورة المصرية وحدها . فالثورات في العادة جامحة ومتغصبة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، والحوار ، شأنه شأن الديالكتيك ،

منهج في الحياة ، وبوصفه منهجاً في الحياة فهو لابد أن يتبع نظاماً وأن يقوم له وجود مؤسس يضم من التأمل والتحاطب والتسامح . والثورات الكبرى في تاريخ البشرية ، كالمسيحية والإسلام والثورة الفرنسية والثورة الروسية ، كانت كذلك جامحة ومتغصة وتنظر إلى الأمور من زاوية واحدة ، ولكنها قامت لتغير أفكار الناس ومعتقداتهم وقيمهم الأساسية ، وتغيير أسلوبهم في الحياة . وهذا فإن تطرفها مغتفر بسبب عظمة رؤيتها . أما الثورة المصرية فهي برغم إيقافها بباب الحوار الشمر قد اختارت لأسباب عملية أن ترك بدون إجابة كافة المسائل التي كانت تمزق المجتمع المصري . فهي قد تركت معلقاً بدون إجابة ، ذلك الموضوع التقليدي ، موضوع «صراع القدماء والمحدثين» بأن تركت القديم والحداث يعيشان ويتعايشان ، ولم تعن إلا بإقامة توازن حرج كثيراً ما قام على الاعتماد على القديم لاستحداث الحداث ، خشية أن يكون الحداث أكثر جدة مما يسوغ لها . كذلك تركت الثورة المصرية معلقاً بدون إجابة موضوع الشيورقراطية والعلمانية كأساس للدولة في مصر . وبينما تجد أن ثورة ١٩٥٢ ، قد قبلت من جميع الوجوه وبجميع المعانى ، بلا تحفظ وفي غير إبهام ، الفكرة التقليدية والتطبيق التقليدي لنظرية الدولة في مصر منذ محمد علي بوصفها قائمة على دعائم مدنية وعلمانية ، فإنها بالرغم من ذلك سمحت للفكر الشيورقراطي أن يتغلغل في عقول الملايين من المواطنين بإباحة المنابر السحرية لذلك النط من واعظ القرية المتخلف من العصور الوسطى ، ونشر التعاليم البيوريانية من خلال برامج التعليم ومن خلال أجهزة

الإعلام الجماهيري . فعندما نسمع نداء « الله أكبر » يتجاوب في مدينة الألف مئذنة نحسب أن القاهرة غارقة في حلم من التقوى الشاملة لا يزال يحلق فوق رؤوس الناس منذ عهد الخلفاء الراشدين ، في حين أن مشهد الميسي جيب والشورت الساخن في شوارع القاهرة يرددنا إلى حقائق الحياة المألوفة في أية عاصمة عصرية من عواصم البحر المتوسط . وبالمثل فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معلقاً بدون إجابة موضوع تعريف القومية العربية برغم أن طوفانعروبة كان في بعض لحظات شدائد التلاطم إلى حد كان ينبغي معه التوصل إلى تعريف ما للقومية العربية يعطي هذه الحركة منطقاً متساكناً ومقبولاً . وهكذا تركت القومية العربية والوحدة العربية للتراجح بشدة من شخص آخر ومن حزب لحزب ، ومن أمة لأمة ، بحيث اشتمل مداولتها على أي شيء من العنصرية السافرة إلى الجامعة الإسلامية ، إلى التالية الرومانسية للثقافة المشتركة . إلى مجرد التضامن الحالى من الرومانسية فى سبيل المصلحة المشتركة . حتى الموقف الرسمي من هذا الموضوع قد تأرجح بشدة بين ثلاثة اتجاهات كانت تسمى يوماً ما بوحدة الهدف ووحدة العمل ووحدة الصف . هذا نفسه ينطبق على الفكرة الاشتراكية نظرياً وفي التطبيق . فإن ثورة ١٩٥٢ تركت معاً غير إجابة موضوع شكل الاشتراكية المصرية ومحتوها ، أو على الأصح مبدأ تأميم وسائل الإنتاج ، الذى فهمه البعض على أنه رأسالية الدولة ، في حين تمنى له غيرهم أن يتطور إلى ملكية الشعب لفواصص القيمة ملكية حقيقية ، وعلى حين أراد له فريق ثالث أن يطابق الفكرة الدينية عن

ملكت المؤمنين على الأرض ٩

كل هذه الأفكار المتناقضة سمحت لها الثورة أن تعيش تعايشاً سلماً ١٠ في السنوات العشرين الماضية ، ومضت الثورة تشق طريقها بمنهج التجربة والخطأ ، رافضة أن تلتزم بنظرية محددة . فبدأت وكأنها تطبق نوعاً من الحياد الإيجابي على كل هذه النظريات . وبالمثل سمحت الثورة لكل هذه النظريات المتضاربة أن تعيش بشرط ألا تحاول أن تجسّد نفسها في سياسيات وبرامج تطبيقية ، أو حتى أن تكتسب من القوة الذاتية ما يجعلها تشكل ضغطاً على الدولة . بعبارة أخرى احتملت هذه النظريات في ساحة ما بقيت نظريات . فلم يكن يسمح بالاستقطاب ولم يكن « التجمع » الدياروجي موضع رضاً ، وقد حلّت صيغة الاتحاد القومي أولاً ثم الاتحاد الاشتراكي ثانياً ، بوصفه « تحالفاً » بين الطبقات . مشكلة الصراع الطبقي والتناحر الحزبي . غير أن الإصرار على رفض مبدأ قيام الاتحاد القومي، أو الاتحاد الاشتراكي بوظيفة الحزب في دولة تقوم على مبدأ الحزب الواحد قد جعل التنظيم السياسي أيضاً عاجزاً أمام الدولة .

كل ذلك قلل من إمكانيات الحوار في المجتمع المصري . وقد استندت نظرية الدولة على أن الحوار هو بداية التسامم ، وأن التسامم هو بداية الحرب الداخلية والفرقة اللتين ما جاءت ثورة ١٩٥٢ إلا لتجنبهما . وقد بنت قيادة الثورة شرعيتها على مبدأ واحد ، وهو أنها لا تمثل طبقة واحدة ، ولا تمثل مجموعة واحدة من المصالح ، ولا تمثل مجموعة واحدة من الأفراد ، وإنما تمثل الأمة كلها . ومن أجل ذلك كان لزاماً عليها أن تكون

فوق الطبقات وفوق مجموعات المصالح . إلخ .. ولهذا كان لكل مواطن الحق في أن يعبر عن نفسه بالمؤذن لو جُـ[الصغير المتصل بشخصه] ، وأن يعرب عن معتقداته ، وعن شكوكه ، وعن احتياجاته داخل الإطار العام للأشياء ، وكانت القيادة الملهمة تصفعى باهتمام إلى صوت « الشعب » . وفي هذه النظرة التوحيدية للدولة تصبح إرادة « الشعب » هي بمجموع إرادات الأفراد . فكل فرد يقف وحده مع الدولة أو عليها .

وقد مكن هذا النقص في النظرية ثورة ١٩٥٢ إلى حد كبير من أن تتجنب الواقع في صدامات دموية مع أعدائها ، وهو ما تميزت به الثورات الأخرى إلى حد كبير . فكثيراً ما يكون طغيان الإيمان بعقيدة أو بأسطورة إنسانية أو اجتماعية هو الحبر إلى العنف وسفك الدماء . غير أن هذا النقص نفسه في النظرية ، وهذه الرغبة في التوفيق بين النهايَّات وتركيبها بقصد تجنب الصدامات ، هما اللذان أفضيا إلى عجز الثورة المصرية عن أن تهُـ[للشعب المصري فلسفة ثورية متجانسة وأسلوباً ثوريَاً] متجانساً في الحياة . فهي قد تركت المصريين يؤمنون بما يريدون الإيمان به بشرط ألا يعتدوا على الخطوط العريضة التي أرسستها الثورة . وعلى الأقل حتى دستور ١٩٧١ كان يمكن للمواطن المصري أن يكون ماركسيَاً أو آخَاً مسلماً بشرط ألا يتسمى إلى جماعة منظمة ، وبشرط أن يتعاون مع النظام . وقد تركت ثورة ١٩٥٢ أكثر الأشياء للطبيعة ، واعتمدت فقط على قوانين التحول الاقتصادي الصارمة . صحيح أن الناس فقدوا عقلياً العمل بعيداً « دعه يفكر » حين فقدوا اقتصاديَاً العمل بعيداً « دعه يعمل »

لكن صحيح أيضاً أن الفلاح المصري الذي مسّه الإصلاح الزراعي والعامل المصري الذي مسّه التصنيع لا يملكان أية عقيدة ثورية متميزة ، أو أى أسلوب ثوري متميّز في الحياة . وصحيح أيضاً أن مئات الآلاف من النساء المصريات قد تحررن في عهد الثورة « بقوة الواقع » بسبب تعليم المرأة وتشغيل المرأة ، ولكنهن لم يتحررن بعد « بقوة القانون » ؛ بل لم ينالن أدنى اعتراف بالمساواة في المجتمع قائم على سيادة الذكور ، برغم أن الميثاق والدستور معًا قد حرصا على إعطاء المرأة المصرية وضع المواطننة الكاملة .

وقد قامت نظرية الوحدة الوطنية على أساس من نظرية الوحدة الاجتماعية ، وهي ما يسمى أحياناً « بتذويب التناقض بين الطبقات » . وقد قللت هذه من إمكانية الحوار الصادق في المجتمع المصري ، ثقافياً كان أو غير ذلك . وكان شعار المرحلة هو الاكتفاء الذاتي ، والاكتفاء الذاتي بنص تعريفه هو نفي لفلسفة الحياة القائمة على « الأخذ والعطاء » فهو على أحسن الاحتمالات يفترض القدرة على أن نعطي من دون أن نأخذ ، على أن نؤثر من دون أن نتأثر ، على أن نصدر من دون أن نستورد . كما أنه كان يرضي كبرياتنا القومي على المستوى المادي أننا كنا نعتقد أن مصر ، التي ظلت آلاف السنين بلدًا زراعيًّا تضرب به الأمثال في اعتماده على الزراعة ، قد أصبحت منذ ١٩٥٢ بلدًا كامل التصنيع « يتبع كل شيء من الإبرة إلى الصاروخ » كذلك كان يرضي كبرياتنا القومي على المستوى الثقافي أن نعتقد أن الثقافة العربية كانت مكتفية

بذاتها ، على الأقل منذ ظهور الإسلام وسيادة العرب في العصر الذهبي . ولم يكن مجرد افتراض ضمني وإنما كان موضع تأكيد صريح أن الثقافة العربية كانت تجسّد كل ما يستحق الاهتمام من القيم الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية ومن التقاليد ومن المؤسسات المدنية بوصف أن هذه جمِيعاً نابعة من مبادئ الدين . وقد كانت هناك حقاً مظاهر فساد وإنحراف عن الطريق القويم بعد أن استسلم العرب للغزوة الأجنبية وتعرض الدين للزنادقات اللعينة الوافدة من مصادر أجنبية . وقد كان الحل هو أن ننْهَرْ قيمنا الميتافيزيقية والإنسانية والاجتماعية وأن ننْهَرْ تقاليدنا ومؤسساتنا الاجتماعية بالرفض الأعظم لكل ثقافة «مستوردة» وأن نبعث الثقافة الدينية الأصيلة الموروثة عن العصر الذهبي في التاريخ العربي . ولما كان الناطقون بالعربية يختلفون في تحديد أي عصر من العصور كان العصر الذهبي في التاريخ العربي ، فهو عصر الرسول والخلفاء الراشدين أم عصر بنى أمية أم عصر العباسيين ، فقد اختلفوا أيضاً حول تحديد شكل هذا البعث العظيم وما هيته .

أما البيوريتان فقد آمنوا بحكومة ثيوقراطية تقوم على البيعة وتوسّس على تفويض السلطة لا على التمثيل النيابي ، كما آمنوا بمجتمع طبقي وبنظام يقوم على تقديس الملكية الخاصة «وبالإحسان» كأدلة للعدل الاجتماعي ، وبكافحة الفضائل الاقتصادية التقليدية التي تشجب فلسفة اللذة بكل درجاتها ، من عبادة الجمال السافرة إلى تذوق الفنون الجميلة ، بوصفها من عمل الشيطان ، وهؤلاء آمنوا «بالأطفال والمطبخ والمعبد» — كما كان الأمان

يقوّون - كوظيفة للمرأة ، وبفصل الجنسين ، وبوضع حدود لتعليم المرأة . وعندهما واجهوا الاشتراكية المخففة التي نص عليها ميثاق عبد الناصر في ١٩٦٢ هاجموها بوصفها زنقة . (وقد كان مما يشير الرثاء أن نرى بعض الماركسيين المصريين ودعاة الاشتراكية العربية ، رغبة منهم في تسكين غضب البيوريتان يحتجون بأن الدين هو اليقوع الذي نبع من الاشتراكية ، ولكن يثبتوا حجتهم ، كانوا يقتطعون بعض الآيات المقدسة من القرآن مما يندد بغطرسة الأغنياء ويحضر على الرحمة بالفقراء ، أو يستشهدون بأبي ذر الغفارى ، وهو فارس من دعاة المساواة عاش في عصر الرسول وكان يطالب بالعدل الاقتصادي في صدر الإسلام) .

ومع ذلك لم يكن هؤلاء المتطرفون ، برغم نشاطهم الجم ونبرتهم العالية ، يمثلون القسم الأكبر من الرأى العام حول الاشتراكية العربية والثقافة العربية . فهم لم ينجحوا إلا في خلق جو جعل القيادة السياسية نفسها والصحافة وغيرها من وسائل الإعلام تقف موقف المعتذر عن تحديد الملكية الزراعية وعن تأمين وسائل الإنتاج الضخم . وكان الدافع دائماً ما يقوم على أن هذه الإصلاحات لها سوابق في تاريخنا المجيد وليس مجرد مستوررات من الفلسفات الأجنبية والتطبيقات الأجنبية ، بل على العكس من ذلك ، كان يقال في تأكيد إن الاشتراكية العربية إضافة إلى إيجابية النظرية الاقتصادية والسياسية المستوحاة مائة في المائة من الظروف والأحوال العربية . وكانت هناك درجة من الصدق في هذا الاعتراف ! وقد قاتل الماركسيون المصريون وخسروا معركة باسلة حين حاولوا أن

يشتبوا أن الاشتراكية هي الاشتراكية في كل مكان ، وأنه ليس ثمة شيء اسمه الاشتراكية العربية أو الاشتراكية اليوغوسلافية أو الاشتراكية الروسية ، وإنما هناك فقط « طريق » عربي أو يوغوسلافي أو روسي إلى الاشتراكية . والأرجح أن هذه المعركة الأيديولوجية التي دارت خلال سنتين أو ثلاث بعد إعلان الميثاق ، أى بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ ، كانت أكثر تفلسفًا مما يسوغ فهمه للرجل العادى الذى لم يتحجز في عقله من كل هذه الضوضاء إلا فكرة واحدة أساسية تنسق مع مبدأ الاكتفاء الذاتي الذى جاءت به الثورة في مجموعه . هى أن العربي الصالح والمسلم الصالح لا يجوز له أن « يستورد » بضائعه أو ثقافته أو مبادئه الاقتصادية والسياسية . وإنما عليه أن يصنعها بنفسه وفقاً لظروفه واحتياجاته وغاياته . حتى ولو كانت النتيجة شيئاً يختلف تماماً عن التعاريفات والمفاهيم المتعارف عليها . هذ المبدأ نفسه ينطبق على الديموقратية في النظرية وفي التطبيق وعلى النظريات الثقافية والسوسيولوجية كافية .

وهذا الاتجاه في حد ذاته كان يمكن أن يكون أساساً براجماتياً . صحيحاً للفكر النظري وللتطبيق العملي لولا أن تأليه الذات القومية وتقديس الثقافة القومية والتجربة القومية والأسلوب القوى في الحياة قد أفضى إلى أننا فرضينا العزلة على أنفسنا وأنفسنا وإلى أننا عجزنا عن التفاهم مع بقية بلاد العالم . وقد كانت هذه هي مخنة مصر الحقيقة قبل ١٩٦٧ : إنها كانت تحيا في حالة مونولوج متصل ، عاجزة عن الإرسال عاجزة

عن الاستقبال . وقد تغير هذا الاتجاه تغيراً ماموساً منذ كارثة حرب يونيه .

وقد أدى الاعتقاد في أن الثقافة العربية مكتفية بذاتها إلى توقف التواصل مع الثقافات الأخرى ، ولا سيما الثقافة الغربية التي كانت تقليدياً خلال القرنين الماضيين مقاعلاً جوهرياً في هبة البلاد الناطقة بالعربية ، في مصر خلال عشر سنوات كانت دراسة اللغات الأجنبية ينظر إليها رسمياً وشعبياً على أنها من البقايا الكريهة المختلفة من العهد البائد الذي اشتهر باعتماده المشين على الدول الإمبريالية والاستعمارية ، ولا سيما بريطانيا وفرنسا . وفي برامج التعليم اختصر تعليم الإنجليزية اختصاراً مخاللاً ، وغابت اللغة الإنجليزية مادة اختيارية يجوز للطالب أن ينبعج فيها أو يرسب . بعد أن كانت اللغة الأجنبية الأولى الإجبارية طوال السنوات الخمس في التعليم الثانوى . أما اللغة الفرنسية فقد ألغت تماماً أو أوشكت . وكانت نتيجة ذلك أن أجياً وأجيالاً من الشباب كانت تتتحقق بالجامعات المصرية بدون أن تعرف من الإنجليزية أو الفرنسية شيئاً ذا بال . وفي الوقت نفسه ، لأسباب مختلفة اضطرب ويرود الكتب والمدوريات والحرائق الإنجليزية والفرنسية اضطراباً عظيمًا بعد أن كان سيله متصلة . ومنعت الدولة الدراسة في الخارج إلا لأبحاث الدكتوراه في عدد محدود جداً من المجالات العلمية . وقصر السفر إلى الخارج على العلاج الطبي والمهام الرسمية ، وأنخضع لإشراف الدولة . كذلك كان الاتصال بالأساتذة والخبراء والمصطففين بل والسياح الأجانب لا يقابل

بالرضا . وبعد أن غادر مصر ثلاثة أرباع المليون من الأجانب المحليين في هجرة جماعية في بداية عهد ثورة ١٩٥٢ طرأ تغيير مفاجئ وتم على المناخ الثقافي والاقتصادي والاجتماعي . قلم تعد القاهرة والإسكندرية مدينتين « كورزموليت » حتى قبل حرب السويس في ١٩٥٦ بفترة طويلة . ولاشك أن الثورة كان لديها من الأسباب القوية ما يجعلها تبالغ في تأكيد اكتفاء مصر الذاتي في الثقافة القومية ، ولكن النتيجة كانت عزلة مصر الثقافية دون أن يتولد لديها الإحساس بالعزلة . ونحن لم نبدأ نحس بالحاجة إلى مزيد من الحوار الثقافي الصادق مع بقية بلاد العالم إلا منذ عام ١٩٦٧ .

والآن ما هو الموقف منذ ١٩٦٧ ؟ لقد دار بيننا التفتيش في أعماق النفس على أوسع نطاق منذ هزيمتنا في حرب الأيام الستة . وقد أدرك الكثيرون منا أن مواجهتنا مع إسرائيل ليست مجرد مواجهة عسكرية ولكنها مواجهة بين شكلين من أشكال الحضارة . ومن هنا كان اعترافنا على كل مستوى بأن علينا أن ندعم أسس الدولة العصرية في مصر ، وأن نقيم الحوار المشرب بيننا وبين بقية بلاد العالم ، ليس من الناحية السياسية فحسب ، ولكن من الناحية الثقافية كذلك . والظروف الآن تبدو ، على الأقل ظاهرياً ، مناسبة لإجراء هذا الحوار الثقافي الصادق مع الغير وداخل المجتمع المصري نفسه . فالإحساس المغرورين باكتفائنا الذاتي يتلاشى الآن بسرعة عظيمة ، ويبدو أننا مقبلون على فترة من مراجعة معتقداتنا الأساسية ونمطنا التقليدي في الحياة واسعة المدى . وليس أدل

على هذا من القلق العام الذى يعيش فيه المثقفون المصريون اليوم . ومع ذلك فالمستقبل وحده هو الذى سيكشف إن كان القلق الحالى سيفضى إلى منهج جدلى إيجابى فى الفكر والسلوك أم إنه سيكتفى فى شعور المارد الهائج الخاصل . فى اعتقادى أن الكثير يتوقف على باوغ حل عادل لحيتنا الراهنة ، فالناس فى قمة الغضب عاجزون عن الحوار المنطقى .



الفصل الثامن

مصر

ما وراء البحار

كان أهم ما عنيت به في أثناء رحلاتي الأمريكية أمران : دراسة أحوال المصريين المقيمين في الخارج ، وأكثرهم من الأمريكيان المهاجرين ، ثم جمع الانطباعات عن رأى الأمريكيان في حل الصراع العربي الإسرائيلي القائم . وقد أتاحت لي تنقلاتي الواسعة عبر عشرة آلاف ميل داخل أمريكا وبين اثنى عشرة جامعة في اثنى عشرة مدينة أن ألتقي بالآلاف والآلاف من الناس على كل مستوى وأن أناقشهم أو أن أسأ لهم في هذا الموضوع ذاك . وكان أكثر من قابلت طبعاً من الأساتذة والطلاب ، ولكن التقيت كذلك بعديد من الفنانين والمهنيين كالمهندسين والأطباء وبعديد من رجال الإعلام من صحفيين وإذاعيين إلخ .. كما التقيت بعديد من العاملين في الأمم المتحدة . ومن هؤلاء جميعاً جمعت انطباعاتي عن هذين الموضوعين .

وفي كل بلد نزلت به كان هناك مصريون مهاجرون في انتظاري أو في انتظار أن ألتقي بهم على موعد ، فقد كنت حريصاً ، وكأنوا حريصين على ترتيب هذه اللقاءات . وكانت اللقاءات تجرى عادة في

صورة حفلات استقبال ، ومن هؤلاء المهاجرين من كانوا أصدقاء أعزاء لى رمى بهم الزمان إلى تلك الشطآن البعيدة . وفي كل مرة كنت ألتقي بجماعة من المصريين المهاجرين كنت أحس بالحزن الشديد ، فقد وجدت أكثرهم مصاباً بعاهات نفسية كلها من حب مصر . ومن هؤلاء من كان شغله الشاغل . برغم حضوله على الجنسية الأمريكية ، أن يثبت لـ أنه مصرى أكثر مني وأنه يعرف مصر أكثر مما أعرفها . و منهم من حصل على الجنسية الأمريكية وهو يستحق أو يخالف أمامى أن يقرر ذلك فتراه يذكرها بشدة . و منهم من يشكوا لـ القنصالية المصرية لأنها ترفضه منذ عشر سنوات تجديـد جواز سفره المصرى . و منهم من يشكوا لـ وزارة الداخلية المصرية لأنها لا تعنى منذ عشر سنوات بأن ترد على طلبـه بالإذن له بالعمل في الخارج و منهم و منهم و منهم . لكل منهم قصة ولكل منهم قضية ولكل منهم مشكلة مع مصر . كلـهم يتـحرق لـزيارة مصر حيث أهله و صحبـه و عظام أجداده . و ربما بعض المصالح المتعلقة . وأكثرهم يخشـى أن يـزور مصر فلا يؤذـن له بـتأشيرـة خروج . هذا بسبب الضـرائب و ذلك بسبب الخـاتمة العسكرية والثالث بسبب إـذـن العمل والرابع بسبب نـفـقات الـدـارـاسـةـ التي تـطلـبـ بها إـدارـةـ الـبعـثـاتـ ، إـلـخـ . .

وكنت دائمـاً أسـأـلـ كلـ منـ أـصـادـفـهـ ، هلـ أـنتـ سـعـيدـ فيـ أمـريـكاـ ؟ـ فيـكـونـ الجـوابـ دائمـاًـ :ـ نـعـمـ ،ـ وـلـكـنـ فـيـماـ يـشـبـهـ التـأـوـهـ عـلـىـ شـئـ ضـائـعـ هـوـ نـفـسـهـ الضـائـعـةـ .ـ وـوـجـدـتـ أـكـثـرـهـمـ لـاـ يـنـقـصـهـ شـئـ عـمـنـ مـادـيـاتـ الـحـيـاةـ:ـ الـفـيلـاـ وـالـسيـارـةـ وـالـأـثـاثـ الـمـرـيجـ وـالـدـخـلـ الـكـافـيـ وـالـعـملـ النـاجـحـ ،ـ وـعـنـ ذـلـكـ فـهـوـ فـيـ

قرارته يختفي قلقاً مكبوتاً يطفوح من حين لحين . هذا بسبب بناته الالاتي بلغن سن الزواج وـ لا ي يريد لهن أن يتزوجن من شبان أمريكيين ، وذاك لأن صديقاً له قتل في حادث سيارة فدفن في أرض غريبة بغير شعائر دينه ، وهكذا . ويبدو أن الدفعات الأخيرة من المهاجرين المصريين الذين نزحوا إلى أمريكا بعد حرب يونيو كانوا أقل توثيقاً في الحصول على أعمال تناسب مع مؤهلاتهم . فكانوا يقبعون أية وظائف تعرض عليهم منها كانت تافهة من أجل لقمة العيش ، وقد عمل منهم عدد غيري في وظائف الحراس في المخازن والمخراجات وما إليها ، وبع ذلك بالمصريون المهاجرون برغم مايلم بهم من هموم العيش في وطنهم الجديد لم يفقدوا روح الفكاهة المصرية .

وقد بدأ المهاجرون القدماء يحسون بأن عليهم واجباً نحو المهاجرين الجدد ، كما يدعوا يحسون بضرورة التجمع والترابط ، وهم الآن يحاولون إنشاء جمعية من الأمريكيين المصريين تكون لها فروع في كافة بلاد أمريكا حيث يتجمع المصريون .

| سألت صديقاً يحمل في الأمم المتحدة : هل هناك إحصاء يحدد المهاجرين المصريين ؟ أجابني : يرجع العارفون أنهم نحو ربع مليون في العالم كله ، توزيعهم كالآتي : ٨٠ ألفاً في كندا ، و ٨٠ ألفاً في الولايات المتحدة ، و ٨٠ ألفاً في أستراليا وبقية بلاد العالم . قال يحيى أبو بكر عندما قابلته في نيويورك : هذا تقدير مبالغ فيه . إنهم لا يتتجاوزون ١٠٠ ألف في العالم كله . وعندما عدت إلى مصر اطلعت على بعض

التقارير المتصلة ب موضوع المهاجرين المصريين ، ومنها مطبوعات الجهاز
المركزي للإحصاء وتقرير مدير إدارة المهاجرين بوزارة الخارجية المصرية
فأنهيت إلى أن مصر ليست لديها أية معاهدات يقينية عن عدد أبنائها
العاملين في الخارج . فلو أننا اعتمدنا على حصر من حصلوا على ترخيص
من وزارة الداخلية بالعمل في الخارج لوجب أن نضيف إليهم عشرات
الآلاف من تقدموا بطلب التصريح ولم يجذبوا إلى طلبهم سواء بالصمت
أو بالرفض الواضح أو بالرفض المؤجل لوجود عيب شكلي في علاقاتهم
بالحكومة المصرية ، وأوجب أيضاً أن نضيف إلى هؤلاء عشرات الآلاف
من المصريين الذين تسلوا إلى الخارج في سياحة أو في مهمة وهمية مؤقتة
أو تحت ستار العلاج أو أى ستار آخر ، أيام أن كان السفر إلى الخارج
 شيئاً قريباً من المخظورات ، ثم رتب أمر هجرته وهو خارج مصر خشية
أن يحال بينه وبين مغادرة البلاد . وإذا نحن اعتمدنا على عدد تأشيرات
الإقامة والهجرة التي منحتها كل قنصليات أجنبية في مصر للدا وطنين
المصريين كأساس للإحصاء وجب أن ندخل في الاعتبار حالات عشرات
الآلاف من المهاجرين الذين لا تعرف القنصليات الأجنبية في القاهرة
عنهم شيئاً إلا أنهم كانوا يوماً ما سياحاً أو طلاب علم أو زائرين مؤقتين ،
فهؤلاء رتبوا أمور هجرتهم أو إقامتهم الدائمة خارج الأراضي المصرية ،
كذلك لا يمكن أن يعتقد بعدد المصريين المقيمين في الخارج الذين
يتقدرون موسمياً إلى القنصليات المصرية في مختلف بلاد العالم لتجديد
جوازات سفرهم – لأن هناك عشرات الآلاف من المصريين الذين

اكتسبوا الجنسية الأجنبية وأهملوا تجديد جوازاتهم المصرية ، لا زهداً في جنسية مصر ولكن كرها في التعامل مع البiero وقارطية المصرية في مصر والخارج بعد أن ينسوا من التفاهم معها بسبب جمود القوانين والوائح المصرية المطبقة عليهم .

بعبارة أخرى ليست هناك وسيلة واحدة بعدها نستطيع أن نحصر بها عدد المصريين المهاجرين والمصريين المقيمين في الخارج إقامة متصلة وإنما لا بد من اللجوء إلى خس أو ست وسائل ربما كان في مقدمتها البحث الميداني . أو البحث على الطبيعة ، في مختلف بلاد العالم . وسواء أكان عدد المصريين المهاجرين أو المقيمين في الخارج ربعة مليون أو مائة ألف . فهذا العدد في الحالين عدد رهيب ، وهو يجعل من اغتراب المصريين مشكاة قومية يجب أن تدرس على مستوى المسئولية سياسياً واقتصادياً وثقافياً ولا يترك أمرها لمجرد موظفين بiero وقارطيين يطبقون قوانين وأوائعها أكثرها وضع في ظروف غير طبيعية أو كان برغم سلامته ينفذ في جو غير طبيعي . فإذا عرفنا أن عشرات الآلاف من هؤلاء المهاجرين والمغتربين ينتهيون إلى طبقة المهنيين والفنين كالأطباء والأساتذة والمهندسين أدركنا أن النزيف الذي نزفته مصر سنوياً عبر عشرين عاماً من خبرتها المهنية والفنية بل والمالية كان غزيراً حقيقة . ولا أظن أن السبيل الحقيقى إلى وقف هذا النزيف هو المنع والحظر والنهى والحد من حرية التجول ، لأن هذه الإجراءات قد ثبتت تجربة الأعوام والأعوام أنها هي التي أفضت إلى هرب الآلاف المؤلفة من الخبرات المصرية إلى الخارج . وأنا

شخصيًّا أعرف نحو مائة حالة، ورفة شخصية قرر أصحابها الإقامة المتصلة في الخارج ، بل اكتساب الجنسيات الأجنبية أحياناً ، خشية أن يعودوا إلى مصر فتشنعوا بهم تأشيرة الخروج ، فيحال بينهم وبين دراستهم العليا أو بين أعمالهم التي يزاولونها في الخارج . وإنما يكون وقف هذا النزيف بدراسة الأسباب التي أفضت إليه وتنصي إليه ومحاولة إيجاد علاجه .

وقد كنت أدب على طمأنة كل من أعرف ومن لا أعرف من المصريين في الخارج إلى أن المناخ العام قد تغير من هذه الناحية في مصر تغييرًا محسوساً ، وأحثهم على زيارة مصر التي يتوجهون إلى زيارتها . ومع ذلك كنت أحس بأن إحساس المطارد لم يفارقهم منذ تلك الأيام التي كانوا فيها بالفعل مطاردين من مكاتب البعثات ، وكانت تهددهم باوبل والثور لأنهم تجاوزوا فترة المقررة ، ومن القنصليات المصرية التي كانت ترفض تجديده جوازات سفرهم . وكذا بعد كل مناقشة حزينة نتهى إلى هذا السؤال : كيف تضمن لنا العودة إلى أعمالنا لا يضمون هذا إلا قرار من رئيس الجمهورية أو من مجلس الوزراء ينظم من جديده علاقة المصريين المغربين بما يسمونه هناك وأسفاه ، « الوطن الأم » ، يقصدون « مصر ». لقد كنت أثر أن نسمى نحن أبناءنا المغاربة في أرجاء العالم الأربع « مصر ما وراء البحار » . وأنا شخصيًّا لا أحب كلمة « المهاجرين » وأفضل أن ننظر إلى جميع أبناءنا النازحين عنا على أنهم مصريون مقيمون في الخارج ، إلى أن يتنازلوا باختيارهم التام عن

جنسيةهم المصرية :

يأعتقد أننا يجب أن ننظر إلى موضوع أبنائنا المقيمين في الخارج بعقلية جديدة ونفسية جديدة ، فثلثهم عندي مثل الابن أو البنت في الأسرة إذا تزوج من أجنبية أو من غير دينه أو تزوج على هواه : هل تبته الأسرة بتراً وتتبرأ منه أو تحاول أن تقبل منطقه وتحترم إرادته وتقيم الود معه موصولاً ؟ في المنطق التقليدي المحافظ طبعاً تبته الأسرة وتلعنه وتطرده طرد الكلاب . أما في المنطق المتمدن فهي تحاول أن تقيم معه علاقات متضمنة منها ما كان أسفها لقراره وأيا كانت بواته هذا الأسف . فما بالنا إذا كانت الأسرة نفسها في كثير من الأحيان هي المسئولة عن هذا الخطأ – إن كان هذا خطأ – بتزمتها أو رجعيتها أو تقديرها على أبناء من دون أبناء أو عدم تقديرها لمشكلات المراهقة أو .. أو .. إلخ .. وقد ارتكب بعض المسؤولين في حق بعض المصريين المقيمين في الخارج أخطاء أدت إلى هذا الانسلاخ الفظيع الذي غير مجرب حياة عشرات الآلاف من أبناء مصر وجعلهم يقررون الإقامة في الخارج بل فرض عليهم فرضياً الإقامة في الخارج .

خذ مثلاً حالة طالب البعثة أو الإجازة الدراسية يفصل من بعثته ومن عمله في مصر بسبب تجاوزه المدة المقررة لبعثته أو إجازته الدراسية لتلكئه في العودة إلى مصر بعد انتهاء دراسته ، أيا كانت أسباب هذا التجاوز أو التلاؤ ، مشروعة كانت أو غير مشروعة . بالطبع هذا يرتب مسئولية مدنية على طالب البعثة أو الإجازة الدراسية أن يرد للحكومة



المصرية الأموال التي أنفقتها على تعليمها في الخارج ، هذا حق مدنى واضح وصريح ولا يجادل فيه اثنان ، ويمكن للدولة أن تحصل عليه بحكم قضائى بسيط قابل للتنفيذ فى مصر على أموال المبحوث الآبق إن كانت له أموال . ولكن ما علاقه هذا الحق المدنى بسحب صفة المواطننة سبباً عرفيّاً وفعليّاً عن المواطن المدين للدولة سواء أقام داخل البلاد أو خارجها؟ لقد كانت قنصلياتنا في زمن ما ترفض تجديده جواز سفر أي مصرى يفصل من دراسته أو من عمله أو لا يعود إلى مصر فور إخطاره بالعودة ، وهو إجراء غير دستوري قائم على بعض القرارات الإدارية الحمقاء التي اتخذها مسؤولون غير مؤهلين لتحمل مسؤوليات مناصبهم ، لأن إلغاء جواز سفر أو سحبه أو تعطيل فاعليته ينطوى على درجة من درجات إسقاط الجنسية عن المواطن ، واسقاط الجنسية بنص الدستور لا يكون إلا وفقاً لأحكام القانون . ولا أعتقد أن هناك قانوناً من قوانين مصر يحيى إسقاط الجنسية المصرية عن المصريين المدينين للحكومة أياً كانت طبيعة هذه الديون . وفي اعتقادى أن أي مواطن في الخارج رفضت القنصلية المصرية – التابع لها – تجديده جواز سفره لأى سبب من الأسباب إلا صدور قرار رسمي من الجهة المختصة بإسقاط الجنسية المصرية عنه يستطيع أن يحتمل إلى القضاء ويطالب الحكومة بالتعریض الكافى عن الأضرار المادية والأدبية التي وقعت عليه بسبب تشتيته في بلاد الأرض بلا هوية أو مواطنة وحرمانه من رؤية آله وعياله ورعاية مصالحه في مصر إن كانت له مصالح . وفي رأيي أن الحالة الوحيدة التي يجوز للسلطات

فيها أن تسقط الجنسية المصرية عن المواطن المصري غير الإداة بالخيانة العظمى بحكم القضاة الطبيعيين هى الفرار من الخدمة العسكرية أو رفض القيام بها عن إصرار وتبنيت يتأكـدان أمام القضاء الطبيعي . أما مادون ذلك فيحقوق والالتزامات مدنية أو جنائية لا علاقة لها بصفة المواطن أو بالجنسية التي يولد بها كل مصرى كما يولد بلون جلده وبشكل عينيه وبطول قامته ولم يمنيـها أحد لأحد . وما منحه الله لا يأخذه الإنسان .

وفي اعتقادى أنه ينبغي النظر إلى أبناءـنا المقيمين في الخارج . عاملين كانوا أو غير عاملين ، لا على أنهم مهاجرون وإنما على أنهم « مصريون مقيمون في الخارج » حتى واو اكتسبوا جنسيات بلاد أخرى لتصريف معاشـهم إلا من طلب باختياره التنازل عن جنسـيته المصرية . وبهـذا المنطق ينبغي أن نسوى بين المصرى المقيم في أوربا أو أمريكا أو استراليا إلخ . وبين المصرى المقيم في آية دولة من الدول العربية . فـما دامت الحدود السياسية قائمة بين الدول العربية فاعتقـادي أنه خـدش للدستور البـلـاد الذى نـصـ على أنـ مواطنـين متساوـون فيـ الحقوقـ والـواجبـاتـ ، التـيـ يـزـ فيـ المعـاملـةـ بـيـنـ مواـطنـ مصرـىـ مـغـرـبـ يـعـملـ فيـ أـورـباـ أوـ أمـريـكاـ وـمواـطنـ مصرـىـ مـغـرـبـ يـعـملـ فيـ السـعـودـيـةـ أوـ الـكـوـيـتـ أوـ الـخـازـئـ ، فـعـاـمـلـ الأولـ معـاملـةـ المـهاـجـرـ فيـ حـيـنـ نـعـاـمـلـ الآـخـرـ معـاملـةـ المصرـىـ المـقـيمـ فيـ الـخـارـجـ ، وـنـسـقـطـ الجـنـسـيـةـ عنـ الـأـوـلـ أوـ نـكـرـهـ عـلـىـ التـناـزلـ عـنـهاـ بـجـيـثـ لاـ يـعـودـ إـلـىـ مـصـرـ إـلـاـ عـودـةـ الأـجـنـبـىـ ، عـلـىـ حـيـنـ نـحـفـظـ لـلـآـخـرـ كـافـةـ حقوقـ الـمواـطـنـةـ ، بلـ إـنـاـ بـذـلـكـ نـعـاقـبـ أـبـنـاءـنـاـ الشـجـعـانـ الـذـيـنـ لمـ يـتـهـيـهـواـ

من التحدى الأكبر ، وهو أن يبحثوا عن الرزق والمستقبل بين أقوام أعلى منها حضارة ولا مكان بينهم لأجنبي إلا إذا كان ذا قدرات خاصة تحتاج إليها مجتمعاتهم ، ونسخو مع أبنائنا الذين يعيشون في دروب ممهدة وبين أقوام تكفي فيها الخبرة المأهولة لأنها ناقصة في أكثر الخبرات . وقد التقى بتلامذة ليدرسون اللغة الإنجليزية وأدابها في مدارس إنجلترا وأمريكا للطلبة الإنجليز والأمريكان ، وعندى أن مهمته هؤلاء أشق عشر مرات من مهمة أولئك الذين يدرسون اللغة الإنجليزية وأدابها في مدارس العراق أو الكويت أو الجزائر . ومع ذلك تركت الأولين يشكون مشكلاتهم المصرية في حين يعمل الآخرون تحت جناح مصر ورعايتها .

والملهم في كل هذا أن نتوصل إلى الحلول الخاسمة التي تريح كل أبنائنا المبعدين هنا وهناك وفي كل مكان . وأقترح في سبيل ذلك العمل بالمبادئ التالية :

- ١ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أي مواطن مقيم في الخارج لأى سبب من الأسباب للعمل أو لغير العمل ، للعمل بتصریح أو بغير تصریح ، من تجديد جواز سفره ، إلا في الحالات التي تتوفّر فيها أركان إسقاط الجنسية ، وأن يكون القرار المذكور بأثر رجعي .
- ٢ - أن يصدر قرار يحظر على أية سلطة إدارية منع أي مواطن مقيم في الخارج من العودة إلى محل إقامته بعد زيارته لمصر لأى سبب من الأسباب وبأية حجة من الحجج .

- ٣ - أن يصدر قانون بأثر رجعي يبيح لأبنائنا المقيمين في الخارج الجمع بين جنسية مصر والجنسية التي يكتسبونها لكسب عيشهم بحيث لا يفقد « المصري المقيم في الخارج » جنسية مصرية إلا إذا تخلى عنها بمحض إرادته أو أدين قضائياً بتهمة التهرب من الخدمة العسكرية .
- ٤ - أن تنشأ بكل سفارة مصرية في الدول التي يتجمع فيها المصريون المقيمون في الخارج إدارة للمغتربين تتولى حصر أسماء المقيمين في الخارج وأعمالهم ووسائل الاتصال بهم وتنظيم علاقتهم بمصر ، كما تتولى رعاية الجمعيات والنوادى التي ينشئها المصريون المقيمون في الخارج ، وتتولى تنظيم تعليم أبناءهم اللغة العربية ومبادئ الدين والتاريخ القومي .
- ٥ - أن تحسن بقوة القانون أموال المصريين المقيمين في الخارج المودعة لدى البنوك المصرية بحيث لا يعزف المصري المغترب عن إيداع أمواله في البنوك المصرية خشية أن تعصف بها تقلبات القوانين .
- ٦ - أن يصرح للمصريين المقيمين في الخارج بتملك الأطيان الزراعية والعقارات وأن يستثمروا في الاقتصاد المصري داخل مصر وخارجها حتى ولو كانوا قد اكتسبوا جنسية أخرى ، ولا يحظر عليهم إلا التصرف فيها بالبيع أو التنازل لأشخاص أو هيئات لا تحمل الجنسية المصرية .
- ٧ - أن يصدر قرار ينص على أن كل مصري مقيد في الخارج يتقدم بطلب للإذن له بالعمل في الخارج ولا يصله رد من الجهات المختصة

عن طريق قنصليته خلال شهرين من إيداعه الطلب يعد طلبه مقبولاً بصفة تلقائية ، وإنه في حالة الرفض يجوز له الاشتراك لمجلس الدولة في دائرة للأمور المستعجلة تنشأ خصيصاً لفصل في هذه الأمور وأمثالها . أما المواطنين المقيمين في مصر فتختصر المهلة إلى شهر واحد . مع تمعهم بحق اللجوء إلى محكمة القضاء الإداري .

هذه بعض التيسيرات التي يمكن أن تقدمها لأبناءنا المقيمين في الخارج ، أن يجعلهم يحسون من أعمق قلوبهم بأن مصر لا تزال وطنهم ، لا مجرد وطنهم الحانى عليهم برخيص العواطف التي لا تكلف شيئاً . ولكن وطنهم الذى يملكون ترابه كما نملكه نحن المواطنين المقيمين . وأنا لست مع المغالين الذين يقولون « ما يبقى على المداود غير شر البقر » فهو لا يذهبون إلى التقىض الآخر في تمجيد الحياة خارج حدودنا ، وإنما أقول إن أبناءنا المقيمين في الخارج لا هم « خونة » ولا هم « خير البشر » . وإنما هم مجرد مصريين طموحين بالفعل أو بالوهم إلى حياة أفضل ، أو مصريين قلقين تولد عندهم شعور بالاضطهاد أو الاحتياط بالفعل أو بالوهم . ولو أردت أن « تفرز » فصائل الصادقين لخصبت لكل سيرة ملفتاً جسيماً تتوه في أوله ومنتها . وبين هؤلاء وأولئك اندست النسبة المألفة من المغامرين ومن الشواذ من تجدهم في أى مجتمع من المجتمعات فلننقل لهم أبناءنا يبحثون عن حظهم في الحياة ولنتم لهم التوفيق أيها يذهبون .

المهم في كل هذا أنه لا ينبغي أن نسمع مصرياً في الخارج يقول لك :

عمرى الآن ٤٤ سنة . تخرجت بتفوق في كلية الهندسة جامعة القاهرة عام كذا وأردت أن أتم دراسة الدكتوراه في المنسا فرفض طلبي في البعثة ورفض طلبي في أن أتعلم على نفقتي ، فتوسلت إلى السفر المؤقت إلى فيينا وأنا في الخامسة والعشرين ، وهناك أتممت علومي بامتياز بعد أربع سنوات فصلات في أثناءها من عمل في مصر ، فعيتني جامعة فيينا مدرساً بها سنوات . ثم عينت أستاذًا بجامعة كذا في الولايات المتحدة سنوات ، ثم عينت مديرًا لمصانع كيميائية بمدينة كذا سنوات ، ثم عرض على كرسى الكيمياء في جامعة كذا بمرتب ٣٠ ألف دولار سنويًا ، وميزانية أبحاث مشابهة ، فقبلت العرض برغم أن دخلي من إدارة المصانع كان يربو على دخلي من الجامعات فأنا أحب التدريس . وفي كل مرة كنت أطلب تصريحًا بالعمل في الخارج فلا يأتي رد . وأصحاب العروض طبعًا لا يستطيعون انتظار الحكومة المصرية . . . وكلما أردت تجديد جواز سفري ، قالوا : لا بد من شهادة المعاملة ، أو قالوا لا بد من إذن عمل . لكم أحب أن أزور مصر وأهلى . وهنا تقول : وماذا يمنعك ؟ فيجيب : وهل تضمن لي تأشيرة الخروج ؟ إن جامعتي لا تستطيع أن تنتظر . وحاولت أن أشرح له أن الأمور قد تحسنت من هذه الناحية . وبدا عليه الاقتناع ، غالباً ليس بسبب كلامي ، ولكن بسبب ما يقرؤه في الصحف الأمريكية عن تغير المناخ في مصر .

وتسمع آخر يقول لك : أنت تعرفي وتعرف زوجي . نحن الآن

في الخمسين .. كنا من أوائل خريجي كلية الآداب في أثناء الحرب . أكالوا حتى وحقها في البعثة نحو ١٥ سنة ب الرغم أننا انتهينا إلى التدريس في جامعة عين شمس ، وأخيراً حصل كل منا على إجازة دراسية في أمريكا وكنا في نفس الجامعة فتزوجنا . وأنت تعرف مرتبات مصر الضئيلة . كانت تحول لنا فلا تكفي ، واضطررنا للتدريس في المدارس الثانوية الأمريكية لنكمل دخلنا فتعطلنا سنتين ، ثم انتقلنا إلى إنجلترا لأنها أرخص وفيها تعطلنا سنة أخرى . وطلبت جامعة عين شمس منا العودة فوراً وكل منا على بعد ستة أشهر من الدكتوراه ، فلما لم ننفذ الأمر وطلبنا المدى فصلنا معـاً . وقد حصل كل منا على الدكتوراه واستغلنا في إنجلترا . ومنذ فصلنا وتجديـد جواز سفرنا أصبح مشكلة . طلبنا إذن عمل فلم يصل إلينا رد . ماذا نفعل ؟ هل نتصور جوعاً في انتظار رد الحكومة ؟ طبعاً لا . لأنهم يطالبونـا بـرد ما أنفق علينا ، ولكنـهم نـسـوا أن لـكـلـ منـاـ مـعاـشاـ مـسـتـحـقاـ عن خـدـمةـ عـشـرينـ سنـةـ . وـنـخـنـ عـلـىـ استـعـدـادـ لـإـجـرـاءـ مـقـاصـةـ وـتـقـسـيـطـ مـاـ يـتـبـقـ عـلـيـنـاـ دـيـنـاـ لـلـحـكـوـمـةـ . مـاـذـاـ يـرـفـضـونـ تـجـدـيـدـ جـواـزـ سـفـرـنـاـ ؟ـ مـاـذـاـ جـنـيـنـاـ ؟ـ لـقـدـ دـفـعـوـنـاـ دـفـعاـ إـلـىـ طـلـبـ الـجـنـسـيـةـ الـبـرـيـطـانـيـةـ . لـكـمـ نـتـمـنـىـ أـنـ نـزـورـ مـصـرـ ،ـ وـلـكـنـاـ نـخـشـىـ أـنـ نـدـخـلـ فـلاـ نـخـرـجـ

صورة رهيبة عن مصر عند المصريين المقيمين في الخارج ، ولن يفلح في إزالتها إلا صدور قوانين وقرارات رسمية على أعلى مستوى لتعيد الطهارة إلى النفوس . إن بعضهم - ربما أكثرهم - يعرف فعلاً أن هذه التخوفات لم يعاد لها ما يسوغها . فإنـواـنـهمـ فيـ ظـرـوفـ مشـابـهـةـ

يدخاون الآن وينخرجون فلا يتعرض لهم أحد ، ولكنهم يحسون أن كل هذا التغيير في المناخ مجرد تغير في العقلية والإجراءات الإدارية وليس محفزاً بالقرارات والقوانين . بعبارة أخرى هي ساحة فردية مقتربة بظرف فترة تاريخية معينة ، وقد تنقلب الساحة إلى جحemaة بين يوم وليلة . لأنهم باختصار يأملون في تنظيم لأحوال المفتر بين له قوة الدساتير ، وليس رهينا بالقرارات الإدارية .

وهذا ما ينبغي أن نسعى لتحقيقه . أن يجعل المصريين المقيمين في الخارج يتوجواون في أرض مصر محررين من الخوف كما يتوجواون في أي أرض غريبة

أعرف أستاذًا مصريًا في جامعة أمريكية يقضى إجازته السنوية كل عام مع أسرته في قبرص أو في لبنان أو في إيطاليا ، يحوم حول مصر من بعيد دون أن يجرؤ على الدخول اتقاء للمجازفة . وأعرف آخرين قالوا إلى في حزن عميق : لن نموت في بلاد الغربة . إننا عائدون . وعندما نقترب من سن الشيخوخة سوف نرجع إلى حيث جئنا نموت على ضفاف النيل العظيم .

لم يكن هذا ما يفعله الإنجليز أو الفرنسي حين كان يقضى عامته حياته موظفاً أو تاجراً أو صانعاً في مصر والسودان أو في محاهل إفريقيا ، وبعد أن تنتهي حياته العملية كان يتقادم في بلاده حيث تنتظره داره الريفية ورصيده في البنك وذكريات حياته الحافلة بكل الألوان ؟ ولماذا لا نهدى منذ الآن لعودة المستوطن المصري في نائي البلاد بعد أن يستوفي أجل

جهاده من أجل الرزق إلى صدر أمه الحنون التي تحمل همه في حضوره وفي غربته وتبعه بعيون ملهمة في الخلل والترحال ؟ فإن شاء بعد كل هذا أن يتخلد لنفسه داراً غير داره وقوماً غير قومه مآباً ، جاده الغيث فإذا الغيث همى أيها دبت قدماه أو ارتاح رميجه في رحاب الله الواسعة .



الفصل التاسع

المسألة المصرية

عفواً إذا تكلمت في السياسة ولكنك شئ لا مفر منه بعد رحاتي
الأميريكية .

كان الموضوع الآخر الذي اهتممت به في أثناء زيارتي لأمريكا بعد دراسة أحوال المهاجرين المصريين ، هو دراسة آراء الأميركيين في الصراع المصري الإسرائيلي بصفة خاصة ، وفي الصراع العربي الإسرائيلي بصفة عامة . والحق أنني كنت أينما ذهبت في أوروبا ثم في أمريكا أجده هذا الموضوع يطرح نفسه من تلقاء نفسه .

ولم يكن في الكلام أية درجة من درجات الغموض هنا أو هناك . كانوا في فرنسا وأضحيين ، وكانوا في إنجلترا وأضحيين . كذلك كانوا في أمريكا أوضح من الوضوح . وقد سبب لي هذا الوضوح حيرة حقيقية لأن بعض ما شاع بيننا في مصر من أعمال متهائلة حول إمكانيات التوصل إلى حل سلمي مع العدو الإسرائيلي لا يمكن استخلاصه بتاتا مما سمعت من آراء في أمريكا وفي غير أمريكا . فمن أين جاء اللبس إذن ؟

هناك تفسيران : إما أن هناك مشكلة لا تفahم لغوياً حقيقياً بيننا وبين الأميركيين : يقولون شيئاً فتفهمون شيئاً آخر لا خلاف عاداتنا عن

عاداتهم في التعبير ، ولما أن الأميركيين ، حينما كانوا يخاطبوننا في أمر التسوية السلمية كانوا يستخدمون لغة مبهجة ملفوفة تحتمل أكثر من تحرير ، لغرض في نفس يعقوب أو مجرد ترك باب الحوار نصف مفتوح .

وللقوم هناك عادات في التعبير تحتاج إلى معرفة خاصة ، لأنها ولهمة تمرس حضارى معقد عبر مئات السنين . فهم إذا أرادوا مثلاً أن يرفضوا لك طلب استخدام بطريقة مهذبة فربما قالوا : إن مؤهلاتك أعلى من الوظيفة المطلوبة ، والمقصود طبعاً في بطن المتكلم أنك ستكون — او استخدم مناك — موظفاً قليلاً متذمراً ساخطاً مشاغباً لا يشتعل بأداء عمله بقدر ما يشتعل بالمطالبة بتصحيح وضعه و «المريسة» على أقرانه ، فتفهم من الكلام أنهم يعظموشك ، وهم في حقيقة الأمر يغلقون الباب في وجهك وهكذا .. ولكن هناك أيضاً احتمالاً آخر قوياً ، وهو أن أمريكياً منذ البداية ضالعة في الخطط الإسرائيلي بحيث أنها سخرت نفوذها الشخصي لوقف إطلاق النار بقصد تدجين إسرائيل بالسلاح استعداداً لحولته قادمة ، أي أنها تكرر نفس لعبة هدنة ١٩٤٩ .

كذلك هناك احتمال ثالث قوى لا يمكن استبعاده ببساطة وهو أن أمريكياً — كما يقال — أمريكيتان : أمريكا البنتاجون والسي آي إيه ، وهى التى تملك القوة الحقيقية في توجيه السياسة الأمريكية والعمل الأميركي ، وأمريكا وزارة الخارجية ، وهى الطرف الأضعف الذى لا يملك إلا حسن النية . وهذا هو الطرف الذى سمح لنفسه أن يتفاوض معنا ويوجهنا

بأن المحاول السالحة ممكنة وشيكة ، دون أن تكون له الفاعلية الكافية لترجمة وساطته من فكر إلى فعل . فنحن إذن فريسة سياسة وموظفين لا يملكون من أمرهم شيئاً أو يلعبون بقضيتنا في صراعهم مع المؤسسة العسكرية الأمريكية للتأثير على قرارات البيت الأبيض .

وقد قرأت في أثناء وجودي في أمريكا مقالاً هاماً للمعاق الصحفى المعروف جوزيف كرافت نشرته مجلة النيويورك تايمز الأسبوعية صور فيه ذلك الصراع بين خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الأمريكية وبين القوى الحقيقية الموجهة لقرارات البيت الأبيض ، ومنه نستخلص أن هؤلاء الخبراء ، وهم نحو مائى خبير ، لا حول لهم ولا قوة إزاء القوى الحقيقية التي تؤثر في صياغة قرارات رئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وفي المقال استهانة شديدة ، ليس فقط بفاعلية هؤلاء الخبراء وإنما أيضاً بقدراتهم وبجاذبيتهم بل بصلاحيتهم لتحمل المسؤوليات التي يتقلدونها . وحين نشر هذا المقال كان له دوى كبير بين كافة المهتمين بشئون الشرق الأوسط في أمريكا ، وقد قوبلاً بامتناع شديد من أكثر « أصدقاء العرب الأمريكيين » ولا سيما كبار الخبراء الذين تربطهم بالشرق الأوسط صلات عمل أو مصالح . ولم أجد تفسيراً للغضب العام على هذا المقال إلا أنه « فقع الدمل » الحقيقى في سياسة أمريكا حيال مشكلات الشرق الأوسط . فلننقل إنه مقال كتبه رجل يهون من شأن أصدقاء العرب في أمريكا ، ولكن ربما كان من النافع أن نستمع حتى إلى كلام الأعداء .

وخلال صحة القول أني وجدت في فرنسا ، ولا سيما بين المحافظين ؛ ميلاً قوياً إلى تفهم وجهة نظر المصريين والعرب بعامة ، وبتبنيّها في إطار إمكانيات فرنسا المحدودة ، ميلاً نابعاً من الديجولية القائمة على مبدأ استقلال إرادة فرنسا داخل المعسكر الغربي وعلى استرداد فرنسا لهيبتها ومصالحها في البحر المتوسط بالذات وفي العالم العربي بصفة خاصة . أما الاشتراكيون الفرنسيون فهم أقرب إلى تفهم وجهة نظر إسرائيل ولكن في غير نطاعة أو رفض تام للحوار مع العرب . وقد نصحني فرنسي من أهل اليدين أن نحاول الإكثار من الحوار مع اليسار الفرنسي المضلل بالشعارات ، مع ميتران وكل ما هو على يسار ميتران ، لأن كسب اليسار الفرنسي سيقتلل من أشیاع إسرائيل في فرنسا . وقد تركت المظاهرة التي قام بها يهود فرنسا احتيجاجاً على زيارة بريجنيف لباريس في أكتوبر ١٩٧١ استياء عاماً بين الفرنسيين ، وببدأ بعض المثقفين الفرنسيين حتى من أهل اليسار ، يرتابون بالفعل في ولاء يهود فرنسا لنفسها وتقديم تشيعهم لإسرائيل على حرصهم على مصالح فرنسا التي يخدمها التقارب الفرنسي السوفيتي . وقد ذكر لي مسئول فرنسي من كبار خبراء الشرق الأوسط في وزارة الخارجية الفرنسية أن فرنسا قد استنفدت في المحادثات الرباعية كل الوسائل لإقناع أمريكا بالضغط على إسرائيل لتنفيذ قرار الأمم المتحدة ولكن دون جدوى . وقد كان الطابع العام للمحادثات الرباعية وقف فرنسا وإنجلترا والاتحاد السوفيتي في جانب ووقف أمريكا بمفردها في جانب ، ولا كانت

الدول الثلاث لا تملك غير الإقناع سبيلاً ، فقد أحبطت أمريكا بمفردها كل المداولات في المحادثات الرباعية ، ولم تبق إلا وسائل الضغط على أمريكا وهو ما لا تملكه الدول الثلاث .

هذا الموقف نفسه هو موقف إنجلترا مع شيء من التخفيف ، وقد اعترف لي صديق من كبار المسؤولين عن المنطقة العربية في وزارة الخارجية البريطانية بأن البريطانيين قد حاولوا ما استطاعوا إقناع الأميركيكان بوجهة نظرنا ولكن دون جدوى ، وبأنهم لا يمكنون «الضغط» لأن بريطانيا الآن أضعف من أن تضغط على أمريكا . ربما . ولكن يخيل إلى أن المصالح الأوروبية التي تبلورت في الضمير الأوروبي الذي تجلى أولاً في قرار الأمم المتحدة في نوفمبر ١٩٦٧ ، ثم تجلى في تجديد هذا القرار منذ شهرين في ديسمبر ١٩٧١ خليقة أو وجدت من ينميها : أن تشكل ضغطاً حقيقياً على الإرادة الأمريكية . فالدول المتقدمة لا تتكلم بعواطفها ولكن تتكلم بمصالحها . وما يسمونه القدرة أو عدم القدرة على الضغط هو في نهاية الأمر موازنة بين مصلحتين . ويتحيل إلى أننا — ريثما نستعد للقتال استعدادنا الحاسم — ربما وجدنا خيراً في البحث عن المصالحة «المشروعة» المشتركة بيننا وبين أوربا وغيرها من بلاد العالم ننميها ونحدها لعلها تؤثر في موازين القوى . بعبارة أخرى : العمل على «عزل» أمريكا بعد أن يئسنا من «تحييد» أمريكا .

أما في أمريكا نفسها فالرأي العام قد سمعته أجهزة الإعلام الأمريكية وموافق الساسة الأميركيكان ومراكز القوى الأمريكية ، فالامر

قد تتجاوز أن يكون مجرد سيطرة يهود أمريكا أو الصهيونية العالمية على الصحف والإذاعة والتليفزيون كما يحلو للبعض أن يتوهם ويروهم الغير . وأنا لا أحاول بهذا أن أقلل من فاعلية الشاطط الصهيوني خاصة واليهودي عامة في أمريكا ، ولكنني أقول إن المبالغة في التهويل من شأنها خرافية سياسية نشرها وينشرها أصدقاء أمريكا في كل مكان ولا سيما بيننا ، ليصوروا للناس أن الأمريكيان قوم أطهار أبرار ، وأن كل شططهم ضدنا أو في مصلحة إسرائيل مصدره هذه الحفنة من الملاعين اليهود الذين يلعبون بمقدرات مائة مليون أمريكي ، وهم لا يتتجاوزون خمسة في المائة من مجموع السكان . وكل ما نستطيع أن نقوله في هذا المجال هو أن يهود أمريكا هم أحد «مكونات» هذه الصورة الحسيمة المعقدة لا أكثر ولا أقل . ومن يتأمل الأمر جيداً يجد أن قوتهم ربما كانت نتيجة وليس مجرد سبب لوقف أمريكا من قضايا الشرق الأوسط ومن تكوينه الجيوسياسي . وفي أمريكا عتاة من أعلى عتاة الطبقة الحاكمة المحافظة ومراكز القوى المحافظة من فصائل «الواسب» وهي الحروف الأولى من «البيض ، الأنحاوسكسون ، البروتستانت» من اشتهروا بعدهم للسامية ومع ذلك فهم يراهنون بقمعيّتهم على الوجود الإسرائيلي في المنطقة العربية ، لأنهم يرون في هذا دعماً للوجود الأمريكي وللقيم الأمريكية وللمصالح الأمريكية بطريق مباشر وغير مباشر .

مئات من الأمريكيين التقيت بهم عن معرفة وغير معرفة ، يحدّونك عن الصراع العربي الإسرائيلي ، فتجدهم أحد رجلين : كثرة غالبة

منحازة إلى إسرائيل في غير لبس ، وقلة ضئيلة ترى الأمور من زاويتنا ولكنها تصارحك القول : لا تنتظروا عوناً من الولايات المتحدة الأمريكية لحل مشكلتكم مع إسرائيل .

وقد لا حظت أن أكثر من جادلت من الأمريكيين ^{قد رکز نقده} لنا في نقطتين : الأولى هي ما يسمونه الوجود السوفيتي في مصر ، وهذا وحده في نظرهم كاف لأن تنجاز أمريكا لإسرائيل ، والثانية هي فكرتهم الثابتة عن العرب أنهم يتكلمون الآن كالحملان الوديعة لأنهم مهزومون ، ولكن إن وجدوا فرصة عاد كل شيء سيرته الأولى وتجمهروا كالذئاب الكاسرة للوثوب على إسرائيل للقضاء عليهم .

وعبيداً تحاول أن تثبت للأمريكي أن الوجود السوفيتي لا يتجاوز إقامة بعض الخبراء الروس بيتنا ببلادنا وأن انسحاب إسرائيل من سيناء سوف ينهي حاجتنا إلى هذه الخبرة الروسية . كذلك عبيداً تحاول أن تقنع الأمريكي أن التجارب المريدة قد غيرت من عقلية العرب ، بل أثبتت أنهم أحوج من إسرائيل إلى ما يضمن لهم حدود بلا دهم . فكرة عنا رسخت في أذهان الأمريكيين لا سبيل إلى محوها . وعلى كل فهناك درجة من درجات الشرف في هذه المصارحة الأمريكية ، وهي خير من الخليل واللطف والدوران .

أما بين المسؤولين وأشباه المسؤولين ، فهم لا يفتتون يرددون أمامك أن أمريكا لا تملك الضغط على إسرائيل ، وهو كلام مهذب في الرفض مفهومه أن أمريكا لا ت يريد الضغط على إسرائيل . وهو في نظري أدب

حال من الحياة لأن فيه امتهاناً لعقل الناس . فنـ ذـاـ الـذـىـ يـصـدـقـ أنـ أمـريـكـاـ لاـ تـمـلـكـ الضـغـطـ عـلـىـ إـسـرـائـيلـ ؟ـ الـكـلـ يـعـلـمـ أنـ أمـريـكـاـ فـيـ الـعـدـوـانـ الـثـلـاثـيـ عـامـ ١٩٥٦ـ لـمـ تـكـنـ تـمـلـكـ الضـغـطـ عـلـىـ إـسـرـائـيلـ وـحـدـهـ وـإـنـماـ كـانـتـ تـمـلـكـ الضـغـطـ عـلـىـ بـرـيـطـانـيـاـ وـفـرـنـسـاـ كـمـلـكـاـ .ـ وـهـىـ الـتـىـ أـرـسـمـتـ الـجـيـوشـ الـثـلـاثـةـ عـلـىـ الـانـسـحـابـ مـنـ مـصـرـ ،ـ عـنـدـمـاـ تـخـلـتـ عـنـ أـصـدـقـاـهـ الـأـورـبـيـينـ قـبـلـ الـإـنـذـارـ السـوـفـيـيـ وـبـعـدـهـ .ـ وـهـىـ الـتـىـ تـعـاـونـتـ مـعـ الـاتـحـادـ السـوـفـيـيـ يـوـمـئـدـ فـيـ تـعـبـيـةـ دـوـلـ الـعـالـمـ فـيـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدـةـ لـتـأـيـدـ قـرـارـ الـانـسـحـابـ ،ـ وـاـوـ أـنـهـ شـاعـتـ فـيـ حـرـبـ ١٩٦٧ـ أـنـ تـرـغـمـ إـسـرـائـيلـ عـلـىـ الـانـسـحـابـ مـلـاـ كـلـفـهـاـ ذـلـكـ أـكـثـرـ مـنـ «ـ زـغـرـةـ »ـ .ـ

ولـكـنـهاـ كـانـتـ فـيـ سـنـةـ ١٩٥٦ـ لـمـ تـرـمـ بـعـدـ طـوبـةـ عـبـدـ النـاصـرـ ،ـ بـلـ كـانـتـ تـأـمـلـ يـوـمـئـدـ تـبـعـاـ لـخـطـطـهـاـ الـعـامـ أـنـ تـقـتـلـعـ الـوـجـودـ الـبـرـيـطـانـيـ مـنـ مـصـرـ وـالـفـرـنـسـيـ مـنـ الـبـرـزـائـرـ وـالـبـرـيـطـانـيـ وـالـفـرـنـسـيـ مـنـ كـلـ أـرـجـاءـ الـعـالـمـ الـعـرـبـيـ لـتـحـلـ هـىـ مـحـلـ الـاسـتـعـمـارـ الـقـدـيمـ .ـ فـلـمـاـ تـكـشـفـ لـهـ أـنـ هـؤـلـاءـ الـمـصـرـيـنـ لـاـ يـمـكـنـ الـاعـتمـادـ عـلـيـهـمـ فـيـ شـىـءـ يـنـفعـ أـمـريـكـاـ ،ـ وـأـنـ مـصـرـ الـمـشـاغـبـةـ تـقـودـ الـمـجـمـوـعـةـ الـعـرـبـيـةـ لـتـصـفـيـةـ الـاسـتـعـمـارـيـنـ الـقـدـيمـ وـالـجـدـيدـ عـلـىـ حدـ سـوـاءـ ،ـ وـبـدـأـتـ بـالـفـعـلـ تـنـادـيـ بـأـنـ بـتـرـوـلـ الـعـربـ لـلـعـربـ ،ـ قـرـرتـ أـمـريـكـاـ نـهـائـيـاـ الـلـعـبـ بـالـوـرـقـةـ إـسـرـائـيلـيـةـ حـتـىـ اـقـبـلـ أـنـ يـكـونـ لـلـسـوـفـيـيـتـ «ـ وـجـودـ »ـ فـيـ مـصـرـ كـمـاـ تـرـعـمـ الـآنـ .ـ وـسـاعـدـنـاـهـاـ نـحـنـ بـكـثـرـةـ الصـيـاحـ وـالـضـجـيجـ وـالـرـقصـ حـولـ الـنـارـ وـإـطـلاـقـ الـأـسـهـمـ النـارـيـةـ وـالـأـعـيـرـةـ الـفـشـنـكـ فـيـ الـهـوـاءـ .ـ

وـعـلـىـ مـائـدـةـ فـيـ وـاـشـنـطـوـنـ اـجـتـمـعـنـاـ ،ـ أـحـمدـ بـهـاءـ الدـينـ وـأـنـاـ ،ـ وـنـفـرـ مـنـ

أصدقاء العرب البارزين من كبار الأميركيين كان بينهم قائم سابق بأعمال أمريكا في مصر ورجلان من كبار رجال الأعمال . قال السياسي الأميركي : أنا لا أرى حلاً وشيكاً للمسألة المصرية الإسرائيلية ، لم يبق أمام مصر إلا أن تبحث عن القضايا المشتركة المقنعة للرأي العام العالمي فتجمع الناس حولها . وكان كلامه مقلقاً لأنه كان يتمنى باستمرار الكلام في أمر تنفيذ قرار الأمم المتحدة أو انسحاب إسرائيل من سيناء ، وكأنما الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية لم يعد موضوعاً للبحث . فلما واجهته بسؤاله : نريد أمثلة على هذه القضايا التي يمكن أن تجمع حولها الرأي العام العالمي ، أجاب : خذ مثلاً موضوع تدويل القدس ؟ هذه قضية او ركزت مصر عليها لامكان أن تجمع حولها الرأي العام العالمي المسيحي والإسلامي معاً . فاضطرني أضطراراً إلى أن أقول له : اسمح لي أن أقول لك بوضعي مسيحياً مصرياً أن جبل سيناء يعني تماماً كما يعني القبر المقدس .

والمهم في كل هذا هو أنه حتى أصدقاؤنا في أمريكا قد غدروا لا يرون حلاً للانسحاب الإسرائيلي من سيناء ، لأنما الأمم المتحدة وقراراتها لا وجود لها ، لأنهم يعلمون أن أمريكا تؤيد بقاء «الوضع الراهن» في مصر والمنطقة العربية كلها . وكل ما ينصحنا به هؤلاء الأصدقاء هو محاولة إجراء مزيد من الحوار بل التعاون مع بريطانيا وفرنسا وبقية دول غرب أوروبا لعل هذا يؤثر في التوازن الدولي لمصلحتنا . . والمفهوم ضيقاً ، مادام هذا الكلام صادراً عن الأميركيين ، أن منطقه يقول : لقد

اعتمدتم على الروس أكثر من اللازم ، وهذا سر تعقد أزمتكم من وجهة نظر أمريكا . حاولوا أن تعتمدوا على الإنجليز والفرنسيين فاستغناوا بذلك عن السوفيت ، فهذا من وجهة نظر أمريكا أخف الضرر ، وربما كان إخراجها مع أصدقاءها أدعى إلى اطمئنانها . . من إخراجها مع أعدائهم .

وأنا أكتب هذا التقرير عن انتباعاتي عن الرأي الأمريكي العام حول الصراع المصري الإسرائيلي ليعلم من لا يعلم - بحسب ما رأيت وسمعت - أن انتظار أي تدخل أمريكي لمصلحتنا مضيعة للوقت وخداع للنفس ، بل لقد سمعت في أمريكا من يقول : وكيف تنتظرون منا أن نساعد على فتح قناة السويس ؟ ألكي يتجلو الأسطول الروسي في البحر الأحمر كما يشاء وينفذ منه إلى المحيط الهندي ؟

وهذا التقرير لا أكتبه للحكومة المصرية ، فلست أشك في أن للحكومة المصرية خبراء ها الأكفاء الشرفاء في الخارج من يحسنون تقدير الأمور ويصدرون القول لحكومتهم ، ولكنني أكتبه للرأي العام المصري ، ولابناء الطبقات المتوسطة بيننا بصفة خاصة لأنهم من فرط عدائهم الشيوعية بالغوا في التفاؤل بالحل السلمي لمشكلة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية وأسرفوا في الثقة بنوايا أمريكا أو بإمكانياتها . حتى بعد أن استبان للمخاسن والعام استحالة الحل السلمي ذهبوا يشككون في السلاح الروسي فيه وأن في قوة الفانتوم ويهونون من قوة الميوج ، ويشككون في قدرات الشعب المصري على تحرير أرضه بداعوى تحالفه الشديد و حاجته إلى أجيال للأخذ

بأسباب الحياة العصرية ، برغم أن هذا التخلف لم يمنع شعب فيتنام من ضرب أروع الأمثال ، واتخذوا من فلسفة بناء الدولة العصرية السليمة حججة زائفة للهروب من المواجهة الكبرى والتضحيّة في سبيل الوطن . فالقصور فيهم أكثر مما هو في الشعب المصري ، لأن في مصر من أبناء هذه الطبقات المتوسطة ما يربو عدداً على سكان إسرائيل كلها ، ومن لا يقل « عصرية » عنهم . ونحن لسنا بحاجة إلى ثلاثة وثلاثين مليون مدافع لنجد ثلاثة ملايين مختصّب لو أن البروجوازية المصرية كانت حقاً على استعداد لأداء واجبه الوطني . بل هم يشكّون في أهلية الفلاحين والعمال لحمل السلاح ولتحمل مسؤولية الدفاع الوطني الشعبي إذا وقعت الواقعة خوفاً من القلاقل الطبقية والفردية . وهكذا يعيد التاريخ نفسه ، فقد عرفت مصر حقباً أيام الاحتلال البريطاني سقط فيها الوطن بين سادة البلاد الذين جعلوا الكفاح الوطني حتى ترقى الأمة وتحضر وبين زعماء الرعاع الذين لم يدركوا أنه لا خير في كفاح وطني لا يقود فيه الجماهير عقل الأمة المستنير . ولم ينقذ مصر في ثورة ١٩١٩ إلا وحدة القيادة والقاعدة حيث كان زعماء البلاد ومنظفوها وطبقاتها القادرة تضرب بجموع الشعب المثل الأعلى في الرضا بالنفي والتشرييد والاعتقال والتضحيّة بالنفس والمال في سبيل الوطن . وبهذا كانت الطبقات الممتازة بمثابة طلائع للشعب المصري تتقدّمه في أداء واجبه الوطني فاستحقت بذلك مقامها الممتاز . ولست أحسب أن إسرائيل اليوم أشدّ بأساً أو أكثر رقياً من الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغرب عن أملاكها ، ولست

أحسب أن الشعب المصرياليومأشد تحفلاً مما كان منذ خمسين سنة . فالأمر إذن رهين في المقام الأول بإيمان كافة أبناء الأمة بجميل طبقاتها ; بمحاسورتها قبل معلمها ، بقداسة تراب مصر وبقداسة الفداء لتطهير هذه الأرض المباركة من كل قدم دخيلة تدنّسها . وتكليف الجهد الوطني أولى بها متربو هذا الوادي السعيد الشقى من بناته الذين لم يروا منه إلا ثمار العرق العجفاء وهي كسرة الخبز وأسمال الفقراء . لن يحرر مصر إلا بنوها ، ول يجعل كل بقدر ما قد أخذ : هذه بعض سنن الشرف والحياة .



الباب الثالث

رحلتي الأوروبية

الفصل العاشر

مداولات ثقافية

جاءتني دعوة من اليونسكو لحضور حلقة بحث أقامها اليونسكو في باريس يومي ٢٢ و ٢٣ فبراير ١٩٧٢ للنظر في إصدار مجلة ثقافية جديدة ربع سنوية تحمل اسم «الثقافات» ومن الوثائق المرفقة عرفت أن منظمة اليونسكو كانت تصدر كلخمس عشرة سنة مجلة متخصصة في التاريخ باسم «مجلة التاريخ العالمي»، يكتبها المؤرخون للمؤرخين، وأن الجمعية العامة لليونسكو قد قررت أن تتحجب هذه المجلة التاريخية وأن تحل محلها مجلة جديدة يكون اسمها «الثقافات» وتكون «جامعة لكل التخصصات»، أي يكون فيها للتاريخ نصيب، وللفلسفة نصيب، وللأدب نصيب، وللفن نصيب، وللجتماع نصيب، وللعلوم نصيب، لا من حيث هي علوم ولكن من حيث أثرها في الإنسان وفي المجتمع الإنساني.

وقد جلسنا أربع جلسات لنصل إلى قرارات في هذا الموضوع المطروح للبحث. ووجدت كل شيء مرتبًا على عادة أهل اليونسكو. وجدتني بين سبعة آخرين من الخبراء المستشارين في شئون التحرير، هم الكاتب الهندي المعروف ملك راج أناند عن الهند، والأستاذة لورين باريترز بجامعة نيويورك عن أمريكا الشمالية، وروديريخيز منيجال عن أمريكا

اللاتينية . ومالكوم برادبرى بجامعة إيسست أنجلترا عن بريطانيا ، وروجيه كاروا عضو الأكاديمى فرانسيز عن فرنسا والشيخ انتاديو ب بجامعة داكار عن أفريقيا السوداء ، وجاستريوفا بأكاديمية موسكو عن الاتحاد السوفيتى . أما سكرتارية اليونسكو فكان يمثلها المديرون هوجارت (الإنجليزى) وبامات (الأفغاني) ومتر (السويسرى) ، وكان هناك مراقبان عن مجالس اليونسكو : فريدمان ودورميسون . سلطة روسية تمثل مختلف الجمسيات والثقافات على عادة أهل اليونسكو وغيرها من المنظمات الدولية التى يراعى فيها دائماً أن تكون اجتماعاتها ممثلة لكل الشعوب ما أمكن ذلك . وبهذا فهمت أنى مدعاو لتمثيل خبراء التحرير فى العالم العربى .

وقد كان أول ما استرعى انتباھي هو ما تكبدهه منظمة اليونسكو من نفقات باهضة بل جمع كل هذا الحشد من الخبراء لمدة يومين فقط ، فأكثر الحاضرين جاءوا من أطراف الدنيا لهذا الهدف المحدد بالذات ، ولا أحسب أن اليونسكو أنفقت على سفر كل هؤلاء الضيوف وإقامتهم أقل من ثلاثة آلاف جنيه . وقد كان في وسع كبار موظفي اليونسكو أن ينفردوا بالرأى ويوفروا كل هذا المال ، ولكن هؤلاء القوم يدركون بما ربوا عليه من منهج علمى أن وضع الأساس هو كل شيء ، وأنه لا خاب من استشار ولا سيما في الخطوات الأولى التي يتوقف عليها كل شيء ، فالتشاور هو العاصم من الارتجال . كذلك استرعى نظرى أن منظمة اليونسكو قد تعمدت أن تكون هيئة مستشارتها كاملة من المفكرين « غير الرسميين » لأنها تعرف أن المثقفين « الرسميين » مقيدون بأفكار حكوماتهم وبنوایاها .

ومنظمة اليونسكو التي ت يريد ان تواجه مثقفى العالم بهذه المجلة الجديدة تعرف أن « الموظفين » مهمما علا قدرهم هم آخر من يستفدون في أمر مخاطبة المثقفين .

وقد كانت أهم المشكلات التي واجهتها لجنة المستشارين هذه أربعاً : [أولاً : مجال مجلة « الثقافات » . ثانياً : أهدافها ، وثالثاً محتوياتها . ورابعاً : سياسة تحريرها .

وبعد مداولات طويلة انتهى الرأى إلى أن يحدد مجال المجلة على الوجه الآتى : « الثقافات » مجلة دولية مشتركة بين كل التخصصات ، مخصصة للثقافة المعاصرة بأشمل معنى ، وهي تركز على المدخل المقارن وتنسى منهج الدراسات الثقافية » .

أما أهداف المجلة فقد حددت على النحو التالي : « أن تخاطب الجمهور المتخصص وجمهور المثقفين بصفة عامة وأن تكون حلقة ترابط بين الهيئات المعنية والمتخصصين المعنيين بالدراسات الثقافية وبالسياسة الثقافية وبين غير المتخصصين المعنيين بمختلف وجوه الثقافة » ، وقد عد الإصرار على ذكر « المتخصصين » كافياً لتحديد المستوى الرفيع المنشود في نوعية المقالات والدراسات حتى لا يتصور أحد أنها يمكن أن تتسع للخفة الصحفية المأثورة عن كثير من المجالات .

وأما محتويات المجلة الجديدة فقد تحددت بالآتى :

(١) معالجة الحياة الثقافية بكل ظواهرها مع الاهتمام الخاص بتدعيم الدراسات الثقافية المعاصرة والعلاقات الثقافية الدولية وبالتشمية الثقافية

وبرسم السياسات الثقافية ، ومع الاهتمام الواجب بالحياة الثقافية على المستويات القومية والإقليمية والدولية .

(٢) نشر التحقيقات والأخبار المتصلة بالأحداث والاتجاهات والتطورات الثقافية المهمة في العالم كله .

(٣) الإكثار من إصدار الأعداد الخاصة التي تتناول الموضوع الواحد ، ويراعى فيها أن تتسع للتخصصات المشتركة وأن تقوم على المدخل المقارن على أوسع مدى ممكن ..

(٤) لا يجوز استخدام المجلة لنشر التقارير الرسمية ..

أما بالنسبة لسياسة التحرير فقد تحددت كما يلى : « أكدت لجنة المستشارين أن استقلال تحرير المجلة أمر جوهري ، وأوصت بأن يرجع رئيس التحرير مباشرة إلى الم هيئات وإلى أكفاء المختصين في العالم » .

هذه كانت أهم قرارات لجنة المستشارين أو توصياتها وهي كما ترى مغلفة كالعادة بلغة المنظمات الدولية المألوفة الجافة الباردة المنفرة ، ومع ذلك فهي تجسد مداولات كان بعضها عنيفاً ومتلاطماً . وكانت القاذف والمتفجرات تتواتي ، ولكن بأسلوب متمدن . خذ مثلاً هذا الرأى الذي سقطه شخصياً في اجتماع لجنة المستشارين :

« أنا أسف لأن الجمعية العامة لليونسكو كانت قد اتخذت قرارها باحتياج (مجلة التاريخ العالمي) ، فهذا كانت مجلة تاريخية متخصصة يكتبها المختصون في التاريخ للمختصين في التاريخ ، كان لها جمهورها المؤكدة برغم أنه جمهور محدود . فهي بذلك

كانت مجلة ناجحة لأنها كانت تؤدي الرسالة التي أنشئت من أجلها . والمسوغ الوحيد في نظرى لاصدار مجلة مشتركة بين التخصصات مثل مجلة (الثقافات) هو أن تناطب جمهور المثقفين أو الاتنائيجنسيا بصفة عامة لا فئة المتخصصين . وبهذا المعنى العريض للثقافة نفهم الثقافة بأنها ليست المعرفة بل تكامل المعرفة ، أو على الأصح تحول المعرفة إلى قيم ، وحيث تبدأ القيم تكون الأحكام والاتجاهات والتىارات الحضاريه والفكريه . وحيث تكون الأحكام والاتجاهات والتىارات الحضاريه والفكريه لا بل من ضمانات حرية الكلمة ، وهو ما يتتجاوز إمكانيات منظمة اليونسكو ، بل كل المنظمات الدولية ، بحدودها الحاليه . فمعروف أن منظمة اليونسكو تعبر عن الدول الأعضاء فيها وأن سكرتارية اليونسكو خادمة لهذه الدول الأعضاء ، خاضعة لرقابتها وتوجيهها ولا تتمتع بشخصية « فوق دولية » ، وهذا في حد ذاته يعصف بضمانات حرية الكلمة التي لا يمكن لموظفي اليونسكو القائمين بإصدار مجلة (الثقافات) أن يحموها إزاء حساسيات مثل الدول الأعضاء . هبوا أن عالمًا انثروبولوجيًّا كتب عن وجود بقايا لأكلة لحوم البشر في إحدى دول إفريقيا السوداء ، أو أن عالمًا اقتصاديا خلداش الأحوال الاقتصادية في بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية ، أو أن مفكراً درس مشكلة استعباد المرأة أو مشكلة التعصب الديني أو العنصري في العالم المعاصر دراسة تؤدي إلى استخلاص نتائج معينة . فما الضمان ألا يقف ممثل لدولة من الدول الأعضاء الخدوشة بالفعل أو بالوهم ويحتاج على نشر مثل هذا البحث في مجلة

(الثقافات) ؟ إن المجالات العلمية المتخصصة هي كل ما تستطيع اليونسكو إصداره من المجالات ، لأن العلماء يستطيعون الوقوف عند الوصف والرصد والإمساك عن إصدار الأحكام ، أما المجالات الثقافية المشتركة بين التخصصات . فلأنها تناطب المثقفين بصفة عامة فلا مفر فيها من وجهة النظر مهما كان الكاتب متخصصاً وموضوعياً ومنضبطاً في عرض أفكاره .

أتم تريدون إنشاء مجلة مثل مجلة سارتر «الأزمة الحديثة» أو مجلة سبندر «أنكاونتر» دون أن تكون لكم حرية سارتر أو سبندر وهذه هي المشكلة » .

وأضاف روجيه كايووا عضو الأكاديمى فرنسيز : بل ما الضمان إلا تتحلى الدول الأعضاء بوسائل الضغط المختلفة من هذه المجلة أداة لنشر دعايتها من خلال تقارير رسمية محشوة بالأرقام الزاهية التي تصور أنها الجنة على الأرض حيث لا فقر ولا جهل ولا مرض ولا تخلف ولا ظلم ولا استبداد ، ولا لا بل كل شيء عال العال » .

والحق يقال إن رجال اليونسكو ، ريتشارد هوغارث وبامات وجى مترو كانوا لا يقلون تفهمًا لهذا الوجه من المشكلة عن بحثة المستشارين ، أقصد موضوع اختناق مطبوعات اليونسكو وبحوثها وتقاريرها بسبب حساسية الدول الأعضاء من أي نقد يوجه إليها أو إلى أساليب الحياة والفكر فيها ، وبهذا فقدت منظمة اليونسكو قدرتها على قيادة مثقف

العالم ، واقتصر دورها على تقديم بعض الخدمات الفنية الجليلة كإنقاذ الآثار أو المشكوك في قيمتها كخدمات التربية والتعليم .

وهذا النقص في الفاعلية بصيب كل المنظمات الدولية ، وفي مقدمتها الأمم المتحدة بدرجات متفاوتة لنفس السبب برغم أن مجالسها وبلغاتها وأجهزتها الفنية تضم الآلاف من خيرة الخبراء . وقد أتيح لي في مرحلة ما من حياتي أن أعمل في الأمم المتحدة وأمس بنفسى هذا النقص في الفاعلية بسبب عجز بلان الأمم المتحدة عن أداء واجباتها تحرجاً من الدول الأعضاء أو خوفاً من بطيئها . وما زلت أذكر كيف كان صديقي الدكتور محمد زكي شافعى وصديقي الدكتور محمود شافعى وهما من كبار رجال الاقتصاد يحملان إلى همومهما الوظيفية . فقد كانوا يكلفان بإجراء الأبحاث وكتابة التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية مثلاً في إحدى دول أمريكا اللاتينية ، وبعد أن يعرقا ويسيروا الأسبوع في جمع البيانات وتحليلها ويحسدا الحقيقة في صورة تقرير أو دراسة ، كان المديرون يعبثون بهذه التقارير والدراسات فيجرون عليها من التعديل في الصياغة ، الذى يباغ أحياناً حد حجب بعض البيانات أو ذكرها بطريقة مبهمة ، ما يجعل قارئ التقارير عن الحالة أو المشاكل الاقتصادية لا يحسن بوجود «مشاكل» من أي نوع كان أو يحسن بأن الحال معden في كوستاريكا أو نيكاراجوا أو أورجواي أو باراجواي ، خشية احتجاج مندوب هذه الدولة أو تلك لو ظهر من ميزانها التجارى أنها على شفا الإفلاس أو ظهر أنها تملك جوعاً لو توقفت الولايات المتحدة عن شراء

إنتاجها من السكر أو اتضحت تبعيتها السياسية بسبب أحوالها الاقتصادية . وكان المنطق السائد أنه ما كل الحقائق يصبح ذكرها ، فإن كان لامناص من ذكرها فينبغي أن تغلف بالسياوفان أو تخاطب بجملة من السكر كما يفعلون بالبرشم والعقاقير حتى يسهل بلعها . وهذه طريقة لا بأس بها ، ولكنها كثيراً ما تطمس ما هو داخل البرشامة فلا تدرى إن كان ما تبلغ جرعة من البنسلين أم جرعة من البخور أو الدقيق أو المواد التي لا نفع فيها . وإذا كان خبراء الأمم المتحدة يتصرعون كل هذا الخرج من الدول الصغرى فما بالك بحرجهم من الدول الكبرى التي تدفع ميزانية الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة كاليونسكو والفاو وهيئة الصحة العالمية ومنظمة العمل الدولية .

ومن أجل هذا فإن لجنة كلية حقوق الإنسان في الأمم المتحدة برغم التزام الدول الأعضاء بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان تكاد أن تكون لجنة كاملة الشلل لا يحس بوجودها أحد ، مع أن حقوق الإنسان تهدر كل يوم في فيتنام وفي أمريكا وفي مصر وفي إنجلترا وفي الاتحاد السوفييتي وفي أمريكا اللاتينية وفي أفريقيا السوداء وفي أفريقيا البيضاء وفي كل بلد من بلاد العالم المتحضر والمختلف ، سواء من حيث التفرقة العنصرية أو الإخلال بالمساواة بين المرأة الرجل أو الإخلال بحق التعليم أو تشغيل الأحداث أو .. أو .. إلخ .. وقد عبر داج هرشنبل ذات مرة عن عجز الأمم المتحدة عن أداء واجباتها المنصوص عليها في ميثاقها الجميل بقوله إن الأمم المتحدة ليست إلا بمجموع أعضائها .



ومعنى هذا الكلام أن الأمم المتحدة قاصرة لأن الدول الأعضاء فيها غير قادرة على أو غير راغبة في الوفاء بالتزاماتها التي ارتبطت بها حين وقعت ميشافها ، وأن الأمم المتحدة ليست لها إرادة مستقلة عن إرادة الدول الأعضاء فيها . فال الأمم المتحدة ليست هيئة « فوق دولية » . وهي ليست حكمة عالمية بأى معنى من المعانى ، وبالتالي فإن سكرتариتها العامة لا تتجاوز أن تكون مجرد خادمة للدول الأعضاء التي إن أرادت خيراً نفذت لها الخير وإن أرادت شرًّا نفذت لها الشر ، وإن تعلقت إرادتها أصيبت هي بالشلل . وعلى أحسن الفرض ليس للأمم المتحدة إلا سلطة أدبية أو معنوية .

وقد عبر لنا أحد مدیري اليونسكو عن هذا الوضع بقوله: إن أى ممثل من ممثلي الدول الأعضاء . يستطيع أن يقول لنا في أى وقت من الأوقات ، نحن ممثلون لدول أو لأمم ونحن مسؤولون أمام الدول أو الأمم التي تمثلها . أما أنتم الخبراء من موظفي الأمانة العامة فلا مسؤولية عليكم أمام أحد إلا الدول الأعضاء التي لم تعطكم توكيلًا شاملاً وإنما عينتكم في وظائفكم مجرد تسخير الأمور التي تريدهم هي تسخيرها . فالأمر إذن متعلق مرة أخرى بإرادة الدول الأعضاء التي إن أرادت إعلان الحقائق أعلنتها وإن أرادت إخفاء الحقائق أخفيتها ، وإن أرادت حرية الفكر كف除了ها وإن أرادت تقييد الفكر أو توجيهه قيداته ووجهته .

وقد قال روبيه كايروا عضو الأكاديمى فرانسيز متمكمماً بهذه الوضع

«من أجل هذا نجد منظمة اليونسكو تناقض نفسها ، فهي من ناحية تتحدث عن واجبها نحو نشر الأبحاثية بين الأميين ومن ناحية أخرى تشجع تعليم الأميين بالوسائل السمعية البصرية التي تغنى الإنسان عن تعلم الأبحاثية ». (والمفهوم ضمناً أن الوسائل السمعية والبصرية ليست من وسائل مكافحة الأمية بل من وسائل مكافحة التعليم ، والمفهوم ضمناً أيضاً أن مكافحة التعليم بين الشعوب النامية يجري وفق مخطط مرسوم تستخدم فيه منظمة اليونسكو كأدلة !)

وبرغم هذا الشعور الواضح لدى موظفي اليونسكو بعدم وجود ضمانات لحرية الفكر أو حرية البحث العلمي اقتنعوا كما اقتنعت لجنة المستشارين بضرورة النص على « استقلال » تحرير مجلة « الثقافات » المزمع إنشاؤها ، وضرورة النص على عدم جواز استخدامها كأدلة لنشر التقارير الرسمية التي يتقدم بها ممثلو الدول الأعضاء . وكمزيد من الضمان لمواجهة أي ضغط على جهاز تحرير المجلة من ممثل الدول الأعضاء اتفق بصورة مبدئية على إحالة موادها على هيئة من جهابذة العصر في الآداب والفنون والعلوم الإنسانية لإقرار نشرها . وذلك كوسيلة لتحقسيتها ضد تدخل الدول الأعضاء بقوة رأي الثقافات الأعلام . وقد كان كل هذا نصراً عظيماً لحرية الفكر والبحث العلمي في مرحلة التخطيط . فرجو أن تكون الخواتيم كالفواتيغ .

وفي مرحلة من مراحل المداولات استدعى أحد خبراء المشر التابعين

ليونسكو ليسلی برأيه فيما ينبغي أن يطبع من نسخ من هذه المجلة الجديدة «الثقافات». ومهن عرفنا أن «مجلة التاريخ العالمي». كان يطبع منها ٢٠٠٠ نسخة، وكان يوزع منها في العالم كله نفس هذا العدد، بباع للجامعات والهيئات والأشخاص المعنية بدراسة التاريخ. قلنا: ولكن هذا العدد الضئيل ربما يتنااسب مع مجلة متخصصة بطبعتها، أما مجلة مشتركة بين التخصصات، أو مجلة ثقافية جامعة كما نقول نحن في لغتنا، فربما كان من الأنسب مضاعفة عدد النسخ المطبوعة منها، وعذذا من جديد إلى الحديث في توزيع مجلة سارتر «الأزمنة الحديثة»، فعرفنا من خبير النشر أنه كان في المد السارترى ١٥,٠٠٠ نسخة أما اليوم فهو ٥٠٠٠ نسخة. وكان تفسير ذلك طبعاً أن السارترية نفسها في ذبول، وأن سارتر يتخلى في السنوات الأخيرة عن العناية بمجلته بشخصه مفوضاً أمرها لبعض مربيه، مثل كلود لانسان.. وقد أخذت سكرتارية اليونسكو برأى خبير النشر الذي أشار بعدم زيادة المطبوع عن ٢٠٠٠ نسخة إلا في حالة الأعداد الخاصة.

وأنا أذكر هذه الأرقام عن توزيع المجالات الثقافية الحادة في الخارج ليعرف مخططو المجالات الثقافية عندنا حقيقة ما يجرى في العالم المتقدم، فمجلة مثل «الأزمنة الحديثة» كانت تهز مثقفي العالم من اليابان إلى أمريكا اللاتينية لم يتجاوز توزيعها في أقصى مدتها ١٥,٠٠٠ نسخة، وهي الآن لا تزال تعد في طليعة المجالات الثقافية الحادة، ومع ذلك لا يزيد توزيعها على ٥٠٠٠ نسخة في العالم كله ب رغم أن «قراء» الفرنسية

١٦٥

في العالم يعدون عشرة أمثال «قراء» العربية فلا ينبغي أن ننأس إذا أصدرونا مجلة ثقافية حقيقة أصلية ، ولم يتتجاوز توزيعها ألف نسخة ، فالثقافة الجادة في كل بلد تعان .



الفصل الحادى عشر

ما كتب الجديـد

بعد أن فرغت من واجباتي نحو منظمة اليونسكو في باريس . وقرئت علينا قراراتنا بشأن المجلة الثقافية الجديدة المزمع إنشاؤها تحت اسم «الثقافات» للتصديق عليها . مضيّت أستعرض كتابات المسارح ، لأعرف ماذا يجري في حياة باريس الفنية فوجدت بين مسارح باريس العديدة ٤٨ مسرحاً تقدم عروضاً مسرحية . وكان بين هذه المسارح عدد لا يأس به يقدم العروض الخفيفة أو مسرحيات التسلية ، وعدد لا يأس به يقدم «الإعدادات» أو ما يسمونه الربيرتوار بلغة أهل المسرح . وهي مسرحيات سبق أن رأيتها في الأعوام الماضية . مثال ذلك مسرحيتا «الدرس» و «المغنية الصلعاء» للكاتب يونسكو اللتان كانتا تعرضان في مسرح لاهوشيت بالحى اللاتينى بلا انقطاع خلال السنوات الأربع عشرة الأخيرة . وقد لاحظت بصفة عامة انتشار مسرحيات التسلية الجديدة فى باريس . ومع ذلك كانت هناك أركان فنية تقدم عدداً من المسرحيات الجادة العميقـة . كذلك لاحظت العودة إلى مسرحيات جورج فيدو ومسرحيات جان أزوى .

في مسرح لا بروبير كان هناك عرض لتشيكوف وبيرانديلو، وفي مسرح بيجال كان هناك عرض لمسرحية «بازاجيه» لراسين، مع ذلك اخترت أن أرى ثلاثة عروض جديدة كان أحدها «ماكبث ليوجين يونسكو». وهي تنوع على أساس شكسبير الحالدة، وكانت تقدم في مسرح الضفة اليسرى (الريف جوش) بمونبارناس. ثم مسرحية «كل ما في الحديقة ورود» للكاتب الأمريكي إدوارد أولي وكانت تقدم في مسرح ماتوران. ثم عرضاً مسرحيّاً مقتبساً من كتاب لوتيامون العظيم «أغاني مالدورور» كان يقدم على مسرح تيرتر بونمارتر. وكانت هناك مسرحية للكاتب الإنجليزي هارولد ينتر اسمها «بالأمس فقط» عن الفرنسيّة (ولا أعرف اسمها الأصلي بالإنجليزية) لم أجده الوقت لمشاهدتها فاكتفيت بقراءتها. وقد ذكر لي بعض أصدقائي الإنجليز المقيمين في باريس أن عرضها على المسرح الفرنسي كان أفضل بكثير من عرضها على المسرح الإنجليزي.

ولنبدأ بمسرحية «ماكبث» ليونسكو، وهي تجربة مثيرة في إعادة تفسير قصة ماكبث أو أسطورته كما ورثناها عن شكسبير. أما حكاية ماكبث كما ورثناها عن شكسبير، فهو أن الملك دنكان، ملك إسكتلندا، كان له قائدان كبيران هما ماكبث وبانكو استطاعا أن يردا الغزاة وأن يخضعا العصاة، وكان أعظم القائدين هو ماكبث الذي جمع بين الشجاعة والنبل والولاء الذي لا يجد ملوكه. وفي عودة ماكبث وبانكو منتصوريين من القتال عبر البراري، ظهرت للقائدين في البرية

ثلاث ساحرات تنبأت إحداهن لما كبرت بأنه سيصبح الإيرل (الكونت) على مقاطعة كودور ، وتنبأت له الثانية بأنه سيصبح الإيرل على مقاطعة جلاميس ، وتنبأت له الثالثة بأنه سيصبح ملكاً على أسكوتلندا . أما القائد بانكو فقد تنبأت له الساحرات بأنه لن يظفر بمعنون في حياته . ولكنها سيكون أباً وجدًا لسلسلة طويلة من ملوك اسكتلندا . ثم اختفت الساحرات وتركن ما كبرت وبانكو مشهودين في البرية ، فهما يعلمان أن إيرل كودور وإيرل جلاميس لا يزالان بين الأحياء وأنه لا سبيل إلى وراثتهما ، كما يعلمان أن عرش اسكتلندا يجلس عليه ملك تقي مهاب هو الملك دنكان ، وأنه لا سبيل لخلافته على العرش لأن له ولدين في الخارج هما مالكولم ودونالدين .

* * *

ولا يلبث ما كبرت أن يتلقى بمن يبشره بأن الملك قد أنعم عليه تقديرًا لانتصاره على الغزاة بكونية كودور وبكونية جلاميس ، لأن إيرل كودرو وإيرل جلاميس قد أعداهما الملك دنكان وصادر أملاكهما جزاء لهما على قيامهما بفتنة أهلية على عرش البلاد . وهكذا تحققت لما كبرت نبوتان ، ولم تبق إلا النبوة الثالثة ، وهي أن يجلس على عرش اسكتلندا . وهنا نبتت بذور الخيانة في قلب ما كبرت الطيب الأمين النبيل بوحى من زوجته الطموحة الضاربة اللمى ما كبرت ، التي ما إن عرفت بما قد جرى من نبوءة الساحرات وتحقق شطر منها حتى تخيلت نفسها ملكة متوجة على عرش اسكتلندا ، وأقنعت زوجها بأن نبوءة

الساحرات هي مشيئة القدر . بل وأقنعت الليدي ماكبث زوجها أن يستقبل الملك دنكان في قلعته وأن يغتاله ليحكم مكانه . وقد كان . وهكذا اغتصب ماكبث عرش اسكتلندا وحكم شعبه بالحديد والنار ، لأن قصة خيانته كانت على السنة رعاياه في السر والجهر . وكان أول ما فعله ماكبث هو الفتاك بزميله بانكو حتى يحيط نبوءة الساحرات ويغير مجرى القدر فلا يتولى عرش استكناه أحد من سلالة بانكو . وتكثر متاعب ماكبث لأن زوجته ليدي ماكبث بعد أن ارتكبت جريمتها وشاركت زوجها في الفتاك بملكه « معبد الله المقدس » ، يشغل الوزر على فؤادها فتصاب بذلة وتراءى لها الأشباح في يقظتها وزومها وينتهي أمرها بأن تشنق نفسها . كذلك يخوض ماكبث النبيل في بحار من الدماء لثبت عرشه ، وتكثر من حوله الفتن والقلائل فيتحجر قلبه ويزداد كل يوم ضراوة حتى يغدو كالوحش الكاسرة . وأخيراً يسقط صريعاً في المعركة الأخيرة حين يجهز ولدا الملك دنكان جيشاً بمعونة ملك إنجلترا ويسترد مالكوم عرش أبيه . لقد تنبأت الساحرات لماكبث بأنه لن يهزم في الحروب إلا على يد رجل لم تلد امرأة وإلا حين تتحرك غابة دنسين عن مكانها ، وقد حسب هذا كله ضرباً من الحال ، ولكن جنود مالكوم يقتلون أشجار الغابة ويتحركون من وراءها إلى ساحة القتال ويعلن مالكوم لماكبث في النزال الأخير أنه لم يولد ولادة طبيعية وإنما ولد بعملية قيصرية . وهكذا تنتهي مأساة هذا القائد المغوار الطيب النبيل الذي لا نعرف إن كان داعيه إلى السقوط صوت القدر على السنة

الساحرات أم صوت زوجته الضاربة ليدى ما كبرت ذات القلب المعتم
والعقل المسموم ، أم جرثومة الفساد البدھينة في قلب كل حى ولو كان
أشرف الشرفاء .

فماذا فعل يونسکو بهذه القصة وكيف أعاد صياغتها ؟

لقد طمس يونسکو شخصيات هذه القصة ودوافعها دون أن يطمس
معالمها الرئيسية ، وحوظا من مأساة تصور مخنة الإنسان الحميد الذى يتحرك
كالدمى وسط زعزع القدر العاتى إلى مأساة كل أشخاصها من الأوغاد
الذين لا يعرفون من النوازع إلا السباب والنهب وشهوة السلطة والشكوك
المسمومة . فلم يعد الملك دنكان كما صوره شكسبير « معبد الله المقدس »
رمز حق الملك الإلهى ، بل غدا عاهلا جباناً رعديداً لا يقوى على مواجهة
أعدائه مواجهة الفرسان ، بل يستخدم الغير لقتال معاركه . فلا هم
لدنكان إلا نهب أموال نبلائه والتآمر عليهم قبل أن يتآمروا عليه .
فمنذ اللحظة الأولى نعرف من التمردين كودور وجلاميس أن الملك دنكان
يفرض على كل منهم جبائية سنوية قدرها عشرة آلاف جواد وعشرة آلاف
جندي وعشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير
إلخ . ومع كل هذا ألف بنت عذراء لفراشه (تماماً كالمملكة شهر يار !)
ومن أجل هذا يتافق كودور وجلاميس على الثورة على هذا الملك
الغاشم واقتسام عرشه من بعده لتخلص البلاد من طغيانه ، لئنما رجل واحد
ورأيهما رأى واحد . إنهمما يتكلمان كالصوت وصداه . ويقسم كل منهمما
على سيفه أن يكون وفيتاً لأخيه .

وهكذا يتحرك جيش كودور وجيشه جلاميس عند الفجر لخليع دنكان ، فيهب ماكبث وبانكو للدفاع عن الملك وتكون معركة ضارية بين المعسكرين يهلك فيها الآلوف والألاف . كذلك كان ماكبث وبانكو كأنهما رجل واحد لهما رأى واحد يتكلمان كما يتكلم الصوت وصداه ، وعندما نرى كلًا منها على انفراد في جانب من ميدان القتال نسمعه يردد نفس الكلام : عبارات التفاخر بما كدس من جثث القتلى بين صفوف العدو : « إن نصل حسامي خصبيه الدماء ، بيدى هاتين قتلت العشرات والعشرات . قتلت المئات والمائات من الضباط والجنود الذين لم يؤذوني في شيء . ومثلهم أعدمت المئات والمائات رميًا بالرصاص . الآلوف الآلوف ماتوا ، حرقوا أحياء في الغابات التي اعتقدوا بها ، فأضربت فيها النيران . عشرات الآلوف من الرجال والنساء والأطفال ماتوا مختنقين داخل الكهوف وتحت أنقاض منازلهم التي نسفتها . مئات الآلوف ماتوا غرقى في بحر المانش حين استولى عليهم الذعر فأرادوا عبوره . والملايين ماتوا أو انتحروا من الرعب . وعشرات الملايين ماتوا من الغصب أو من النالج أو من الحزن . لم تعدد في البسيطة أرض تكفى لدفن كل هؤلاء الموتى . وانتفخت جثث الغرقى بكل الماء في البحيرات فلم تعد في البحيرات مياه . ولم تعد هناك نسور تكفى لتخليصنا من كل هذه الرم .. إلخ ». وكل هذا فعله ماكبث دفاعاً عن مليكه المنادى ، حفظ الله حياته . وحين يحيى دور بانكو نجده يلقي نفس هذا المؤنواوج المضحك الذى أراد به يونسكتو أن يسخر من

« فشر الأبطال الصناديد » ، يلقىه بخدا فيه .

* * *

وفي مكان أمين نرى الملك دنكان والملكة زوجته يرقبان المعركة على
البعد . ودنكان واجف القلب يسأل كل ضابط أو جندي يمر به :
من المنتصر ؟ ترى ماذا يحدث لو انتصر كودور وجلاميس ؟
وتقول الملكة التي يسميهها يونسكتو الليدى دنكان : « إذن تلبس أنت
دروعك وتخف إلى القتال » ، ولكن للملك رأياً آخر . أو أنهم ما كبرت
وابانكو فيجب أن يختبئ . ولكن أين يختبئ ؟ إن أعداءه في كل
مكان : ملك مالطة ، إمبراطور كوبا ، أمير البليار ، ملوك فرنسا
وليرلندا كلهم أعداؤه . وأعداؤه بلا حصر في بلاط ملك إنجلترا .
(هنا يخيلي إليك أن يونسكتو لا يحدثنا عن دنكان وما كبرت وبانكو أيام
الأنجلو سكسون ، وإنما يحدثنا عن شيء شبيه بحكام العالم الحديث) :
« الخليفة أمّ الحكمة » ، هكذا يقول . إنه سيفر غالباً إلى كندا أو الولايات
المتحدة حاملاً خزانة ملائنة بالذهب (هنا نتذكر ما حدث لـ الداديه
أو لبول رينو الذي فر بعد هزيمة فرنسا عام ١٩٤٠ إلى أمريكا بعد أن
شحنت ذهب الخزانة الفرنسية . حتى غرق المانش يذكر وننا بما كان
في دنكيريك) . وبالطبع نضحك لأن أمريكا وكندا لم يكن لهم
وجود أيام دنكان وما كبرت وبانكو .

外文译稿

ولا يخرج دنكان من هذا القلق على مصير المعركة إلا بأن يقول

لياوره : « ابق أنت إلى جواري لتدافع عنى إذا اقتضى الأمر (مخاطباً ليدي دنكان) أما أنت فهيا بسرعه . خذى جواداً وامضى إلى الجبهة وعودى إلى الأخبار ، ومع ذلك لا تقتربى أكثر من اللازم . أما أنا فسأحاول أن أرى ما يجري بالمنظار العظيم » . إن هذا الدنكان مختلف كثيراً عن « معبد الله المقدس » الذى حدثنا عنه شكسبير ! ملك جبان لا يستحبى أن يعرض زوجته للخطر لينجو من المهالك .

وبعد لحظات تسمع صيحات الانتصار . لقد انتصر ماكبث وبانكوا على كودور وجلاميس . لقد وقع كودور في الأسر أما جلاميس فهو محاصر بعد أن تمزق جيشه . وينخطب دنكان خطبة عصباء يشكر فيها قواده وجنوده البواسل الأحياء منهم والأهوات الذين أنقذوا العرش والوطن ، ويتحدث عن مقبرتهم ، مقبرة الحلود ، في أبينان (وهنا نحس أن دنكان يتحدث عن مقبرة الجيش الأمريكي الرهيبة في بلدة أبينان بفرنسا التي تضم عشرات الآلاف من قتلى الحرب العالمية الثانية) فكأنما هو ي يريد أن يقول إن كودور وجلاميس هما هتلر وموسوليني . وإن ماكبث هو أمريكيًا وبانكوا هو روسيا أما الملك دنكان والليدي دنكان فهما بريطانيا وفرنسا) .

* * *

وفي حفلة رسمية يتم إعدام كودور وأتباعه في حضور الملك ولملكة .. آلاف مؤلفة يمرون على المتصلة في حين أن الليدي دنكان يأتونها بفوطة وطست وقطعة صابون وماء الكوالونيا وهى جالسة مع وصيفتها إلى جوار

ما كبرت القائد المتصر تعد الرعوس الهاوية بلذة عظيمة ، وتغسل يديها كما تريده أن تزيل بقعة الدماء التي لحقت بيدها كما كانت تفعل الليدي ما كبرت في شكسبير . أما كودور فقبل أن يفصم رأسه نسمعه يقول : « على الأقل فليكن مصيرى عبرة للجميع والأجيال القادمة . لا تتبعوا إلا الأقوى . ولكن المشكلة هي : كيف نعرف من الأقوى قبل المعركة ؟ فليقف أكثركم موقف المترجر من المعارك ، أما الباقون فليتبعوا الأقواء ، فنطقي الأحداث هو المنطق الوحيد الصحيح » .. ويستغل بانكو بهمة بضم الرعوس عن الأجساد . كل هذا والليدي دنكان الحالسة بجوار ما كبرت تلتصق به في نشوة حسية وتعاكسه بقدمها وتغمز له بعيونها فتلتهب فيه غلامة الاشتئاع . ويعلن الملك دنكان أنه بعد موته كودور يمنع لقبه ونصف أملأكه المصادر لما كبرت ، وحين يموت جلاميس سوف يكون لقبه ونصف أملأكه المصادر من نصيب بانكو ويؤول النصف الباقى من الأملأك إلى العرش . غير أن رسولًا يأتي بنباء فرار جلاميس المحاصر ويصاب بانكو بخيبة أمل شديدة . إن المعركة لم تنته ، ويجب أن يبدأ كل شيء من جديد .

٣٦ ٣٦ ٣٦

غير أن ما كبرت على الأقل خرج بشيء من كل هذا ، وهو اقترابه من الليدي دنكان الفاتنة اقترباً شديدةً ، وعلى البطل أن يرى ما كبرت يستعد من جديد لمطاردة جلاميس ، ومن بعده نرى بانكو . وتهب عاصفة هوجاء تظهر فيها الساحرات كما في شكسبير ، ولكنهن ساحرتان .

لا ثلاثة . كما في شكسبير ، وتعلن الساحرتان لما كبرت أن الملك دنكان قد أنعم عليه بلقب جلاميس بعد لقب كودور لأنه غاضب على بانكو الذي يعده الملك مسؤولاً عن قرار جلاميس . ثم تفضيابان لما كبرت المشدوه بأن القدر قد كتب له أن يجلس على عرش دنكان ويتزوج ملكاً على أسكания . ويحاول ماكبث أن يطرد الساحرتين اللعينتين لأنهما توحيان إليه بخيانة ملكه ، ولأن دنكان وريثين هما مالكولم ولـ العهد الذي يتم عاومه في قرطاجة وأخوه دونالبين الذي يدرس في راجوز (وهي الاسكندرية قبل الاسكندر) للحصول على دبلوم في الاقتصاد والعلوم البحرية ! غير أن الساحرتين الشمطاوين لا تلبثان أن تتحددتا إلى ما كبرت بصوت رخيم يذكره بصوت الملكة . ليدي دنكان ، ووصيفتها . فتشتت حيرته . وبرغم مقاومته لهذا السحر الرجيم نحس بأن لوناً من السم اللذيد ، سم الغواية ، قد بدأ يسرى في أوصاله .

نفس المشهد يتجلی أمام بانکو . تتجلى له الساحرتان تلقناته بأن
منافسه الخطر هو ما كتب الذى اختصه الملك بلقب جلاميس بعد أن
أذعنه عليه بلقب كودور ، ولكن الملك الجشع قد قرر أن ينعم بالألقاب
من دون الأملالك . الأملالك له والألقاب لما كتب . ومع ذلك فالقدر قد
كتب لبانکو أن يكون أباً لسلسلة طويلة من الملوك يجلسون ألف عام على
عرش البلاد .

وهكذا تيذر الساحر زان يذور الفتنة في قلب ماكيث وقلب بانکو

فتؤل bian كلاً منها على الآخر ، وتأل bian كلاً منها على ملوكه . أما منطقهمـا فبيسيط ، لأنـه مستمدـ من الواقع . إنـ الملك دنـكان لا يستحقـ كلـ هذا الوفـاء ، لأنـه ملكـ جـيان وجـشع وـغـدار . هو لا يـقـاتـل أبداً وإنـما يـجـعـلـ الغـير يـقـاتـلـ لهـ مـعـارـكـه . هو لا يـخـدـمـ أحدـاً ولـكـنهـ يـجـعـلـ الكلـ يـخـدـمـونـهـ . كلـ النـاسـ أدـوـاتـ فيـ يـدـيهـ ، وـهـوـ يـكـرـهـ الأـقـوـيـاءـ وـيـغـارـ مـنـهـ . إنـ سـخـرـ ماـكـبـثـ وـبـانـكـوـ لـلـفـتـاكـ بـكـوـدـورـ وـجـلـامـيـسـ لـأـنـهـاـ كـانـاـ مـنـ الشـجـعـانـ . وـهـوـ يـضـمـرـ لـقـائـيـهـ الـمـتـصـرـيـنـ الـمـوـتـ لـأـنـهـ يـخـشـىـ اـرـتـفـاعـ نـجـمـهـماـ . إنـ دـوـرـهـماـ آـتـ لـأـمـةـ . إنـ كـلـ مـاـ يـفـكـرـ فـيـهـ دـنـكانـ هـوـ الـمـحـافـظـةـ عـلـىـ عـرـشـهـ وـأـمـتـلـاءـ خـزـائـنـهـ . إـنـهـ مـلـكـ ظـالـمـ . وـالـقـدـ قـدـ كـتـبـ لـمـاـكـبـثـ أـنـ يـجـلـسـ عـلـىـ عـرـشـ دـنـكانـ لـأـنـ مـاـكـبـثـ رـجـلـ عـادـلـ ، لـأـنـ مـاـكـبـثـ سـوـفـ يـنـشـرـ السـلـامـ وـيـنـصـفـ الـفـقـرـاءـ فـيـ هـذـاـ الـبـلـدـ الشـقـيـ المـزـقـ الـذـيـ لـمـ يـعـرـفـ السـكـيـنـةـ وـلـاـ العـدـلـ قـطـ . كـذـلـكـ كـتـبـ الـقـدـرـ لـبـانـكـوـ أـنـ يـكـوـنـ أـبـاـ لـأـسـرـةـ عـظـيمـةـ مـنـ الـمـلـوـكـ .

وـمـاـكـبـثـ لـأـيـصـدـقـ أـذـنـيـهـ .. لـقـدـ كـانـ فـيـ الـمـاضـيـ يـخـشـىـ أـنـ تـظـهـرـ لـهـ السـاحـرـتـانـ ، أـمـاـ الـآـنـ فـهـوـ يـدـعـوـهـمـاـ لـلـظـهـورـ ، وـيـسـتـمـعـ إـلـىـ حـدـيـهـمـاـ العـجـيبـ فـيـ مـزـيـجـ مـنـ الـوـجـلـ وـالـأـرـتـيـاحـ ، وـيـنـاجـيـهـمـاـ . وـحـينـ سـأـلـ مـاـكـبـثـ السـاحـرـتـينـ عـنـ سـرـ حـرـصـهـمـاـ عـلـىـ سـعـادـتـهـ يـأـتـيـهـ الـبـلـوـابـ بـصـوـتـ رـخـيمـ مـتـمـمـ : «ـلـأـنـنـاـ نـجـبـكـ يـاـ مـاـكـبـثـ ، «ـلـأـنـهـ تـجـبـكـ يـاـ مـاـكـبـثـ»ـ ، هـكـذاـ تـقـولـ السـاحـرـةـ الثـانـيـةـ عـنـ السـاحـرـةـ الـأـوـلـيـ . وـيـخـيـلـ لـمـاـكـبـثـ أـنـهـ يـعـرـفـ هـذـهـ الـأـصـوـاتـ الرـخـيـمـةـ ، فـهـيـ لـيـسـ غـرـيـبـةـ عـنـهـ وـيـنـاشـدـ مـاـكـبـثـ السـاحـرـتـينـ

أن تكشفوا له حقيقتهما ، بل يسل سيفه مهدداً أن يمزقهما إذا لم تعلمنا له ماذا تكونان .

وهنا تبدو الساحرات الشمطاوان في مشهد من السحر الأسود ترددان فيه عبارات باللاتينية من سجع الكهان ، عبارات مؤداها « اظهر وبان عليك الأمان » ، ثم تستويان وتتحركان في خفة ورشاقة ، ثم تتزع كل منها قناعها فإذا جههما الملائكة الفاتنة الليدى دنكان ووصيفتها الجميلة . ثم تجذب الوصيفة رداء الملائكة الفاتنة فإذا به يسقط تماماً عن جسدها الفاتن ، وتقف الليدى دنكان عارية لا يسترها على المسرح إلا بيكتيني . ويسقط ماكبت على ركبتيه صائحاً . « يا صاحبة الحاللة !! » ثم يضيف : « إني أرى معجزة ! » فتتجه الوصيفة : « بل أنت ترى على الطبيعة » . وعلى كتفي الملائكة العارية رداء الملك الأرجواني وفي يعناتها خنجر تقادمه لماكبت قائلة : « هيا اقتلها . اقتل الملك واجلس على عرشه أكن لك وتكن لي ! هيا بنا نبني معاً مجتمعاً أفضل ، عالماً سعيداً جديداً » وبعد تردد حائر يتقدم ماكبت ويتناول من يدها الخنجر ، والوصيفة تصريح « الحب قهار ! الحب قهار ! » ، ثم يلف الظلام كل شيء .

* * *

وهكذا جعل يونسكو من الساحرة الملائكة ، ليدى دنكان ، ومن الملائكة ليدى ماكبت ، وجعل من الثلاث شخصية واحدة هي شخصية « المرأة » أو « حواء » رسول الشيطان ، بالسحر والفتنة تستدرج أنبل الرجال إلى الخيانة والجريمة والمنية . وهذا هو الجديد في يونسكو ،

أو ما أضافه إلى شكسبير : إن ليلى ماكبث الشهيرة التي دفعت زوجها العظيم إلى اغتيال مليكه واغتصاب عرشه والخوض في بحار من الدماء هي نفس الساحرة التي تحملت له في البراري لتقنعه بأن القادر هو الذي رسم طريقه إلى الخيانة والجريمة . وهي نفس الملكة التي استدرجت هذا القائد المغوار لتخالص من زوجها الملك . ومع ذلك فنحن مع يونسكو لا ندين المرأة وحدها . لأننا نتحرك معه بين رجال أو غاد مهما بدت عليهم سمات الشجاعة والرجولة . ملك فاسق وقود جشعون وكل أمرئ يكيد لأخيه ، والمرض في قلب « الإنسان » لا فرق في ذلك بين النساء والرجال .

* * *

وينطاق بانكو إلى الملك دنكان ليجادله في وعوده التي حنت بها . إنه وعده بلقب جلاميس يوم يؤتي به حيَا أو ميتا ، والآن وقد مات جلاميس غرقاً ها هو ذا يمنع لقبه لماكبث . ويحيب دنكان بأنه لا يملك دليل وفاة جلاميس . « جئني بالحقيقة ». ولكن الحية طفت على البحر . « خذ زورقاً وابحث عنها ». ولكن سمك القرش أكلها . « خذ سكيناً وابقر به بطן القرش ». إن الملك يسخر منه . وهو الذي قتلك بأعداء الملك . ويحيب دنكان : « لقد وجدت متعة في القتال بهم » لقد كدت أفقد حياتي من أجلك . « ولكنك لم تفقدنا ». باختصار أن الملك لا يقدم حساباً لرعاياه عن تصرفاته . وعند خروج بانكو يهمهم دنكان في أذن ياوره : « كان ينبغي أن أعطيه اللقب ، ولكنه يريد الأملالك أيضاً ،

وهي حق يئول للناتج . ومع ذلك قال غداً بانكو خطراً يجب الخدر منه . «منتهى الخدر» . ثم يضيف في الإيحاء . «ألا ترغب في لقبه ونصف أملاكه ؟ أقصد لو غدا خطراً ؟» إن الياور يفهم الإيحاء وتلمع عيناه فرحاً ، وهنا يضيف الملك : «ما كبرت أيضاً قد غدا خطراً . ربما كان يطمع في الجلوس على عرشي . يجب الخدر من كل هؤلاء الناس . إنهم من رجال العصابات . كلهم . كلهم لا يفكرون إلا في المال ، في السلطة ، في الترف . وما كبرت بالذات . لا يدهشني أنه يطمع في زوجتي أيضاً وفي محظياتي بطبيعة الحال» .

* * *

هذه إذن كانت أسس الملك في بلاط الملك دنكان . حتى زوجته الملكة قد تأذت عليه . وهكذا تفرخ المؤامرة الثانية على عرش اسكندندا . بمنتهى الخدر يتکاشف ما كبرت ودنكان . ويبدأ بينهما حوار يذكرنا بحوار كودور وجلاحيس . إن الملك طاغية . إنه يجيء من كل نبيل في بلاطه كل سنة عشرة آلاف دجاجة ببيضها وعشرة آلاف جواد وعشرة آلاف مقاتل وعشرة آلاف شاة وعشرة آلاف خنزير ، وألف بنت عذراء لفراشه . إنه طاغية وينبغى سحقه . وتكون المفاجأة عندما يعلن ما كبرت ليانكو أن الملكة ، الليدي دنكان ، طرف ثالث في المؤامرة . ويتعاهد الثلاثة على الفتاك بالملك ، وتقدم الملكة هذا الشعار : «نعيش معاً أو نموت معاً» .

ويحل يوم التنفيذ ، وهو يوم شفاء المرضى ، فالمملوك بقوته الإلهية أو بحق

الملوك الإلهي ، يحجج إليه كل عام موكب المصابين بالكساح وبالجلدام وبالصرع وبكل وبليل من الأمراض عجز الطب عن شفائه ، وهو يشفيفهم بالمسحة من يده . وتم المراسم كالعادة في حضور الكاهن ، وما إن ينصرف المرضى إلا اثنين ، حتى ينزع الكاهن غطاء رأسه فإذا هو بانكرو مستخفياً في زي راهب . كذلك ينزع آخر مريضين أنهماهما فإذا بهما ما كبرت والملكة ، ويتجهمهر القتلة الثلاثة على الملك ويصرعونه بخناجرهم . وتلقي الملكة نظرة التأمل على جثة الملك المساجدة عند قدميهما وتنقول : « برغم هذا فقد كان زوجي . والآن أراه ميتاً فأحسبه يشبه والدى ، لقد كنت أكره والدى » .

* * *

وفي الخارج تهتف الجماهير : « عاش ما كبرت ! عاشت الليدى ما كبرت ! » إن كل شيء قد أعد لتهویج ما كبرت وزفافه إلى الملكة . نعم . اليوم تصبح الليدى دنكان الليدى ما كبرت . وتأكل الغيرة قلب بانكرو . فهو كذلك كل شيء إلى ما كبرت : التاج وألقاب النبلاء وأملاكه ، وأخيراً يد الملكة الفاتنة . أما هو فقد خرج من هذه الصفقة بخزي حنين . إنه حزين ينهشه تأنيب الضمير . ومع ذلك فعزاؤه الباقي هو نبوء الساحرات بأنه سيكون أباً لأسرة عظيمة من الملوك يحكمون البلاد ألف عام . فلي يكن . ولكن لكي يكون بانكرو أباً لا بد له أولاً أن يتزوج . وهل هناك أنساب له في الجبال والمقام من وصيفة الملكة ؟

ويسمع ما كبرت بانكرو التعس وهو ينادي نفسه على هذا النحو

فيه الحاجة اهتياجاً عظيماً . أمن أجل اخلاف بانكو قتل ماكبث مولاه ،
وكان عهداً الولاء للعرش ؟ إن بانكو سادر في أحلام لن تتحقق ولو
أرادت ذلك الساحرات . لسوف يموت ، فتموت معه ذريته إلى أبد الآبدين .
ويطعن ماكبث بانكو طعنة ترديه قتيلًا .

* * *

كل عكازها وتمتنع حقيبها وتطير في الهواء وكأنها تمنتع موتوسيلكا تكون له قعقة مزعجة ، أو تبسيط ذراعيها في الهواء وتطير وكأنها النسر الطائر .

* * *

وفي قاعة العرش ينتظر الملك ماكبث الملكة ليدى ماكبث وحوله ضيوفه الذين أقبلوا للأدب الزفاف في قاعة العرش . ويكون انتظاره طويلاً، ويبدو ماكبث في حالة اضطراب عظيم ، فيخيل إليه أن الصورة الملكية المعلقة في القاعة ليست صورته ولكن صورة الملك القتيل دنكان ، ويتجلّى له شبح بانكو فيشترد هياج ماكبث . وأخيراً يتجلّى شبح الملك القتيل دنكان ويسير في تؤدة إلى عرشه وينجلس عليه . فيفرز الحاضرون ويجهّون أمامه . ويقول شبح دنكان لماكبث : نعم ، أنت قتلتني لأنك كنت طاغية أقتل الآلاف وأبيد القرى وأظلم الرعية . كل هذا صحيح وأعرف به ولكن هناك شيئاً واحداً كاذباً في كل ما تقوله عنى . لقد أخذت تاجي وملكي ومالي سلطاني ، ولكنك لم تأخذ زوجتي كما تظن ويبدو هذا مثل كلام المجانين . ولكن سرعان ما يتبيّن أنه الحقيقة نفسها . لأن شبح دنكان يختفي وتدخل من بعده الملكة . تدخل بلا تاج ولا جواهر رلأثياب من ثياب الملك ، بل تبدو في ثوب بسيط تتبعها وصيفتها . وينهض الحاضرون لاستقبالها ويهتفون بحياتها . بحياة ملكتهم المحبوبة الليدى ماكبث . فتقول الملكة في تؤدة : صحتاً .. محبوبة أو غير محبوبة ، أنا لا أزال ملكتكم . ولكن لست الليدى ماكبث كما تتوهمون

بل أنا اليدى دنكان أرملة ملككم الشرعى القتيل .

* * *

ويظن ماكبث والحضور أن بالمرأة مسًا من الجنون ، لأنهم حضروا حفل زفافها إلى ماكبث . ولكنها تفسر لهم كل شيء . لقد جاءتها الساحراتان وسجنتها في قبو القصر الملكي مع وصيفتها ورماتها في الأغلال ، وأخذتا من كل هيمتها وصوتها ، وإن من رأه الناس في الكنيسة يزف إلى ماكبث لم يكن الملكة بل كان الساحرة تتبعها صاحبها الشمطاء ، إنها تعلم كل شيء عن مقتل زوجها ومقتل بانکو وكل ما كان من اغتصاب عرش البلاد .

ويضطرب الحاضرون فيهتفون آنا بحياة ماكبث ويهتفون آنا بحياة ملكتهم الحزينة ، ويشتد هياج ماكبث فيطردهم من قصره ليبقى وحده في مواجهة اليدى دنكان التي تقول له هازئة : « لن تخرج من هنا . لن تحكم البلاد . لأن الفتى مالكولم ول العهد الشرعى قد جاء من قرطاجة على رأس جيش عظيم ليسترد عرش أبيه . إن البلاد كلها قد تألفت عليك وتخلى عنك أصدقاؤك » .

ويدخل الفتى مالكولم شاهراً حسامه ، ويكون نزال بينه وبين ماكبث يسفر عن مصرع ماكبث وانطواء صفحته ، هذا الذى تنبأت له الأقدار بأنه لن يهزمه رجل ولدته امرأة . وقد كان الفتى مالكولم حقاً هذا الرجل الذى لم تلده امرأة ، فحين يروى علينا قوله نعلم أنه ليس ولد دنكان من صلبه بل ولد بالتبني ، لأن اليدى دنكان كانت

عقيماً لا تنجو . إنه ولد بانكو من غزالة مسحورة في صورة امرأة ، وقد ارتدت أمها غزالة قبل ولادته . وحملته الاليدى دنكان إلى القصر الملكى وزعمت أنه ولیدها ليirth العرش . إنه قد جاء ليثار لأبيه الحقيقى (بانكو) ولأبيه بالتبنى (دنكان) وليجلس على عرش البلاد . إنه بانكو الثاني ، وسوف يكون هناك بانكو الثالث وبانكو الرابع وبانكو الخامس وبانكو السادس وعشرات غيرهم . وهكذا تحققت النبوة .

وعندما يجلس بانكو الثاني على العرش تحسب الرعية أن عهد الطغاة قد انهى ، ولكن الملك الجديد يريد أحلامههم . إنه لم يأت ليتحقق أوهامهم في العدالة والرخاء ، في الفضيلة والسلام . إنه جاء ليحكم رعاياه الحمقى الأوغاد الجبناء بالنار والحديد . لسوف يصادر كل أملائهم . لسوف يضاجع كل نسائهم . لسوف يسترق كل رقاهم . لسوف يbedo ما كبرت الأسود اللعين ملائكاً نوارينياً بالقياس إليه . لسوف يجعلهم يترحمون على أيام ما كبرت !



الفصل الثاني عشر

في النساء والرجال

بعد أن شاهدت في باريس تجربة يونسكو الجديدة ، حول موضوع «ماكبث» ، شاهدت مسرحية جديدة للكاتب الأمريكي إدوارد أليبي أسمها : «كل ما في الحديقة» ، وهي مقتبسة عن مسرحية لكاتب مسرحي توفي حديثاً ، اسمه جايلز كوبير ، وقد أعاد أليبي صياغتها . والعنوان نفسه مقتبس من عبارة معروفة هي : «كل ما في الحديقة ورود» . وللذى شاهدته طبعاً في مسرح ماتوران هو الترجمة الفرنسية لمسرحية أليبي الجديدة ، وليس نصها الإنجليزى .

وقد وصلت إلى مسرح ماتوران ، وهو مسرح تديره أرملة هاري بور الممثل العظيم ، قبل ارتفاع الستار بنصف ساعة ، فذهبت أتسكع أمام واجهته ، وفي بهو مدخله أقرأ الإعلانات الجسيمة المعلقة على جدرانه ، وهي تعليم عما سبق لهذا المسرح أن قدمه من مسرحيات وما سوف يقدمه في المستقبل القريب ، فوجدها قوائم ممتازة من مسرحيات الطليعة كأعمال أداموف وأرابال ومرجريت دورا إلى الكلاسيكيات اليونانية مثل «أليكترا» سوفوكليس إلى الواقع التقليدية مثل بعض أعمال شكسبير وجوجول وتشيكوف وبيرانديلو وكونجريف إلخ .. ولكنني وجدت بينها مسرحية أسمها «الرجل الذي فقد ظله» : «مسرحية من ثلاثة فصول تأليف

بول جيلاسون ، مستوحاة من قصة شاميسيو» ، فضّل حكّت لأنّي تذكّرت الصديق فتحى غانم وروايته ، المعروفة . ولما كنّت لا أعرف من شاميسيو هذا ، رأيت أن أذكر هذه الواقعة لأنّها قد تهم الصديق فتحى غانم أو تسرى عنه .

وقد وجدت مسرحية « كل ما في الحديقة ورود » وردة سوداء من ورود الشر ، برغم أنها نوذج ممتاز من المسرح الواقعى الحديث ، بلا شعر ولا رمز ولا أسطورة ولا خيال . أو فلنقول على الأصح إنها نبات جميل مسموم من تلك النباتات الجميلة المسماومة الكثيرة التى أينعت فى الوجودان资料來源和版權所有者
المعاصر لأنها تصور كل النساء وكأنهن بغايا وكل الرجال وكأنهم قوادون . والذى يخفيق قليلا من ظلامها أنها لا تدعى أنها تتحدث عن الطبيعة البشرية وتنسب إليها هذه الخصائص ، وإنما تتحدث عن الناس فى المجتمع资料來源和版權所有者
المدنى المعقد فى القرن العشرين ، أو بتحليله أدق فى الحضارة البورجوازية المعاصرة . متمثلة فى الحضارة الأمريكية . فالمسرحية إذن فى حقيقتها هجاء فظيع للحضارة الرأسمالية الغربية التى تنتج مثل هذه النباتات السامة المسماومة .

ومسرحية « كل ما في الحديقة ورود » تدور حول موضوع مأوف ، وهو تصوير حياة أسرة أمريكية من الطبقة المتوسطة الصغيرة في بلدة أمريكية صغيرة . وأعضاء هذه الأسرة ثلاثة هم الأب (ريتشارد) ، وهو موظف دؤوب مستقيم تجاوز الأربعين مؤمن بكل الفضائل التقليدية ، وزوجته الجميلة الفاضلة المحبة له المتفانية في الإخلاص له (جيبي) ، وهي في نحو الخامسة

والثلاثين ، ثم ابنهما الغلام الذى يدرس فى المدرسة الثانوية وقد اقترب فى دراسته من إتمام شهادة البكالوريا .

غير أن هذه الأسرة الصغيرة النموذجية ، لأنها نموذجية ، وقعت فى حبائل النظام الاقتصادى الاجتماعى الأمريكى كغيرها من ملايين الأسر ؛ فهى قد أقامت عمادها على أساس الاقتناء بالتقسيط المريح الذى بغيره ينهار الاقتصاد الأمريكى والصناعة الأمريكية . فالزوج قد اشتري فيلاً جميلة مريحة لها حديقة جميلة مريحة ، واشتري أثاثاً جميلاً مريحاً وسيارتين جميلتين مريحتين : إحداهما لشخصه ، والأخرى لزوجته ، كما اشتري كل الأدوات الكهربائية الازمة من ثلاجة ، وغسالة ، وتكيف .. إلخ ، مما تقدمه الصناعة الحديثة . كل ذلك اشتراه الزوج بالاتفاق مع زوجته على أساس التقسيط المريح . وبالتالي فأكثر دخله ، وهو دخل متوسط ، ينفق شهرياً في سداد أقساط البيت والسيارة والثلاجة والغسالة .. إلخ ، في اليوم الأول من كل شهر ، ثم يعيش الزوجان في صنيع شديد بقية الشهر . وقد دامت هذه الحالة سنوات وسنوات لأن كل ما يسدّد منه يبلى ولا بد من تجديده ، والفلسفة التي تقود هذه الأسرة الأمريكية المتوسطة ، كما تقود ملايين الأسر الأمريكية المتوسطة ، هي المحافظة على ما يسمونه «المراكز الاجتماعى» ، وعلى «المظهر المختار» بين الأقران والجيران والمعارف ، ولذا فهى تحتمل هذا الصنيع في صمت نبيل سنوات طوالاً يجدون أنها بلا نهاية في سبيل المظهر والمراكز . ولكن الغلام الوحيد يكبر ويصبح في ويقترب من دخول الجامعة

وتكتُر نفقات تعليمه ونفقاته الشخصية ، والأسرة حائرة في الأمر ، لأنها مهددة بسبب حياة الشظف التي تعيشها أن تتقطع تعليميه وتندفع به إلى العمل في سن باكر ، وهو مصدر شقاء عظيم للأب والأم . ثم إن حشائش الحديقة الماشرة ، كان الأب يشذ بها ويسيوها بالمقص سنوات وسنوات وهو الآن يتقدم في العمر ويحلم بماكينة كهربائية تسوى له حشائش حديقته الجميلة وتتوفر له عناء العمل اليدوي ، وهو لا يجد ثمن هذه الماكينة .

وفي لحظة من لحظات التشاكي المترن بين الزوج والزوجة من ضيق الحال والخزع على مستقبل ابنهما يتفقان على أنه لا حل لكل هذه المشاكل إلا أن تخرج الزوجة للعمل لتكسب بعض المال الذي يمكن ابن من الاستمرار في كلية ويرأيهمما بقصافة الحشائش الكهربائية ويدخل بعض الراحة على حياتهما اليومية . غير أن هذا يثير مشكلة من نوع جديد ، فالزوجة الجميلة الفاضلة الأنثية ، كأنها بنت من بنات الطبقة المتوسطة لا تتقن أى عمل من الأعمال لأن أسرتها نشأتها على أن تكون « سرت بيت » وأما للأطفال وكفى . وأخيراً يستقر رأيهمما على أن العمل الوحيد الذي تستطيع الزوجة القيام به هو أن تعمل كضييفة حيث لا تطلب من المرأة أية خبرات خاصة إلأحسن المظهر وحسن الاستقبال وآداب السائق ، وهذه كلها متوافرة في هذه الزوجة . ولا يحس بمعناه هذه الأسرة الداخلية إلا شاب صديق للأسرة اسمه جاك ، وهو مليونير بالوراثة ، ولكنه سكير متلاط لا يفقيه من

الشراب ، ويقضى حياته بين النوادى والنوادى الليلية ، وهو لكتة ماله لا يعرف للحياة طعمًا ولا معنى ، فحياته كلها يوم بلا غد ، يغلفها يأس يائس ، وهو يحاول أن يبدد هذا الصراع الكامل بالانغماس في المللادات وكثرة الترحال والسير سيرة العاطلين بالوراثة ، وهو أعزب بلا عمل ولا أمل . وربما كانت فيه بعض ملامح من الشذوذ الجنسي . وهو يقتني العشيقات ويهملهن كما يقتني الكرافات ويهملها . ومع ذلك لم يحاول أبدًا أن يغوى الزوجة جيني لأنه كان يحترمها ويحبها جدًا بريئًا لا يريد أن يفسده ، فهو عنده كل ما بي في مجتمعه الصاخب من ملامح الفضيلة الفطرية والبساطة الطبيعية . وكان لا يخفى عنها عواطفه الحقيقية بدون مبالغة ، ويقول لها دائمًا إنه عندما يموت سوف يترك لها في وصيته ثلاثة ملايين دولار ، فتكون دعابة لطيفة تسر بها جيني ويسر بها الزوج ريتشارد لأنهما يصرفانها على أنها من مزاج الكلام . وما إن ينصرف حتى يعود ريتشارد وجيني إلى التشاكي حول صنف الحياة وضرورة خروجها للعمل حتى تستقيم الأمور .

وفيها هنا في هذه الورطة تأتي زائرة غريبة في نحو الخمسين لتزور جيني في أثناء غياب زوجها في عمله ، وتقدم نفسها لها على أنها مسنز كريكيت . وتبليأ مسنز كريكيت كلامها بقولها إنها عرفت أن جيني تبحث عن عمل ، وإنها قد جاءت لتساعدها في ذلك . وتذهل جيني لأنها لم تفصح لأحد بمناعتها أو نوایتها . فتطمئنها مسنز كريكيت بقولها إنها تعرف كل شيء عن كل الناس بهذه مهنتها . إنها تعرف أن جيني

لا تتقن عملاً بالذات ، ولذا فهي تستطيع أن ترتب لها أن تعمل كمضيفة وسوف تجد أنه عمل مجز . ومسز كريكيت امرأة عملية باردة الصوت حاسمة العبارات والنبرات ، ودائماً تدخل مباشرة في الموضوع . وتخرج من حقيقة يدها رزمة من البنوكوت ، ألف دولار ، قائلة : خذى هذه دفعة أولى تحت الحساب . وتحار جيني فيها تسمع وما ترى ، وتحملنى في رزمة الدولارات . ما هذا ؟ ما كل هذا ؟ أى عمل هذا الذى يدار كل هذا المال ؟ إنها تشبه فى مقاصد هذه المرأة الغريبة الصارمة الملامح والعبارات . وترفض طبعاً أن تأخذ الدولارات . لابد أن هذه المرأة تنصب لها فخاً . ولكن المرأة تلعن وتضع الدولارات فى يد جيني المذهولة قائلة :

خذى هذا . سوف تحل كل مشاكلك . العمل بسيط . سوف تعاملين كمضيفة عندي . أربع مرات فى الأسبوع . كل مرة سيكون أجرك مائى دولار . يعني ثمانمائة دولار فى الأسبوع ، يعني أكثر من ثلاثة آلاف دولار فى الشهر . وقد تصل بالتقسيط إلى خمسة آلاف دولار إذا سر الزبائن من خدمتك . ما هي مواعيد عمل زوجك ؟ وتحبيب جيني ذاهلة : كل يوم وينخرج فى الثامنة صباحاً ويعود فى السابعة مساء . فتقول مسز كريكيت : عظيم . عظيم . عملك من الثالثة للسادسة أربعة أيام فى الأسبوع . وتسأل جيني فى حدة : برغم ذهولها أى عمل هذا ؟ فتجيبها مسز كريكيت : أنت لست وحدك . عندي مضيقات كثيرات . تأتين إلى بيتي فى المواعيد المحددة . أنت جميلة

وشابة ومظهرك ممتاز . تستقبلين فرماً من الرجال . أنت تفهمهين . رجال سئموا زوجاتهم . رجال أعمال على سفر . رجال يشتكون من الوحدة . ولكنهم جميعاً ظفاء .. مهذبون . أنا لا يدخل بيتي إلا صفو الرجال ، وبعضهم كرماء للغاية ، إذا ارتاحوا إليك غمروك بالهدايا . يمكنك أن تبدئ العمل فوراً .

وتفهم جيني المطلوب منها : أن تعمل في بيت دعارة . وثور ثورة عارمة وتقذف بالدولارات في وجه مسز كريكيت فتبغيث على الأرض . وتطردتها شر طردة : خذى دولاراتك القدرة وآخر جي فوراً ، وإلا استدعيني البوليس ولكن المرأة تنهض في هدوء وتقول في صوت بارد : سأهضي . على كل حال فكري في الأمر . هذه بطاقة تحمل عنوانى . إذا قررت .. وتقذف جيني ببطاقة في سلة المهملات وتصرخ في هيستيريا : اخر جي فوراً أيتها القدرة . اخر جي . وتنصرف مسز كريكيت . وترنح جيني ذول ما سمعت . ثم تسترد هدوءها درجة درجة . ثم تنهنى على الأرض وتجمع الدولارات المبعثرة في كل مكان وترتها ثم تضعها في درج كوة ودينو مجاور . وهنا يدخل ابنها لحظة ثم ينصرف وهي تتأمله ساهمة ينتبهها الحب والحزن . ثم يدق جرس الباب فإذا به ساع يقدم كبيالة من الكمباليات التقليدية التي تأكل دخل الأسرة في كل شهر . وبعد أن ينصرف نرى جيني تمشي جيئة وذهاباً وهي في حالة من الذهاب الشديد . ثم تميل على سلة المهملات وتلتقط منها بطاقة مسز كريكيت وتحفظها في حقيبة يدها .

وتمر شهور ، وتبعدو الأسرة أكثُر رخاء وأقل توتراً ، بل تبدو أعظم سعادة : الزوج مقبل على زوجته يغمرها بالحب والحنان والزوجة مقبلة على زوجها تغمره بالحب والحنان . لقد اختفت متابعة الأسرة منذ أن بدأت جيني تعمل « كضيفة » والابن (روجر) دخل الكلية في القسم الداخلي وهو الآن يقضى العطلة مع والديه . ويأتي ساعي البريد ليسلم للزوج ريتشارد ظرفاً مسجلاً ما إن يفتحه حتى يجد بداخله رزمة بخمسة آلاف دولار . ويدهش ريتشارد ، فليس هناك خطاب وليس هناك تفسير لهذه الرسالة ، بل ليس هناك عنوان من مرسل . وتقول جيني لا شك أنها هدية من صديق . إن ريتشارد لا يعرف صديقاً يمكن أن يهدى إليه مثل هذا المبلغ الطائل . إذن لا شك أنها مكافأة من رجل أصدقائه إلهي ريتشارد صنيعاً كبيراً ولكن ريتشارد لا يذكر أنه سدى لأحد صنيعاً كبيراً . لا شك أن هناك خطأ ما . لا ليس هناك خطأ ما فالظرف يحمل اسمه ومع اسمه عنوانه ، وهو ليس عنوان شخص آخر يحمل الاسم نفسه . إنه حائز ، إنه يكاد يجن من الحيرة ، لسوف يعيد المبلغ إلى مصلحة البريد أو يسلمه إلى البوليس ، وتقول جيني : هذه تكون حماقة . فالمال في يده ، وكل شيء يدل على أنه موجه له . أياً كان التفسير فالمال ملك له . لكم كانا يتمنيان أن يقيها حفلة كوكتيل يدعوان إليها جيرانهما الوجهاء مسieur فلان وزوجته ، ومسيطير فلان وزوجته ومسطير فلان وزوجته . ألم يكن يتمنى أن يرى أقرانه حديثته الجميلة والخازون الجميل الذي يتعب في تصفييقه كل يوم أحد بعد أن اشتري

قصاصاته الكهربائية؟ ها هي ذى الفرصة قد ستحت وهو يريد إضااعتها . ودرجة درجة يقتضي ريتشارد وتغمره الفرحة . إن زوجته على حق . ماذا يهم من أين جاءت النقود أو لماذا؟ إنها الآن في يده وهي ملك له . لسوف يقيم حفلة الكوكتيل التي طالما تمنى أن يقيمهها ويدعى لها الحبران والأصدقاء . وهو اليوم يدعوهם بالفعل . فيلبون دعوته ، ويأمر باليوسكى والحن والفرموم وكل أنواع الشراب ، فتجيء ، استعداداً لحفلة المساء . ومع ذلك تعود إليه الحيرة القاتلة ، فيذهب يرهق زوجته بالأسئلة الحائرة ، وهى لا تعرف بماذا تجيب إلا أن تحاول صرف تفكيره عن الموضوع ، ويفتح ريتشارد درج الكودينو مصادفة بحثاً عن شيء فيقع بصره على أكdas من آلاف الدولارات مرتبة ومحبأة فيه؛ ويخرج من الحيرة إلى الأضطراب . ما هذا؟ من أين جاءت كل هذه الدولارات؟ لاشك أن في الأمر سراً خطيراً تعرفه جينى وتخفيه عنه . وتقول جينى إنها مكاسبها من عملها . غير معقول . أى عمل يمكن أن يعود عليها بكل هذه الآلاف . وتقول جينى في احتجاج وبراءة : ولكنني اشتغلت ستة أشهر ! ستة أشهر أو سنة أو ثلاثة . حال الحال أن تكسب مضيفة كل هذا المال؟ لا بد أن تكشف جينى له عن سر كل هذه الأموال . وأخيراً تعرف له جينى بالحقيقة . إن مسر كريكيت هي السبب . ولكنها تحبه . تعبده . لقد فعلت كل ذلك من أجله . ومن أجل ولدهما روجر ليتم تعليمه الجامعى .

ويصاب ريتشارد بهياج كهياج المجانين . ويصف جينى ثم يصفها

ثم يركلها، ويسبها بأفحش السباب: مومن . قدرة . يا للعار! وهي تتقبل كل ما يتزل بها صاغرة ، ولا تجد ما تقوله إلا أنها تحبه ، وأنها ظنت أنها بذلك تخل مشاكل الأسرة . وبعد أن يفرغ ريتشارد شحنة الغضب العارم ينهار على مقعد وينتخب كالأطفال . ووسط نشيجه يتحدث عن الطلاق . نعم . لا بد من الطلاق . وفيما هما كذلك يدخل ابنهما روجر لحظة ويشهد هذه العاصفة التي لا يفهم سببها . فينسحب . أو تأمره أمه بالانسحاب . ثم تستجتمع جيني قواها وتقول : فليكن . ولكن ليتم كل شيء في هدوء . غداً صباحاً نبدأ إجراءات الطلاق . أما هذا المساء فتمالك نفسك . إن الضيوف قد أوشكوا أن يصلوا . تمالك نفسك أمام روجر وإلا حطمه نهايةً .

ويهب ريتشارد من جديد عند ذكر القبيح ويرود إليه هياجه ، ولكنه لا يلبث أن يقتنع برأيها . سوف يتمالك نفسه جملة ساعات حتى يتصرف الضيوف . يا للعار ! بأى وجه يقابل الناس . بعد ذلك . ولكن غداً صباحاً سوف ينتهي كل شيء .

وسرعان ما يقبل الضيوف : ثلاثة رجال من وجهاء الحيرة ومعهم زوجاتهم الثلاث كلهن جميلات ورشيقات وأنيقات في أغلى ثياب . ويكون استقبال غريب احتاط فيه المرح المصطنع والعصبية الواضحة ويخرج بهم ريتشارد ليريح حدائقته الجميلة .

وفي أثناء غيابهم يدق جرس الباب ، وتكون مفاجأة ، لأنها مسز كريكيت . وتضطرب جيني وتتضرع لإيمانها أن تنصرف لأن باليت

زواراً ، ثم إن زوجها موجود . ولكن مسز كريكيت لا تحفل بتوصياتها بل تأخذ طريقها إلى مقعد وتحلّس في استقرار . إنها جاءت في أمر هام : لقد اكتشف البوليس أنها تدير منزلاً للدعارة ، وقد يكبسوه بين يوم وآخر ، ولا بد لها من أن تغير مقر عملياتها . وأنسب بيت وجدهه لذلك بيت مجاور لمحطة السكة الحديد ، وزوجها بحكم عمله هو الذي يملك أن يؤجره لها . فيجب إقناعه بذلك .

ويدخل ريتشارد وضيوفه بعد أن تفقدوا الحديقة ليجدوا مسز كريكيت . وتحاول جيني أن تسيطر على اضطرابها فتبدأ في تعريف الضيوف بمسز كريكيت ، ثم تكون المفاجأة الجديدة . إذا بمسز كريكيت تقول في لهجة متمهكمة : « كيف حالك يا برييل ؟ وأنت يا لويرز ، أرجو أن يكون الصفاء قد عاد بينك وبين زوجك ؟ أما أنت يا سنتيا ، فسأخصم منك مائة دولار لأنك تغييت عن عملك يوم الأربعاء . وهكذا ندرك أن العقiliات الثلاث يعملن مثل جيني في مشغل مسز كريكيت . ويحملق ريتشارد ذاهلاً ، فقد كان يتوقع أن تثور في بيته العواصف الزوجية حين يكتشف الأزواج الخذلوبونحقيقة زوجاتهم ، ولكنه يدرك أن الأزواج الثلاثة على علم بكل ما يدرى . وتعود إليه سخوة الرجال ويعود إلى هياجه فيسب كل النساء العاهرات والأزواج القوادين ، ويتهجم على مسز كريكيت ، ولكن رفاقه يهدئون من روعه ، وأخيراً يقول له أحدهم : أهداً يا ريتشارد . لا تحسب أننا نختلف عنك في شيء . لقد ثرنا مثلث حين اكتشفنا الحقيقة ، وكدنا

أن نقتل زوجاتنا ، ولكننا هدأنا بعد وقت ، وقبلنا الأمر الواقع ، ثم أفناده . إن الحياة صعبه كما تعلم ، والغلاء يشتد . كان علينا أن نختار بين السعادة والشرف فاختربنا السعادة . غداً تألف هذا الموضوع وتعاريش معه كما أفناده وتعاريشنا . أما الآن فلنفكر في حل مشكلة مسرز كريكيت لا بد أن نساعدها على تأجير المنزل بالحديد ، وإلا تعرضنا جميعاً للفضيحة .

ويسمع ريتشارد هذا الكلام في ذهول ، ولكنه يجد نفسه درجة درجة ينساق مع ضيوفه الثلاثة والنسوة الخمس إلى بحث هذا الموقف بالحديد في هدوء وإلى تدبير الحاول ماواجهته !

وفيما هم كذلك يدخل عليهم صديقهم الشاب المليونير السكير جاك ، وهو في حالة سكر بين لا يكاد يحفظ توازنه . وما إن يقع بصره على مسرز كريكيت ، حتى يوسعهما تهكمًا وهو ينظر نظرات العتاب إلى جيني . إنه لم يكن يتصور أن مسرز كريكيت يمكن أن تمد تخوم إمبراطوريتها بحيث تجعل امرأة فاضلة مثل جيني بين رعاياها . أما الآخريات فقد عرفهن في الفراش وهن يُرْبَنْ تقرزه . لقد كانت صدمة لجاك أن يرى مسرز كريكيت ملكة المواتير في لندن سابقاً ثم في عديد من مدن أمريكا ، في دار جيني . وينهض جاك . إنه عائد إلى ناديه حيث العاطلون بالوراثة سيئون للغاية ولكنهم أقل سوءاً من هذه العفن البورجوازي ، حيث المتطلعات والمتطلعون يضمرون بأبسط معانى الشرف من أجل « المركز الاجتماعي » .

ويصاب الجميع بذعر عظيم ، إن الشاب السكير جاك شاب طيب ،
ولكنه مخمور ، ولا يؤمن إن هو عاد إلى النادى أن يترثوا عمراًراه :
حفلة عائلية تجتمع فيها ملكة القوادة بالزوجات والأزواج
وتقول النسوة : امنعواه . ويتألب الرجال الأربع على جاك المترنح
ويماردونه على الكبنة ويجلسون عليه ليمنعوه من الحركة دقيقتين أو ثلاثة ،
ثم يتركونه ، فإذا ذراعه تسقط في استرخاء مد متقادم منه كركست
وتجسس بيضه برهة ثم تعلن : لقدمات ،

وفي خليط من الفزع والوجوم والحزن العميق على سوب جاك يقف
الجميع كالبله لا يعرفون ماذا يفعلون . في البيت جثة رجل ميت ،
ولا شك أن البوليس سيطرق الباب إذا لم يجدوا حلاً لهذا الإشكال .
ويقول ريتشارد رب البيت : إذا نحن ألقينا جثة جاك في الشارع
فسيظلون أنه خمور مات من فرط السكر ويتكفأون به . لقد كانت
حاته تدل على ذلك . ولاشك أن عشرات من الناس رأوه في النادي
يتزوج قبل مجيئه . وتقول ممز كريكيت : هذه فكرة نيرة ستدفع بنا
جميعاً إلى السجن . ألا تعلم أنهم سيشرعون الجثة لتحليل سبب الوفاة
ويكشفون انفجاراً في أوعية الرئة نتيجة الاسفيكسيا ، فيعرفون أنه مات
غنوقاً ، ولم يمت من التسمم الكحولي ؟ وتعود الحيرة والفزع وتتردد عبارات
واحدة : ما العمل ؟ ما العمل ؟ وهنا تقول ممز كريكيت بالهجة الآمر :
نال حفرة عميقه في الحديقة ، احماوه إليها في العلالم وأدفنه فيها ،
ثم انسوا الموضوع وتعالوا نتدبر مسألة تأجير البيت الجديد . ويحمل

الأربعة جثة جاك المسكين وينخرجون لهاها إلى الحديقة، ثم يرجون بعد دقائق ويأخذ كل مكانه على مقعده . وبعد صمت وجيز يقول ريتشارد : أليس هناك بيت آخر غير البيت المجاور للمحطة ؟ هناك صوبات . في تأجيره وهي كذلك وكذا ، وينتمس الجميع في مناقشة حول البيوت المناسبة والبيوت غير المناسبة

ويظهر بينهم شبح جاك وقد عاد من العالم الآخر ، ويقول مخاطباً الجمود : مسكنة جيني . لقد كنت شديد الإعجاب بها . وقد تركت لها في وصيتها ثلاثة ملايين دولار ، ولكنها للأسف لن تستطيع أن تحصل عليها قبل سبع سنوات . فالقانون ينص على أنه لا بد من انقضاء سبع سنوات على اختفاء الجثة قبل أن يدرج صاحبها رسمياً في عداد الأموات ، أما ريتشارد المسكين فقد كنت دائماً أعطف عليه لطبيته الشديدة وسط هذا العالم القاسي ، أما الآن فأنا لم أعد أخاف عليه من شيء . لقد تعلم كيف يعتني بنفسه .

وهكذا يعود كل شيء إلى مجراه في هذا البيت المنوذجي في هذه البلدة المنوذجية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث تؤدي مسر كريكيت وظيفتها الاجتماعية الخطيرة ، وهي حل مشاكل التطلع الطبيعي في مجتمع البورجوازية الصغيرة . وقد أثبتت مسر كريكيت حقاً أنها جذرية باسمها المضحك لأن لعبتها في الحياة هي أن تدفع بكل الكرات لتسقر في كل الحفر !

الفصل الثالث عشر

الزهرة السوداء

قرأت وأنا في باريس. أن مسرح دى تيرتر . في أعلى «نمارتر». يقدم عرضاً من «أغاني مالدورور ». .. للشاعر الفرنسي الرحيم لوتيامون ، ودفعني الفضول أن أرى كيف يقدم لوتيامون على المسرح . وهو شاعر غير مسرحي ولم يكتب فقط للمسرح . وعادت بي ذاكرتي إلى سنة ١٩٤١ . حين كنت أجلس مع المرحومين : روميسون يونان : وكمال التلمساني . في أحد استديوهات الفنانين في درب اللبانة بالقاعة ونقرأ «أغاني مالدورور » لواتريامون ، وتحمّث عنها وعنـه .. وكان لوتيامون قبلها ويومها وإلى يومنا هذا ، من شعراء الخاصة ، لا يقرؤـه إلا المثقفون . ليس فقط في مصر وحـادها ، ولكن في فرنسـا نفسها . وكان أكبر ازدهار لشهرته بين حلقات الشعراء الرمزيين ، مثل ألفريد جاري . وليون بول فارج . وفاليري لاربو ، ثم بين حلقات السير ياليـن . وكـذا يومئـذ نقرأ لوـتيـامـونـ فيـ الطـبعـةـ المشـهـورـةـ الـتـيـ صـدـرـتـ عـامـ ١٩٣٨ـ ، وـقـدـمـ لهاـ رسـوـلـ السـيـرـ يـالـيـةـ آنـدـريـهـ بـرـيـتونـ ، وـالمـثالـ العـظـيمـ ماـكـسـ إـرـنـسـتـ وـغـيرـهـماـ مـنـ قـادـةـ المـثـقـفـينـ فـيـ الـعـالـمـ .

وكان اليـومـ عـضـرـ يـوـمـ أـحـدـ ، وـذـهـبـتـ إـلـىـ مـسـرـحـ تـيـرـتـرـ ، فـوـجـدـتـهـ

مسرحاً صغيراً ، كسارح الجيب ، بجوار ساتندرائية الساكركير ولم يكن في القاعة إلا ثلاثة غيري .. وكان العرض « ساوو » . أى عرضاً منفرداً ، قدمه ممثل شاب في نحو الثلاثين ، اسمه كازالاس ، ذو موهبة فريدة في الإلقاء شغل خشبة المسرح بمفرده ساعة ونصف ساعة متصلة يؤدي أداء درامياً ترتيبه الخاص واختياراته الخاصة من أغاني مالدورور ، لا يساعد في ذلك إلا فقرات مسجلة من « وسيقى غريبة وبعض الفقرات المسجلة بصوت آخر يرتفع كالهيمس أو كالوحى أو كالفحيح في الخلائق ، ولا يساعد في ذلك إلا ماكياج لقناع الموت على وجه شاحب البياض شاحب الخضرة تحت ضوء البروجكتور وسط ظلام المسرح . ساعة ونصف من الشعر المنشور تعلقت فيها أنفاسنا لهذا الفيض من عذاب الشعراة الذين رأوا الشيطان رؤية العين فنسجوا من همسه درة سداد كفناها آلاء الرحمن .

وقد كان بودلير ، صاحب « أزهار الشر » ، احدهم . كذلك كان إيزيدور دوكاس ، ذلك الفن الغامض الغريب الأطوار الذي اختار أن يتخل لنفسه اسماء مستعارةً هو الكونت لوتيرامون ، استعاره من اسم شخصية في إحدى روايات أوجين سو (الكونت لاتيريرمون) . وفي حياته القصيرة التي لم تتجاوز ٢٤ عاماً ، (فقد ولد إيزيدور دوكاس بونيفيديو عاصمة أوروبا في ٤ أبريل ١٨٤٦ وتوفي في باريس في ٢٤ نوفمبر ١٨٧٠) لحق بركب الحالدين . وقد كتب لوتيرامون عن نفسه في النشيد الأول من « أغاني مالدورور » : « سوف تشهد نهاية القرن التاسع عشر ظهور شاعرها »

(ومع ذلك فهذا الشاعر لن يبدأ بنظم رائعة ولكنه سيتبع قانون الطبيعة) . وقد ولد هذا الشاعر على شطidan أمريكا في مصب نهر لا بلاتا ، هناك حيث يقيم شعبان ، كانا فيها مضى متناسفين ، وهما يجاهدان الآن ليوز كل منها الآخر في التقدم المادى والمعنوى . فيبونس أيريس ، ملكة الجنوب ، وونتفيديو اللعوب تصافحان عبر المياه الأرجنتينية على مصب نهر لا بلاتا » .

* * *

وواضح من هذا الكلام أن لوتيامون حين تنبأ لنفسه أنه سيصبح شاعر «نهاية القرن» إنما كان يتصور أن الأجل سيمتد به على الأقل إلى منتصف العمر ، ولكن المنية عاجلته في شrex الشباب في ظروف غامضة . فكل شيء كان غامضاً في حياة هذا الفتى الذي أتعجبت سيرته مؤرخي الأدب لخلوها من المعالم الواضحة ومن الدروب الواضحة ومن الصداقات أو الزمالات الواضحة التي تعين عادة على تتبع سير الشعراء . فكل ما نعرفه عن سيرة لوتيامون أنه كان ابن فرانسوا دوكاس قنصل فرنسا بالنيابة في مونتفيديو من زوجته الفرنسية جاكـيت دافراك ، وكلاهما من بلدة تارب جنوب مدينة بوردو بالقرب من البرانس الفرنسية . وقد كان الأب من قبل يعمل مدرساً في فرنسا ثم انتقل إلى سلوك السياسي في ظروف غير واضحة ، ولكن عقد الزواج يدل على أن الزواج تم قبل ولادة الطفل لميزيلدور (لوتيامون) بشهرين ، مما يشير إلى خطأ تورط فيه الأب فرانسوا دوكاس مع الآنسة جاكـيت وهم

بعد في تارب ، خطأً جعل الزواج قهرياً . وربما كان هذا هو سبب لجوء الأب إلى تغيير مجرى حياته جملة والتحقه بالسلوك السياسي ورحيله عن فرنسا إلى أمريكا اللاتينية عسى أن يتبع من مكان الفضيحة . وقد كان الأب يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره ، أما الأم فكانت في الخامسة والعشرين .

أما سجل الأب في مونتفيدو فليس فيه كثير معروف إلا أن رؤساه شهدوا له بالكافية وحسن معاشرة الناس ، وقيل عنه إنه كان يتنى خليلاته من بين المثلثات ، وإنه كان ذوقة للنساء وللأدب ، فقد كانت له مكتبة عامرة . وقد ماتت أم إيزيدور قبل أن يتم ستين من عمره ، وهكذا نشأ شبه يتيم في كفالة بعض قريباته ، وشب في مونتفيدو حتى سن الثالثة عشرة . ويبدو أن أسرة لوتيامون كانت أسرة من الشواذ لأن أحد الأطباء النفسيين كتب بحثاً في « مجاهة التحليل النفسي » التي تصدر في بيونس أيريوس عاصمة الأرجنتين يقول فيه إنه استطاع أن يستقصي في أسرة لوتيامون (دوكاس) أربع حالات من الاحتياز في مستشفى المجنين وحالتين من الانتحار وحالة واحدة من القتل .

وأول ما نسمع عنه بعد ذلك هو عودة الغلام إيزيدور إلى فرنسا ليتم تعليمه والتحقه بمدرسة تيفيل جوتية في تارب وهو في سن الثالثة عشرة ، ثم بمدرسة بو بالقرب من بوردو وبياريتز . وليس هناك ما يدل على أنه حصل منها على البكالوريا في ١٨٦٤ أو ١٨٦٥ شأن أقرانه (وقد كان منهم الماريشال فوش) . كذلك تعب الباحثون دون جادوى

في أن يجدوا لاسمه أثراً في جامعة باريس مما يوحى بأنه لم يبدأ تعليمه الجامعي . وكل ما عرف عنه في أثناء دراسته الثانوية أنه كان معتزلاً أخذانه منطويًا على نفسه غريب الأطوار شديد التعالي كثير الكآبة مستسلماً لأحلام اليقظة دائم الشكوى من الصداع الفظيع ، وكان يتحدث عن نفسه أحياناً على أنه « مريض بعقله ». ولم تبد عليه أية مواهب خاصة في الدراسة ، بل على العكس من ذلك كان من أوساط التلاميذ ، وإن بدا عليه اهتمام خاص بأدب سوفوكليس وراسين وكورناي وإدجار بوتيوفيل جوتبيه . وآخر ما نسمع به عن إقامته في مدرسة بوكان عام ١٨٦٥ تم تقطيع أخباره ثلاث سنوات حتى ١٨٦٨ حين نراه يظهر في باريس . ويبدو أنه قضى هذه السنوات الثلاث في تنفيديو .

* * *

ظهر أوتر يامون (إيزيدور دوكام) عام ١٨٦٧ أو ١٨٦٨ في باريس أدبياً ولم يظهر طالباً ، وكان عمره وقتئذ اثنين وعشرين سنة . وفي هذا العام نشر النشيد الأول من « أغاني مالدورور ». ويبدو أن أوتريامون حين هبط بباريس كان قد اتفق مع والده على أن يخترف الشاعر الأدب ، ربما وهو يتم دراسته في باريس . فمعروف أن أباه كان يجرى عليه معاشاً شهرياً عن طريق رجل يدعى داراس كان مديرًا لأحد البنوك ، ومعرف أن أوتريامون كان يتطلب من داراس هذا أو لا علاوة على معاشه لكي ينفقها على طبع النشيد الأول من « أغاني مالدورور ». وفي أواخر عام ١٨٦٨ اتفق أوتريامون مع ناشر مشهور اسمه لاكرروا مدير

« المكتبة الدولية » على نشر النشيد الثاني من « الأغاني » وهي دار نشر ذات فروع في باريس وبروكسل ولاريزيج وليفورنو ، عرفت بنشر الكتب الثورية والمنبودة والمصادرة ومن بينها بعض أعمال فكتور هييجو وأوجين سووبرودون وزولا . تم أمر لوتريرامون الناشر لاكرنافي أوائل ١٨٦٩ بمخطوط الأناشيد الستة متحممة ، وهي كل « أغاني مالدورور » ، على أن تطبع في أثناء الصيف في بروكسل على نفقة المؤلف الذي قدم ٤٠٠ فرنك بصفة عربون . ونعرف من أوصاف الناشر لأنكرناف صورة لوتريرامون عنده ، فهو قد « كان شاباً طويلاً فاحم الشعر أجرد الذقن شديد العصبية دؤوباً على العمل » ، لا يكتب إلا في أثناء الليل جالساً إلى البيانو يلتقي عباراته بصوت عال ، ويصوغ جمله صياغة الصائغ ، ويزن إيقاعها على إيقاع التواليف الموسيقية » . وهكذا طبعت الطبعة الأولى من « أغاني مالدورور » في بروكسل ، ولكن الناشر حجبها بعد طبعها فلم يوزعها على المكاتب ل天涯 على الجمجمة « لأن الحياة صورة فيها بأوان مريرة وأنه كان يخسى النائب العام » . وقد كان لهذه الصادمة أثر عميق في نفس لوتريرامون حتى إنه بدأ يعد بآلا يغنى في أشعاره القادمة إلا عن « الأمل » و « الصفاء » و « السعادة » و « الواجب » . ولكنه لم يعش ليتحقق شيئاً مما وعد به .

« أيها القارئ ! لعلك تريدين أن أبدأ فواتيحة هذا الكتاب بالكلام عن الحقد وليس سواه ؛ ومن أدراك أنك لا تشمئن أثر الكراهة ، وأنت سابع في شهوات بلا عدد وبغير حدود إلا ما يقر به فؤادك ،

تشتمش بخياشيمك المتغطرسة ، وهى واسعة ورقية ، وأنت تتقلب على بطنه فى الهواء الأسود الجميل شأن سمكة القرش ، كأنما أنت تدرك أهمية هذا الفعل ، بل أهمية شهوتك المشروعة ، تشتمش بعظامه وهادئه روايحة الشر الحمراء ! أيها الوحش ! إن هذه الروائح لتطرف لاشك خياشيمك الممسوحة فى خشمك البشع او أنك بادرت قبل ذلك وتنسخت ثلاثة آلاف مرة متعاقبة ضمير الكون الأزلي الرجيم

وهكذا منذ البداية تعرف رأى اوتريامون فى الكون والإنسان .

فضمير الكون ملعون رجيم . الحياة فى قلب الشيطان والشيطان فى قلب الكون ، والبعض يحكم الوجود . أهون نوع من تنافع البقاء وبقاء الأفسد؟ إنه أكثر من ذلك . إنه شهوة للشر وتلذذ من القسوة يذكرنا بفاسفة المركيز دى ساد .

من أجل هذا يتحدث اوتريامون عن صفحات كتابه قائلاً : « هذه الصفحات المظلمة التى تقطر سماً ». قال بانجاوس : « لم يعد للديانة المانوية أتباع » ، فأجاب مارتان : « أنا موجود » ! « إن اويامون مثل بودلير وفاوبيرز ، يعتقد أن التعبير الفنى عن الشر يتضمن أرق درجة من درجات الإحساس الأخلاقى ». هذا رأى ، ولعله رأى صائب ، لأن اكتشاف قوانين الكراهة التى تحكم الكون وعالم الأحياء ، وحياة الإنسان بدلاً من أن تحكمها قوانين الحب ، هو مصدر عذاب للشاعر . وهو يجد لذة في هذا العذاب كما يجد العاشق لذة في سعير الحب .

وبهذا نقترب من بعض ألوان الصوفية التي تجد أن الطريق إلى الفضيلة هو التطهر بالرذيلة ، وتجد أن الشك طريق الإيمان والتجديف طريق العشق الإلهي . وفي الديانة المانوية الله لا يحكم الكون وحده وإنما يحكمه معه الشيطان ، والظلمة تلازم النور والليل النهار طالما الكون كائن في صورته المادية . ولن يكون الكون نوراً على نور إلا في نهاية الزمن أو في الآخرة كما نقول نحن المؤمنين .

«سوف أبين في سطور كيف كان مالدورور خيراً في طفولته حين كان يحيا سعيداً ، وقد بینت . ومن بعد ذلك أدرك أنه ولد شريراً ويا له من قدر عجيب ! فأخفي طبعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً لسنوات وسنوات ، ولكنه في النهاية بسبب هذا الجهد المضني المضاد لطبيعته الذي بذله لإخفاء حقيقته ، وجد أن الدم يصعد إلى رأسه ، حتى تجاوز ذلك قدرته على الاحتمال . فانغمس في إصرار في حياة الشر .. فوجد الراحة في جوه النائم اللذيذ ! ومن ذا الذي يعقل هذا ! حين قبل مالدورور طفلًا صغيراً وردي الوجه . أحب أو أنه سلخ منه خديه بحد الموسى ، ولقد كان خليقاً بأن يفعل ذلك مراراً وتكراراً ، لو لا أن العدالة وما في ركابها العظيم من رسول القصاص ، أوقفته في كل مرة . ولم يكن مالدورور بالكذاب ، لذا كان يعرف بالحقيقة ويعلن أنه قاسي الفؤاد . أيها البشر ! هل سمعتم ؟ إنه يجسر على قوله المرة بعد المرة ، أن يسطرها بريشه الرائعة هذه ! فهي إذن قوة أقوى من الإرادة .. إنها لعنة ! وهل يستطيع الحجر أن يتحرر من قانون الجاذبية ! محال . محال أن

يحاول الشر الزواج من الخير . وهذا ما قلته لكم آنفأً .

* * *

« الإنسان خير بالطبع ». هذه هي القضية التي يناقشها الناس والأنبياء وال فلاسفة منذ الأزل . ومع ذلك فالرأيان فيها متعارضان حتى اليوم وفيها بينهما ظلال ، واوثر يامون يقول إن براءة الأطفال الملاذ الكيـة تخفي تحـمـها جـوـهـرـ الشـرـ المـلـازـمـ لـلـوـجـودـ الإـنـسـانـيـ . إن سقوط الإنسان قانون طبيعى كـمـاـنـونـ سـقـوـطـ الـأـجـسـامـ بـفـعـلـ الـجـاذـبـيةـ . وـمـقاـوـمةـ السـقـوـطـ هـىـ مـصـدـرـ شـقـاءـ الـإـنـسـانـ وـجـنـوـنـهـ . بل إن مجرد إخفـاءـ السـقـوـطـ هـوـ مـصـدـرـ شـقـاءـ الـإـنـسـانـ وـجـنـوـنـهـ . أـلـيـسـ هـذـاـ هوـ الـكـبـتـ وـآـثـارـهـ الـتـىـ نـقـرـأـ عـنـهـ كـثـيـرـاـ فـىـ عـلـمـ النـفـسـ ؟ـ وـالـخـلـ إـذـنـ ؟ـ أـنـ يـطـلـقـ الـإـنـسـانـ العـنـانـ لـغـرـائـزـهـ الـشـرـيرـةـ ؟ـ هـذـاـ جـحـيمـ ،ـ لـأـنـ رـسـلـ الـقـصـاصـ تـقـفـ دـائـماـ بـالـمـرـصـادـ .ـ أـنـ يـكـبـتـ الـإـنـسـانـ غـرـائـزـهـ الـشـرـيرـةـ ؛ـ هـذـاـ جـحـيمـ .ـ لـأـنـ بـمـثـابـةـ تـحدـ لـقـانـونـ الـأـجـسـامـ السـاقـطـةـ .ـ أـنـ يـسـقطـ فـيـ الرـذـيـلةـ وـأـنـ يـلـبـسـ قـنـاعـ الـفـضـيـلـةـ ؟ـ هـذـاـ مـاـ يـفـعـلـهـ النـاسـ .ـ وـزـوـاجـ الشـرـ مـنـ الخـيرـ رـيـاءـ .ـ ظـاهـرـهـ الطـهـارةـ وـبـاطـنـهـ خـدـاعـ الزـنـةـ .ـ

« عـقـدـتـ معـ الدـعـارـةـ حـلـافـاـ بـقـصـدـ نـشـرـ الـفـوـضـىـ دـاخـلـ الـأـسـرـ .ـ وـإـنـ لـأـذـكـرـ الـلـيـلـةـ السـالـفـةـ عـلـىـ لـيـلـةـ هـذـاـ الـحـلـفـ الـحـطـرـ .ـ رـأـيـتـ أـمـامـ قـبـراـ وـسـمـعـتـ فـرـاشـةـ النـورـ ،ـ طـائـرـ النـارـ ،ـ جـسـيـمـةـ كـمـاـ الدـارـ ،ـ تـقـولـ لـىـ :ـ (ـسـوـفـ أـضـىـ عـلـىـ الـطـرـيقـ)ـ .ـ اـقـرـأـ النـقـشـ .ـ هـذـاـ الـأـمـرـ السـامـىـ لـمـ يـصـدـرـ عـنـىـ)ـ وـاـنـتـشـرـ فـيـ الـهـوـاءـ إـلـىـ مـدـارـ الـأـفـقـ ضـمـوـنـ عـظـيمـ بـأـوـنـ الدـمـ ،ـ مـاـ إـنـ رـأـيـتـهـ

حتى اصطكَت أُسنانِي وسَهطَت ذراعَي هامدين . فاعتمدت على سور متهدم حتى لا أتهافت وقرأت : (هنا يرقد فتى مراهق مات بذات الرئة أنت تعرفون لماذا . لا تصاوا من أجله) . ربما غيري كثيرون ما كانوا ليجدوا شجاعة مثل شجاعتي . في هذه الأثناء جاءت امرأة جميلة عارية ونامت عند قدمي . قلت لها بوجه حزين : (يمكنك أن تنهضي) . ومددت لها يدي ، يد الأخ ذابح أخيه . وقالت لي فراشة النور : « خذ حجراً واقتليها » . قلت لها ، (ولم أقتلها ؟) قالت ، خذ حذرك أنت الأضعف لأنني أنا الأقوى . هذه المرأة العارية يسمونها الدعارة . وأغرورقت عيناي بالدموع واتقد في قلبي الغضب ، وأحسست بقوّة مجدهولة تولد في نفسي . وتناولت حجراً كبيراً ، وبعد جهد جهيد رفعته إلى مستوى صدرِي ثم وضعته بساعدِي على كتفي وصعدت جيلاً حتى قمت به ، ومن هناك سحقت فراشة النور ، فغاص في الأرض رأسها جسیماً بحجمِ رجل ، وارتدى الحجر على ارتفاع ست كنائس ، ثم هوى من جديد في بحيرة غارت مياها لحظة ودارت في دوامة حفرت مخرطاً عظيماً مقابباً . ثم عاد الهدوء إلى سطح الماء . ولم يعد الضوء الدامي يلمع بعد ذلك . وصاحت المرأة الجميلة العارية : (ويحك ! ماذا فعلت ؟) قلت لها : (أنت خير عندي من فراشة النور ، لأن بي رحمة بالتعساء . الذنب ليس ذنبي إذا كانت العدالة الأزلية قد خلقتك) . قالت لي : (في يوم من الأيام سوف ينصنفي الناس . لن أبوح لك بالمزيد ، والآردعني أمضى ، لأنني في قاع البحر أحزانى السرمدية . ليس في العالم

سواك والوحوش الشائهة التي تئن في قاع هذه المهاوية الظلاماء ، ليس سواكم من لا يختقرني ، أنت طيب القلب . وداعاً يا من أحبيتني) . قلت لها : (الوداع ثم الوداع ! الوداع ! لسوف أحبك ما حييت ! منذ اليوم سوف أهجر الفضيلة) . من أجل هذا أيتها الأمم ، حين تسمعين ريح الشتاء تئن على سطح البحر أو قرب شطآن ، أو فوق المدن الآهلة التي لبست منذ زمان على الحداد ، أو عبر فلوات القطب ذات الزمهرير ، قولى أيتها الأمم : هذا الذى يمشى ليس روح الله . إنه ليس إلا زفرات الفضيلة الذيبة اختلطت بزفرات هذا القادم من مونتييفيليو ، (وهي عميقة) . فيها أطفالى : أنا القائل لكم . هيا إذن ، اركعوا والرحمة تملأ قلوبكم ، ولبيتهل الناس وهم أكثر من القسم لاحصاء ، بمديد الصلاوات » . نحن هنا وفي كل مكان في عالم الشاعر بليك ، في عالم الفيلسوف نيشته ، في عالم النبي زارادشت ، فلننقل إن فراشة النور طائر النار ، هى الروح .. أو الروح القدس ، والشاعر حائز بين فراشة النور والحسد العاري ، الذى يسمونه في بعض الأدب الدينية بالمرأة القرمزية ، تجسيد الخطيئة . هو حائز بينهما لا يعرف أيهما يقتل . وأخيراً يتناول حجراً ويحاول أن يقتل فراشة النور . ولماذا هذا الاختيار ؟ لأن البغى الأبديّة تعرف بذاتها فهى ترقد عند قدميه وتخفى وجهها من العار ، أما الروح ، فراشة النور ، فتجبرة تريده أن تسحق . وطوبى للضعفاء كما قيل في القديم ، فلننقل إنها الجدلية ، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر . ولكن حين أراد الشاعر أن يقتل الروح ، الفراشة

المنيرة ، غاصت في الأرض كالأساس المتين وشمخت وتعالت حتى بلغت مقام الكاتدرائيات الباذحة ، أما الحجر فقد سقط في المياه التي ابتلعت دوامتها المرأة القرمزية ، وهكذا قتلت الروح الجسد . فوداعاً أيها الجسد الذي يحيي . صدوا عليه واستمطروا الرحمات .. ولكن السؤال الذي يطرحه اوتريامون في هذه المقطوعة : هل الله حقاً هو الذي أمر بذبح الجسد ؟

«أى أوقيانوس القديم ! أىها الأعزب العظيم ! عندما تحتاج وحدتك الحليلة ، وحدة مملكتك المترفة ، تزدهي بالحق كبرباء لروعتك الأصيلة ، ولدائحي التي أنظمها في بهائك .. ليت أن جلال البشر لم يكن إلا تجسيداً لظل جلالك .. إني لا أطلب شيئاً عزيزاً ، وهذه الأمينة الصادقة تمجيد لك . فجلالك المعنى ، وهو صورة الأبدية ، عظيم كتأمل الفيلسوف ، عظيم كغرام المرأة ، عظيم كالبهاء الإلهي في صورة الطير ، عظيم كخواطر الشعراء ، أنت أجمل من الليل ! أىها المحيط ، أجبني ، أتريد أن تكون شقيقي ؟ إذن فتحرك في جموح .. في جموح أعظم وأعظم او أردت أن أقارنك بالانتقام الإلهي ، امدد مخالبك الزرقاء واحفر بها على صدرك طريقاً . هذا جميل أبسط أمواجك الفضيعية أىها المحيط الفضيع الذي لا يفهمه أحد سوى . هأنذا أتهافت أمامك راركع على ركبتي .. «أى أوقيانوس القديم ذا الأمواج الباورية .. عيناي ابتلتا بالدموع المدرار ، منهك أنا – ولم أعد أتحمل أن أتعقب خطاك ، فإنما أحس بأن أوان عودتي إلى البشر الأفظاظ قد جاء . ولكن

فانتجمل بالشجاعة . فلنتحامل على أنفسنا ولنتحقق قدرنا على الأرض يلهمتنا الإحساس بالواجب ، وسلاماً أيها المحيط القديم » .

كانوا في قمة الحركة الرومانسية يسمون هذا مذهب الحال ، ورثه الشعراء الأوروبيون عن الفيلسوف سبينوزا الهولندي وعن سانكبور في فرنسا ، أو ما يسمى بوحدة الوجود . الله حال في الكون ، وما في الجهة غير الله كما كان الحال يقول : اقرأ مقطوعة : « سالت العباب » في صوفيات النفرى ، ونظائرها في السهر وردى المقتول ، وفي ابن عربي . تجد بذور الفكر الرومانسى قد أينعت من قبل في تراثنا العظيم ، وكان لها شهادتها . إنه ليس زواج البخنة والجهنم ، كما كان بليك يقول ، لأن الزواج يتضمن الأزدواج السابق أو الانشطار السابق ، أما هذا الذى نواجهه فهو معادلة جديدة قديمة فيها الله مساوٍ للكون وروح الله مساوية لروح الكون ، حيث لا جوامد ولا أشياء صماء ، حيث روح الجبل وروح المحيط وروح الغابة وكل هذه الأشياء أجزاء من الروح الأعظم . وفي مثل هذا الوجودان (أو لعله الوجد !) يناجي الإنسان الجبل والمحيط بقوله : يا أشقاء ويناجي الإنسان الغابة بقوله : يا أختاه ! هنا الروحانية والحسدانية شيء واحد . أو كما كان سبينوزا يقول في كتابه : « الأخلاق » « الله هو مجموع الذكاء الموزع في أرجاء الكون » أو كما كان يقول : الله بالنسبة للكون هو مجموع زوايا المثلث بالنسبة للمثلث : لا مثلث موجود إلا ولازمه قانون ٢ ق . ولكن سبينوزا كان فيلسوفاً وليس شاعراً فهو يتكلم عن العقل الإلهي المثبت في أرجاء الكون ،

أما لوتردامون فهو شاعر ولذا يتحدثنا عن الروح الإلامية المبثوثة في أركان الكون . ترى أى الماردین أعظم ؟ الإنسان أم الخليط ؟

وعلى كل فها هذه إلا شذرات من إيمان لوتردامون ومن تجدريفه كالها جاءت من النشيد الأول من « أغاني مالدورور »، وبقيت خمسة أناشيد . جلست ساعة ونصف ساعة أستمع لمحات الممثل أندريل كازالاس معلق الأنفاس وكأنه ينشد لي وحدي . وبعد العرض زرته في الكواليس لأهنه . وبعد أن أزال أصبعاه ومساحيقه خرجنا «عاً» وعدنا إلى الحى اللاتيني . قلت : « يخيل إلى أنى سبق أن رأيتاك على المسرح » فأجاب : « ربما . أنا مثلت من قبل في (تيمون الأثيني) لشكسبير ، وفي (ميديا) لسينيكا على مسرح الأوديون ، وفي (انتصار العاطفة) بلوته في أفينيون وفي الأوديون ، وفي (مجمع الحب) لأوسکو بانيتزافي مسرح باريس ، وفي (لعبة المذبح) ليونسكو وفي (إسکوريال) بجيميلدرود ، وفي (مالك الحزين) لسترندبيرج وغيرها وغيرها . وعرفت أين رأيته من قبل . قاطعاً في تواضع شديد ، بل في خجل شديد ، فبدأ كذلك الشاعر الجزوئي جيرارد مانلي هو بكنز الذى كان وجهه يحمر خجلاً كلما رأى في الحديقة الخوخة تحمر في الريع ، وكأنه يرى رمز الخطيبة . فلنقل إن الفن - كالحب - خطيبة ، وكلما عظم الفن عظمت الخطيبة . وأهداى نسخته من « أغاني مالدورور ». قلت : « وداعاً ! ليتنا نلتقي في القاهرة ، فنحن أيضاً مثلكم ، بينما نفر يرتكبون معصية الفن العظيم » .

الفصل الرابع عشر

٥ أيام في روما

في عودي من باريس إلى القاهرة نزلت بروما حيث قضيت خمسة أيام ، قضيتها بين الآثار وفي المسارح وفي الأكاديمية المصرية مع صلاح كامل مدير الأكاديمية ومستشارنا الثقافي بروما وع أسرة أمريكية تحمل لي ودًّا كبيرا .

وكانت هذه زيارتي الثانية لروما . وفي الأولى زرت الفاتيكان وفي الثانية كانت لي جولة كل صباح بين الحرائب المرمرية المبثوثة في كل مكان حيث يعيش الأحياء . باحثًا عن الموقع الذي قتل فيه يوليوس قيصر—أشهر اغتيال في التاريخ — يشيرون إلى الفورم — سوق روما القديمة — حيث تجاورت آثار الإدارات الحكومية والمحاكم النيابية والمحاكم ومعابد الآلة والمراكين وساحات الاجتماعات الشعبية الشهيرة وأقواس النصر ، هناك تحت الكابيتول حيث السناتو مجلس الشيوخ أو (البرلمان الروماني) وحيث جرت أفلام المؤرخين وكتاب المسرح أن مارك أنطونيوس هب رعاع روما وهو يخطب على جثة قيصر ويشعـل شرارة الحرب الأهلية . فاذهب إلى الفورم فيقال لي : لا ، ليس هنا . اذهب إلى كامبو دوليو . فاذهب إلى كامبو دوليو فلا أجـدـ اـوـحةـ أوـ أـثـراـ أوـ شـاهـداـ أوـ أـىـ شـئـ يـدلـ عـلـيـ مـقـتـلـ قـيـصـرـ . ويؤكـدـ لكـ النـاسـ أـنـ المـكـانـ القـدـيمـ مـطـهـورـ تـحـتـ الـبـيـوتـ والـكـنـائـسـ الـقـائـمةـ . ثم تفاجأـ بـمـرـشـدـ ثـالـثـ يـقـولـ : بل اذهب إلى

الحفائر في لارجو أرجنتينا . فهناك كان موقع السناتو القديم الذي قتل على درجه يوليوس قيصر . أما السناتو الذي رأيته في الفرم فقد بناه يوليوس قيصر ولم يعمر حتى يتم بناؤه وتأملت الأطلال المرمرية طويلا . ثم انصرفت أسفما لنفعن اليقين . قلت : ربما في زيارة قادمة أكون أكثر توفيقا في مناجاة أحجار روما القديمة . وفي الأكاديمية المصرية شاهدت عرضاً للفيلم التسجيلي «ينابيع الشمس »، الذي أخرجه المخرج فيني (تصوير حسن التلمساني) لحساب وزارة الثقافة المصرية ، وعرضآ آخر للفيلم التسجيلي « العجيبة الثامنة » الذي أخرجه حسين بيكار أيضاً لحساب وزارة الثقافة المصرية عن موضوع معبد «أبوسمبل»، باعتبار أن «أبوسمبل» أضاف إلى عجائب الدنيا السبع عجيبة ثامنة . ومع العرضين فاصل تمثيلي قصير كان عبارة عن مجموعة مونولوجات ألقاها الفنان الإيطالي ليغانو ستاتشيولى إلقاء منفرداً ، مونولوج أن نكون أو لا نكون ، من «هاملت شكسبير» ومونووج آخر من بيراندياو . ولو أني انتظرت يومين آخرين لشاهدت عرضاً لفيلم «المومياء» الذي أخرجه شادي عبد السلام لحساب وزارة الثقافة المصرية . كذلك كان هناك معرض لاثنين من الفنانين المصريين . وقد كان كل ما رأيت شرفاً لمصر في بلاد الفرنجية . الأكاديمية ومن فيها وما فيها .

وتصورت كيف أن هذه الأكاديمية يمكن أن تتحول إلى واجهة مشرفة ومركز ثقافي لفنون مصر وأدابها في العاصمة الإيطالية ، لو أن

صلاح كامل قدم كل مساء نشاطاً ثقافياً مصرياً من نفس المستوى في باب المسرح أو السينما أو الموسيقى والغناء أو المحاضرات العامة أو فيها يدخل في باب التبادل الثقافي . أما في النهار فقاعات العرض تتسع لوحات أربع فنانين تشكيليين في وقت واحد يمكن تغييرهم على مدار السنة مرة كل شهر . ولكنني وجدته حزيناً يفيض بالإحساس بالإحباط لأن يده مغاؤلة عن كل شيء . وبدت لي الأكاديمية كذلك بمحورات عظيمة من أرق طراز وقد صفت في واجهته العلب الأنique على خلفيات من أثواب القطيفة الفاخرة ، ولكن العلب للأسف خالية من الجواهرات . وجدت مدير الأكاديمية حزيناً لأن همومه كانت من نوع آخر غير ثقافي . فقد عرفت منه أنه اضطر لعقد السلف شهرياً ولمدة أربعة أشهر من بنك إيطالي لدفع مرتبات الموظفين المحليين الذين لم ترد اعتماداتهم في «الباب الأول» من الميزانية بأعنة المستخدمين والحسابات في الحكومة المصرية السعيدة . فمنذ انتقلت الولاية على الأكاديمية من وزارة التعليم العالي إلى وزارة الثقافة خفضت ميزانية الأكاديمية السنوية خارج الباب الأول دون سبب معروف من نحو عشرة آلاف جنيه إلى نحو خمسة آلاف جنيه ، وهي ميزانية المشروعات والمطبوعات وأجور الخدم وصاريف الإنارة والمياه والتليفون إلخ . وأولاً ما يتمتع به صلاح كامل في روما من هيبة شخصية ومن صلات ممتازة لقطعت الكهرباء والمياه والتليفون عن الأكاديمية ولا انصرف الباب وخدم النظافة والطبيخ والغسيل الذين ينحدرون أبناءنا الفنانين العشرة المقيمين في الأكاديمية لعدم صرف أجورهم ولأغلقت

الأكاديمية أبوابها وجلس موظفوها المعينون على الباب الأول في القهوة انتظاراً لأول السنة المالية القادمة . وقد استصرخ صلاح كامل واستنفر المسؤولين بالرسائل وبالبرقيات وبالمكالمات التليفونية ، ولكن دون جدوى وكان آخر استصرخ أعرفه رسالة حملني إياها إلى الدكتور عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء للثقافة والإعلام ، وقد حملت إليه الرسالة عند عودتي إلى مصر فأمر بحل جميع مشاكل الأكاديمية . فأرجو أن يكون الناس الذي فوق والناس الذي تحت من يسكنون كيس الدولة قد صدوا بأوامره أو وجدوا طريقاً لحل مشاكل الأكاديمية .

ووجدت مدير الأكاديمية قد حدد مهرجان افتتاحها شهر أبريل أو مايو ١٩٧٢ ، فنصحته بأن يؤجل الافتتاح إلى أكتوبر أو نوفمبر حتى يرتب أموره ، .. واقترحت عليه وعلى وزارة الثقافة أن يستغرق مهرجان الافتتاح أسبوعاً كاملاً بحيث تعرض في النهار صحفة لوحات فنانينا التشكيليين وتماثيلهم ، وينحصر المساء الأول لتقديم مسرحية لسنيةكا أو بحولدوني أو ليبرانديلاو على مسرح الأكاديمية تحية من مصر للفن الإيطالي ، والمساء الثاني لتقديم عمل من أعمال توفيق الحكيم بالإيطالية ، تحية من إيطاليا للفن المصري ، والمساء الثالث لتقديم نماذج مصرية من أobra « عايدة » لفيردي وغيرها وريستيال على البيانو لروري يسي وعلى الفيولونسيل لناجي الحبشي وغيرهما . والمساء الرابع لتقديم الفيلم المصري . والمساء الخامس لندوة ثقافية عن العلاقات المضمارية بين مصر وإيطاليا . والمساء السادس لندوة عن العلاقات

السياسية والاقتصادية بين مصر وإيطاليا . ولما عرفت من مذكرة الأكاديمية أن من الممكن دعوة رئيس الجمهورية الإيطالية في حفل الافتتاح اقتربت أن يرأس وفد مصر الرسمي الدكتور محمود فوزي الذي يعرف الإيطالية فيها سمعت ، وأن يرأس وفدها الثقافى توفيق الحكيم . وحين عرضت مقتراحى على الدكتور حاتم أبدى اهتماماً شديداً بها ، ولم يبق إلا أن نأمل أن تترجم هذه الأفكار إلى واقع . أليست هذه طريقة لتغيير صورة مصر في الخارج ؟

وبرغم الآثار وبرغم الأكاديمية وجدت الوقت لمشاهدة مسرحيتين بالإيطالية ، وأجريت لقاءين مع المخرجين دى سيكا ومونتالدو . وسعيت للقاء أنطونيني وفلليني وفيسيكونى وباسوليني وروسليني لأنقل لقراء «الأهرام» صورة عن مدارس الفن السينمائى ، ولكنى وجدتهم إما خارج إيطاليا وإما خارج روما . وكانت تجربتى مع دى سيكا غريبة فقد التقى به فى الاستوديو فى أثناء التصوير بين لقطتين ، وعبرت معه البلاط تحت الكاميرات والبروجيكتورات التى تعشى البصر وهرج الاستوديو إلى غرفته المادئة ، فوجدته يسير في اختيال كأحد القياصرة وقد تجمهرت من حوله نسوة جميلاًات في حالة من الهisteria ، هذه تقبله على خده وهذه تتعلق برقبته والثالثة تقول «مبروك» والرابعة تقول «رائع» .. ثم رأيت سيدة بارعة بالجمال ملائكة أنجباو سكسونية تجر طفلة في نحو الخامسة تقطع الطريق على دى سيكا وتقول إنها من أستراليا وإن ابنها وهو بة ولها مستعدة للامتحان في التمثيل . وقد حدد لها دى سيكا

صباح اليوم التالي للنظر في هذه الموهبة الجديدة .

وكان دى سيكا مرهقاً في أثناء لقائي معه فلم أجالسه إلا نصف ساعة وعرفت منه أنه عديم الخبرة الشخصية بالفيلم المصري ، ولكنه سمع ببعض ما يجرى عندنا من زميله روسيليني . وحين ناقشه في تجرب زملائه الجدد أنطونيني وفليني والباقين من أتباع ما يسمى بالموجة الجديدة كان شديد الأدب شديد الإطراء على الطريقة الإيطالية ففهمت أنه لا يقر منهاجمهم في الإخراج . فهذا ممتاز في كذا وذاك ممتاز في كذا .. أما الجوهر فقد كان يتتجنب الإشارة إليه في حرص شديد . قلت : باختصار أنت لاتزال مطمئناً إلى مدرستك الواقعية ؟ فضحك لأنه أدرك أنني أدركت ، وأخذ يدافع عن المدرسة الواقعية دفاعاً حاراً . وكنت دائماًأشكره من البطء وتفتیت الزمن في أفلام الموجة الجديدة دون تعويض تشكيلى فشكراً دى سيكا مما يسميه «الغموض » في عمل زملائه ، وهو ما يسميه زملاؤه المبرر النفسي .

أما مونتالدو صاحب الفيلم العظيم «ساكوروفنزيري » ، فقد بهرن بيساطته وثقافته وبإيمانه بأن في الحياة قضايا تستحق أن يدافع عنها الفنان من خلال الفن . وقد عرفت منه أنه يعد فيلماً عن حياة «جيورданو برونو » ، الفيلسوف والعالم الإيطالي (١٥٤٨ - ١٦٠٠) الذي أحرقه محاكم التفتيش لقوله بأن الأرض ليست في مركز الكون ولكنها في ركن مهمل من الفضاء . تأسيساً على نظرية كوبرنيك في الفلك ، ولأنه قال بضرورة الانسجام بين الروح والجسد وهاجم نظرية سحق الروح للجسد

التي تنادى بها بعض التفسيرات الدينية المحافظة ، كما قال بلا نهاية الكون وهو ما يشكل في أنه مخاوف ، وقد عاش حياته مطارداً بين جامعات إيطاليا وسويسرا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا حتى استدرج أخيراً إلى روما ، وهناك حكم بتهمة الزندقة وأحرق على الخازوق في كامبودي فيوري (ميدان الأزهار) بعد سبع سنوات من السجن .

أما فيلم «ساكو وفنتزي» فهو موضوع القضية الفظيعة التي هزت ضمير العالم في العشرينات من هذا القرن كما هزت قضية دريفوس ضمير العالم في القرن التاسع عشر . ففي ١٩٢٠ ارتكبت في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة بوسطن في أمريكا جريمة سرقة بالإكراه قتل فيها رجالان . وبعدها بأسابيع قبض البوليس على رجلين أحدهما اسمه ساكو وهو صانع أحذية والآخر اسمه فنتزي وهو باائع سمك ، وكلاهما من المهاجرين الإيطاليين ، وكان الاشتباه مؤسساً على أن سيارتهما تطابق أوصاف السيارة التي ارتكبت بها الجريمة وقد وجدوا معهما مسدساً من نفس العيار . وبرغم اضطراب شهادة شهود الإثبات وعدم كفاية أدلة الطب الشرعي تمت المحاكمة في جو من التوتر والإرهاب زادهما أن محامي المتهمين كان معروفاً بميوله الاشتراكية ، وربما كانت على ساكو وفنتزي أيضاً شبهة يسار ، وأن سكان ولاية ماساشوستس بصفة خاصة عرروا بعد أحدهم المتغصب ضد «الأجانب» ، وكان القاضي ، واسمته ثاير ، من غلاة المحافظين . وهذا كانت محاكمة ساكو وفنتزي محاكمة سياسية قبل أن تكون أي شيء آخر . وانتهت بإدانتهم والحكم عليهم بالإعدام . وقد جرت محاولة

لإعادة النظر في القضية استغرقت سنوات ، وثار الرأى العام في كل مكان في أمريكا وخارج أمريكا ضد هذا الحكم بإعدام الأبرياء وعمت المظاهرات في كل عواصم العالم تندد بالعدالة الأمريكية العرجاء وبالتعصب العنصري والعقائدي ولكن بدون جدوى . بل إن أحد الشركاء في الجريمة عليه وخز الضمير فسلم نفسه للبولييس معلناً أنه كان أحد من شاركوا في عملية السطو ، ومع ذلك لم يعتد باعترافه لأنه رفض أن يبوح باسم شركائه الحقيقيين . وقد قدم ساكو وفنتريتي التهائماً إلى محافظ ولاية ماساشوستس واسمه فولر بتخفيف حكم الإعدام إلى السجن المؤبد . وزارهما المحافظ في السجن وخرج من لقائه بهما في اضطراب شديد لأنه أحس بأحتمال براءتهما ، ولكنه برغم ذلك لم يخفف الحكم خوفاً على مستقبله السياسي . وفي ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ عند منتصف الليل تم إعدام ساكو وفنتريتي ، على الكرسي الكهربائي . ويروى أنهما قابلاً المنية إلى آخر لحظة بكرامة الرجال . قال فرانكайн روزفلت معيقاً : «إن هذه أكبر جريمة وحشية ارتكبها العدالة الإنسانية في القرن الذي نعيش فيه» وكتب الروائي الكبير جون دوس باسوس «نعم ، لقد انتصرتم ، ولكنكم شطّرتم أمريكا إلى معسكرين» . وكانت حكاية ساكو وفنتريتي محفورة في ذاكرني منذ أن كنت في الثانية عشرة من عمري . ومازالت أذكر والدى جالساً ونحن بعد في مدينة المنيا يقرأ في الجرائد المصرية وصف تنفيذ حكم الإعدام في ساكو وفنتريتي الذى طيرته وكالات الأنباء ودموعه تهدر على خديه . ولم نكن

نفهم سر انفعاله الشديد ونحن صبية ، فكان يشرح لنا كل ما قد جرى . ولعل هذه كانت أول صورة رسخت في ذهني عن « أمريكا » .

وفي لقائي مع مونتالدو لم يكن لنا الحديث إلا عن الالتزام في الفن وكيف يمكن للفن أن يتلزم بقضايا الإنسان بدون أن يتنازل عن مقاييس الفن أو يجعل من فنه دعوة مباشرة صانعاء لأية عقيدة من العقائد السياسية أو الاجتماعية . وكان واضحاً أن مونتالدو اشتراكي النزعة ومشرب بروح الدهومازم في وقت واحد . وكان يتمنى أن يزور مصر . قلت : ولماذا لا تجرب الإنتاج المشترك مع وزارة الثقافة المصرية ؟ هناك أرض مشتركة عريضة بيننا وبينك ، فأنت معاد للاستعمار ونحن معادون للاستعمار . قال : أي موضوع تقترح ؟ قلت : خذ مثلاً ملحمة قanal السويس منذ حفرها حتى تأسيسها ، فقد كانت نقطة احتكارك مباشر بين مصر والاستعمار . قال : هذا موضوع ممتاز لأسينيا ، وذهب يتحدث عما لقيه المصريون على يد أجانب مصر من الاستغلال الشنيع ، يتحدث وكأنه مصرى يعرف كل شيء ويحسن بكل شيء مما كان . وتحدث عن ثورة ١٩٥٣ حديث المتفهم لأسبابها ونتائجها . قال في عمق : لقد بالغتم في عدائكم لنا لأننا بالغنا في إذلالنا إياكم . كل هذا كان منطقياً . قلت : « في هذه الحالة تستطيع أن تتناول قصة قناة السويس من خلال أسرة أجنبية عاشت في مصر ثلاثة أجيال : جيل عاصر إسماعيل وجيل عاصر ثورة ١٩١٩ وجيل عاصر عبد الناصر ». قال : « غريب . إن هذا بالنص ما نصحي به باباً ونيرودا عندما كنا نبحث « موضوع فيلم عن

تاريخ شيلي وقناة بها مع الاستعمار الأجنبي .

وكنت أسمع عن مسرح إدواردو دي فيليبو فقررت أن أشاهد عرضاً من عروضه برغم أن معرفتي بالإيطالية طشاش بعد مضي ثلاثين سنة على تعلمي لها من دون استخدامها بأى معنى حقيقي . (ونفس الأمر بالنسبة للألمانية) . وكان الغرض الأول من هذه التجربة امتحان ذاكرتى لأعرف إن كان فى استطاعتى متابعة نص مسرحي يلى أمى بسرعة الكلام فى الحياة ، وإلى أى مدى تكون المتابعة . أما الغرض الثانى فكان امتحان المسرح نفسه : إلى أى مدى يستطيع الأداء التمثيل والحركة المسرحية والإخراج .. إلخ أن يحمل معنى النص إلى المشاهد الذى لا يعرف لغته . وقد كانت تجربة فريدة لأن ذاكرتى نجحت بنسبة ٢٥ في المائة أما المسرح فنجحت بنسبة ٥٠ في المائة ومعنى هذا أنى لو تابعت اللغة بنسبة نصفها لأتمكنى متابعة النص كلها بنسبة ١٠٠ في المائة اعتماداً على دلالات التمثيل والحركة والإخراج .

وسمعتهم يقولون فى روما لا تقل إدوارد ودى فيليبو . قل إدواردو فقط فليبس فى إيطاليا غير إدواردو واحد . هكذا كان إدواردو عظيماً فى نظر الناس ، عظيماً فى نظر النقاد ، وهو الآن وألسنوات مضت سيد المسرح الإيطالى بغير منازع منذ بيراندىلاو . وهو مؤلف وممثل معاً ، وقد أتىهم فى مرحلة من مراحل إنتاجه بالنسج على نول بيراندىلاو ولكنه فى الحقيقة مؤلف تقليدى ينتمى إلى مدرسة الكوميديا ديللاترى .

ومن أشهر مسرحياته « السحر الكبير » و« الرعب رقم واحد » و« هذه

الأشباح» و «الأصوات الداخلية» و «نابولي صاحبة الملارين» و «عيد الميلاد مع آل كوبيللو» ، و «فيلاومينا مارتورانو» . (وهى أساس «الزواج على الطريقة الإيطالية ») ، و «الكذب ذو الأرجل الطويلة » (وهى المسرحية التي شاهدتها) .

انظر إلى مسرحيته «السحر الكبير» «موضوعها حاجة الإنسان إلى الوهم : كالبيجير و دى سبلتا رجل شديد الغيرة على زوجته مارتا ، فهو لا يتركها تغيب عن بصره لحظة واحدة . لهذا فإن مارياني ، عشيق زوجته يماجأ إلى الحيلة لينفرد بمارتا . فهو يتفق مع الساحر أتو أن يجعل مارتا تختفي من بيت الزوجية بالسحر أو بالخلال جلا ، ويقودها إلى مارياني على أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة ولكنها بدلاً من أن تعود إلى زوجها بعد ربع ساعة نجدها ترحل مع مارياني إلى فنيسييا حيث يقيمان معاً أربع سنوات . وينزج الساحر مع الزوج كالبيجير و لاختفاء الزوجة ، ويؤكد له أن في استطاعته أن يستردها أو تخلى عن غيرته العدياء ووثق منها ثقة مطلقة . عندئذ سوف يرى زوجته تخرج أمامه من الصندوق صغير . وتكون مشكلة الساحر الحقيقة هي إقناع الزوج بأن الوقت ثابت لا يمر ، وأن السنوات الأربع لم تنقض على اختفاء زوجته . وينجح الساحر في إقناع كالبيجير و بأن الزمن توقف عن الحركة ، ويقاد ينجح أيضاً في إقناعه بأن مارتا لا تخونه . وفي اقتناع كالبيجير بتوقف الزمن يحاول أن يتوقف أيضاً عن الأكل والشرب فيرى الساحر أتو حاله ويقرر أن يعرف له بالحقيقة ، ويأمره أن يفتح الصندوق فإذا كان قد تخلص تماماً من شعوره .

وهنا تحدث المعجزة : تعود مارتا وتظهر أمامه في الوقت الذي يتأنب فيه كالبيجير وفتح الصندوق ، ولكن كالبيجير يعدل عن فتح الصندوق لأنه يعلم أنه لم يتخلص من شوكوكه تماماً . وهذا يرفض قبول زوجته مارتا لأنها ظهرت أمامه قبل أن يفتح الصندوق ، بمعنى أنها ظهرت أمامه قبل أن يتخلص من شوكوكه نهائياً . إنه يؤثر أن يحتفظ بالصندوق وهو مغلق .

وقد لاحظ الناقد الكبير أريك بنتلي في كتابه عن « المسرح الإيطالي » ، أن ما يقال عن تأثير إدوارد بييرانديلو في تصوير تداخل الوهم بالحقيقة قول غير صحيح . وعندما أن موضوع « السحر الكبير » ليس طبيعة الحقيقة ، على غرار ما نجد في بييرانديلو ، ولكن مجرد ثقة الأزواج في زوجاتهم .

أما « الرعب رقم واحد » الذي يعيش فيه الناس فهو الحرب العالمية الثالثة . وهذه حالة أسرة من أب هو ماتيو وابنته ، والأب يعيش في رعب من نشوب الحرب العالمية الثالثة إلى حد أنه لا يفتأ يرجل كل عمل وكل مشروع وكل قرار في حياته ، بما في ذلك زواج ابنته . وحين تيأس البنت وخطيبها من الأب وأحواله يتلقان على افتعال إذاعة كاذبة تعلن في الراديو أن الحرب العالمية الثالثة قد نشب فعلاً . وهنا نجد أم العريض تتدخل لرجل الزواج . لقد فقدت في الحرب العالمية الثانية زوجها وابنها الآخر وهي لا تريده أن تفقد ابنها الأخير في الحرب العالمية الثالثة ، ولذا فهي تحبس ابنها في غرفة صغيرة تطعمه فيها ما لذ وطاب

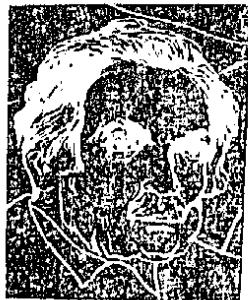
ولكنها طبعاً تحول دون خروجه لإتمام الزواج خشية أن ينتهي خروجه أيضاً بدخوله الجيش . ولكن هذه الكوميديا تنتهي نهاية سعيدة بظهور الحقيقة وهى أن الحرب العالمية الثالثة لم تنشب ويتم زفاف الخطيبين بعد ثلاثة فصول من الأوهام التي يعيش فيها الأب والأم . فكل منها يعنى من عاهة نفسية أو من جرح عميق يجمعه يختبئ في الأوهام ويتسلك بأسخف الآراء . وفي «الأصوات الداخلية» هناك رجل يستمع دائماً إلى إلهامه الباطني فقلبه دليله ، وكل شيء يدرك عنده بالحس . هذا الرجل يتهم أسرة من الأسر بأنها اشتراك في قتل أحد أصدقائه . ولكنه يكتشف فيها بعد أن هذا كان حلماً أو وهم ، لأن صديقه ما زال على قيد الحياة . أما الأسرة فلا تنفي التهمة لأن كل فرد فيها يعتقد أن أي فرد آخر في الأسرة كان يمكن أن يقتل ذلك الرجل .

وأوسع مسرحيات إدواردو شعبية هي مسرحية «فيلومينا مارتورانو» (١٩٤٦) وهي تدور حول موضوع رجل يهدى بغيضاً إلى طريق الفضيلة . والبغى فيلومينا جاءت من حالة نابولي ، وقد أنقذها من الفقر المدقع سريًّا من سراة نابولي يدعى دومينيكو سوريانو ، فقد عاشت معه سنوات عديدة . وعندما تجاوز دومينيكو الخمسين رأى أن يؤسس أسرة حقيقة ، وأن يتزوج بفتاة جميلة ، محتومة تصغره سنًا . وحين عرفت فيلومينا ذلك ادعت المرض وتماوتت وطلبت أن تزف إلى صاحبها دومينيكو وهي على فراش الموت ، فلم ير دومينيكو بأساً من ذلك . ولكن ما إن تمت مراسم الزفاف حتى نهضت فيلومينا من فراشها وهي في سعادة

غامرة ، وهنا أدرك دومينيكو أنه خدع . ولكننا نعلم أن فيلومينا لم ترتكب هذه الخديعة بداعم أناني وإنما لتعطى وضعًا شرعياً لأولادها الثلاثة الشبان . ويبدأ دومينيكو الغاضب باتخاذ الإجراءات القانونية لإبطال هذا الزواج الذي تم بالتحايل ، ولكن فيلومينا تخبره أن أحد هؤلاء الأبناء الثلاثة ابن منه ، دون أن تحدد أيهم ، لأنها ترفض التمييز في المعاملة بين أولادها . وهنا يقنع دومينيكو بأن زواجه من فيلومينا هو الأمر الطبيعي ، وينبذ فكرة البحث عن زوجة جديدة . ويكون قد نجح في إبطال الزواج بالتدليس ، ولكنه يعقد قرانه على فيلومينا من جديد بإرادته ويتبني أولادها الثلاثة .

هذه نبذة عن إدواردو دي فيليبو الممثل الكاتب صاحب فرقة إدواردو الشهيرة ، وهو الآن في الثانية والسبعين من عمره ، فقد ولد عام ١٩٠٠ ومع ذلك تراه على المسرح وتلقاه في الحياة فتجده في حيوية ابن الثلاثين . رأيت إدواردو على المسرح ، فرأيت معجزة . وأنا لا أعرف من اللغة الإيطالية ما يمكنني من الحكم على قيمة أعماله من الناحية الأدبية ، ولكن إذا أردت أن تعرف ماذا يفعل إدواردو على المسرح ، فلتذكر الريحانى بوجهه الخشن الملائم وجسمه الخشن البنيان ، لا تعرف أتسخر منه أم ترثى له ، لأنه حتى في وسط التهريج يهز وترأ في قلب الإنسان لأنه يمثل الإنسان الطيب المسحوق . ولكن إدواردو هو الريحانى مضر وباءً في ثلاثة ، الريحانى بغير جمهور ، الريحانى الغالب الذي يفرض غلاظته على النص والأداء . وأنا شخصياً لا أميل كثيراً لهذا النوع من الفن

المسرحي ، من كوميديا المواقف ، بل لا أميل إلى الكوميديا ديللارتي التي يقال ب وبالغة شديدة ل أنها تؤلف في أثناء التمثيل ، أى أن الممثل فيها مؤلف يكسو هيكلها العظمى بنسيج الحوار تبعاً للموقف ، لأنى أفضل المسرح الأدبي دائم القيمة على المسرح الفنى ، حيث المؤلف الممثل بمثابة أسطى أو صناعي ماهر فى فن المسرح ، ولا سيما فى الحركة والحوار اللاذع . و حين جلست نحو ساعة مع إدواردو العظيم أناقهه فى أصول فنه ، وجدته دائم الرجوع إلى اسم مولير ، كأنما مولير كان قيسه وهداه . و حرت ماذا أقول له : أى مولير يقصد ؟ مولير « سكابان » أم مولير « البخيل » و « النساء العلامات » و « البورجوازى النبيل » ؟



سلسلة (اقرأ)

الكتب التي نشرت فيها منذ
صدورها في يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القائمة

- ١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين) ٥٨ خاتمة المطاف (على البارم)
- ٦ شاعر ملوك (على البارم) ٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
- ١٢ سلوكي (د. محمد عوض محمد) ٦٢ مرح الوليد (على البارم)
- ١٤ من يوميات فتاة عصرية ٦٣ رقيق الأرض (نظمي اوفا)
(حسين شوقي) ٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الصناхи)
- ١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حتي) ٨٧ غادة رشيد (على البارم)
- ١٩ سيدة القصور (على البارم) ٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
- ٢٢ جحافى جانب ولاد ١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
(محمد فريد أبو حديد) ١٠٦ سجل التوبة (أمين الرحابي)
- ٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان) ١٠٨ سارة (عباس محمود العقاد)
- ٣٢ الشیخ قریر العین ١١٦ المحن الشرود (كرم ملجم كرم)
(كرم ملاجم كرم) ١٢١ عنقاء الأنجلس
- ٣٤ فارس بن حمدان : أبو فراش (أحمد الصاوي محمد)
الحمداني (على البارم) ١٢٢ أشطر من إبليس (محمد ديمور)
- ٤٤ عنترة بن شداد ١٢٩ زامر الحى (محمد ديمور)
(محمد فريد أبو حديد) ١٣٠ في بطون الليالي (رشاد دارغوث)
- ٥١ الشاعر الطموج : المتنبى ١٣٥ ليلي العفيفة (عادل الغضبان)
(على البارم) ١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

- ١٤١ بنت قسطنطين (سعید العریان) ٢٨١ خالدون في الوطن (ابراهيم المصري)
- ١٤٥ عيون مخصوصة (محمد ود كامل) ٢٨٣ دماء في الفجر (فاروق حلمي)
- ١٥٢ قلوب معذبة (قدرى قاعجى) ٢٨٤ عروسية على الرف (صوفى عبد الله)
- ١٥٣ دماء وطين (يجيى حقى) ٢٨٧ قصص من جوته
- ١٥٥ بنت يزيد (سامى الكيالى) (عبد الغفار مكاوى)
- ١٥٩ أجواء (حسن محمود) ٢٨٨ قصص الحب العربية
- ١٩٥ مصرع طاغية (حسن رشاد) (عبد الحميد إبراهيم محمد)
- ١٦٧ آنات الساقية ٢٨٩ البارونة أم أحمد (محمود تيمور)
- . (عبد الله القرشى) ٢٩٢ شيء عن الخوف (ثروت أباظة)
- ١٧٦ عودة المفقود (حسن رشاد) ٢٩٧ ابن السلطان (عبد الغفار مكاوى)
- ١٨٣ الثريا (كمال بسيونى) ٣٠٢ نشيد الكروان (طاهر الطناحي)
- ١٨٦ عاشقة نفسها (حسن رشاد) ٣١٣ عفراء : قصة الحب الحالى
- ١٩٥ محكمة الضمير (حسن رشاد) (فايد العمروسى)
- ١٩٩ عرس ومؤتم (البدوى الملايم) ٣١٥ أتعرف إليك (أحمد فؤاد تيمور)
- ٢٠٠ وطن أمام القضاء ٣٣٩ دوسن تولف كتاباً وقصص
- (فاضل السباعى) أخرى (فتحى رضوان)
- ٢٠٩ حال الدنيا (حسن رشاد) ٣٤٣ إنى صاعدة (حلمى سلام)
- ٢١٩ ثمن الكرامة (سلامة خاطر) ٣٤٤ الوادى السعيد (لويس عوض)
- ٢٣٤ حبة البرتقال (أحمد العناني) ٣٤٧ بنك القلق (توفيق الحكيم)
- ٢٣٨ قلب عذراء (ابراهيم المصري) ٣٥٠ دوع في عيون ضاحكة
- ٢٤٠ نفوس تتكلم (ودادس كاكيني) (يوسف جوهير)
- ٢٧٣ مذكرات طلبية (نوال السعداوي) ٣٥١ من أختلاء القضاة
- ٢٧٦ صناعة الشيطان (حسن رشاد) (حسن صالح الجداوى)
- ٢٧٨ يوسف الصديق (محمد طلبه رزق) ٣٥٢ عندما تحب المرأة (حلمى مراد)

الأدب

- ٢ شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة ٩٦ شيخ التكية (محمد عبدالله عزام)
 (عباس محمود العقاد) ١٠٢ من نافذة العقل
 ٤ عود على بدء (د. نقولا فياض)
 (إبراهيم عبد القادر المازني) ١٠٩ نديم الخفاء : الحسين بن مذكرات دجاجة الضحاك (عبدالستار أحمد فرج) ٨
 (د. إسحق وسى الحسينى) ١١٨ المعذبون في الأرض
 ١٣ جميل بشينة (عباس محمود العقاد) (د. طه حسين)
 ٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس) ١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم
 ٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين) (د. محمد سامي الدهان)
 ٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل ١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء وابن الأحنف (د. زكي مبارك) (توفيق الحكيم)
 ٣٣ في بيّ (عباس محمود العقاد) ١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
 ٤٧ أبو زيد الملائى ١٣١ أمين الرحىنى (فاروق عبود)
 (محمد فتحى عبد اللطيف) ١٤٧ مارس يحرق معداته
 ٤٩ بين البحر والصحراء (عيسى الناعورى)
 (شفيق جبرى) ١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد
 ٥٩ الجواري (د. جور عبد النور) وتيه وروالزيات وأبو حميدة والعريان
 ٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجرى) والشناوى (عباس خضر)
 ٧٦ ثم غربت الشمس ١٨٢ لمحات من الأدب الروسى
 (د. سمير القلماوى) (ماهر نسيم)
 ٨٣ من النافذة ١٩٣ دون جوان (لطفي عبد البديع)
 (إبراهيم عبد القادر المازني)

٢٤١

- ٢٠٣ القومية العربية في الأدب ٢٦٧ آخر كلمات العقاد (عباس العقاد)
الحاديـث (د. محمد ازغابـل سلام) ٢٩٨ ٤ كتب و ٤ كتاب
٢٢٠ الحب المثالي عند العرب (محمد بدر الدين خليل)
- ٢٢٦ النفس الإنسانية في أدب (د. شوقى ضيف)
الباحثـ (سامى الكـالـى) ٣٣٢ يوم بيوم (أنيس منصور)
- ٢٣٣ المرأة في شعر البحترى ٣٣٧ في اللغة والأدب
(د. نعمـات أـحمد فـؤـاد) (د. إبراهـيم بـهـوى مـذـكور)
- ٢٤٤ المـائـيل المـكـسـورـة (رجـاءـالـنـقاـشـ) ٣٤٢ صـرـاعـ الأـجيـالـ في أدـبـناـ المـعاـصـرـ
(غالـىـ شـكـرىـ)
- ٢٤٨ من الأدب الإفريقي
٢٥٩ مع العقاد (د. شوقى ضيف) ٣٤٦ ذكريـاتـ عـارـيةـ
(د. السيد أبو النجـاـ) (على أمـينـ)
- ٢٦٠ دعـاءـ (علىـ أمـينـ)

السير والترجم

- ٥ دـيـسـتـوـيـفـسـكـيـ (حسـنـ مـحـمـودـ) ٣١ الغـزـالـيـ (طـهـ عـبـدـ الـبـاقـيـ سـرـورـ)
- ٧ الشـاعـرـ الرـجـيمـ بـوـدـلـيـرـ جـوـتهـ (صـدـيقـ شـيـبـوبـ)
- ٤٢ قـصـةـ عـبـقـرـيـ: الـخـلـيلـ بـنـ أـحـمـدـ (عبدـ الرـحـمـنـ صـدـقـىـ)
- ١٥ باـيـرـونـ (أـمـيـنةـ السـعـيدـ) باـيـرـونـ (أـمـيـنةـ السـعـيدـ)
- ١٧ شـكـسـبـيرـ (مـ.ـ فـ.ـ أـبـوـ حـدـيدـ،ـ ٤٦ الشـيـخـ الرـئـيـسـ اـبـنـ سـيـنـاـ
- ٢٤ لـاـ فـواـزـيـهـ (عبدـ الـحـمـيـدـ يـونـسـ) تـشـيـخـوـفـ (نجـاتـيـ صـدـقـىـ)
- ٥٤ توـلـسـتـوـيـ (حسـنـ مـحـمـودـ) بوـشـكـينـ (نجـاتـيـ صـدـقـىـ)

- ٦٥ عمر بن عبد العزيز ١٢٧ شلي (أحمد الصاوي محمد)
 (أحمد زكي صفت)) ١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
- ٦٨ جمال الدين الأفغاني ١٤٠ عائشة بنت طالحة
 (كمال بسيون) (عبد القادر المغربي)
- ٧٠ الجبرى (خليل شيبوب) ١٤٢ بطل السندي و محمد بن القاسم
- ٧٢ فولتير (سليم سعده) (محمد عبد الغنى حسن)
- ٧٧ المغنى المجنون : كاروزو ١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)
 (أحمد الصاوي محمد) ١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة
- ٧٨ سقراط (على حافظ بهنسى) العادوية (وداد السكاكيي)
- ٧٩ بيرانديالر (محمد أمين حسونة) ١٦٢ مكسيم غوركى (نجاتى صدقى)
- ٨٢ فرانزليست (خليل هنداوي) ١٦٤ دانتى (مصطفى آل عيال)
- ٨٥ بيتهوفن (محمد فهمى أبوالنصر ١٧٢ المخترعون (أحمد طبل السنوى)
 وهدى حبيشة) ١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
- ٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد) ١٩٢ أدباء من الجزائر
- ٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (د. إبراهيم الكيلاني)
 (محمد محمد فياض) ١٩٧ جان جاك روسو
- ٩٩ نساء محاربات (صوفى عبدالله) (د. محمد سامي الدهان)
- ١١٢ مع طه حسين (سامى الكيلانى) ٢٠٤ فيكتور هوغو (د. جورج زايد)
- ١١٣ عبقرية الإمام ٢٠٧ الناصر صلاح الدين
 (عباس محمود العقاد) (د. محمد سامي الدهان)
- ١١٥ الإمام المراغى (أنور البختى) ٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعى
- ١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم) (محمد كامل حته)
- ١٢٥ الصديقة بنت الصديق ٢٣٢ أبو القاسم الشافى
 (رجاء النقاش) (عباس محمود العقاد)

- ٢٥٠ ابن حمديس الصقلی ٣٠١ مع طه حسين . الجزء الثاني
 (على مصطفى المصراتي) (سامي الكيالي)
- ٢٥٤ من أعلام الحرية في العالم العربي ٣٠٦ سلبيات في رحلة الحياة
 الحديث (أنور الجندي) (د. حسين فوزي)
- ٢٥٦ عشرة من الخالدين ٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز)
 (إبراهيم المصري) ٣٣٦ أيام خالدة في حياة عبد الناصر
- ٢٦٩ قاوب الخالدين (إبراهيم المصري) (د. جمال الدين العطيفي)
- ٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول ٣٤ محمد عبد الوهاب (محمود عوض)
 (د. علي حسني الخربوطلي) ٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوهم سياسية

- ٩ المذاهب السياسية المعاصرة ٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)
 (علي أدهم) ٢٧٤ المزاعم الصهيونية في فلسطين
- ٥٧ قضية فلسطين (محمد رفعت) (فتحى فوزي عبد المعطى)
- ١٠٧ تحرير وادي النيل ٢٧٥ الوحدة الإفريقية
 (محمود كامل الشناوى) (محمد أبوالفتوح الخطاط)
- ١٤٥ أخي المواطن (فتحى رضوان) ٢٩٥ فلسطين قلبعروبة
 (محمد فيصل عبد المنعم) ١٧ هذا الشرق العربي
 (فتحى رضوان) ٢٩٦ البرول العربي في المعركة
- ٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية (د. محمود أمين)
 (د. علي حسني الخربوطلي) ٣١٠ حوار مع برتراندراسل وسارتر
 (لطفي الخولي) ٢١٦ وحدة العرب
 (إبراهيم الدسوقي البساطى)

- ٣١١ حرب الأفيون
- (د . محمد مظہر سعید)
- (محمد العزب و سی) ٣١٩ في وجہہ إسرائیل
- ٣١٦ سجين ثورة ١٩١٩
- (إسماعيل صبری عبد الله)

علوم النفس

- ١٩ شفاء النفس (د. يوسف مراد) ٢٠٢ الإرهاق العصبي (نظمي خليل)
- ٨٠ الحب والكرابية ٢١٧ لكي تكون سعيداً
- (د . أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
- ٩٨ الخوف (د. أحمد فؤاد الأهوانى) ٢٢٩ الطريق إلى النجاح
- ١٣٣ النسيان (د. أحمد فؤاد الأهوانى) (عبد العزيز جادو)
- ١٣٧ سيكولوجية الجنس ٢٣٦ عاليم نفسك (د. كمال دسوقي)
- (د . يوسف مراد) ٢٥٧ أمراض نفسية (د. كمال دسوقي)
- ١٥٦ النوم والأرق ٢٦٦ النقاوص والنجاح
- (د . أحمد فؤاد الأهوانى) (ضياء الدين أبو الحب)
- ١٥٨ الغيرة (إبراهيم المصري) ٢٩٠ شخصيتك في الميزان
- ١٦٦ الأحلام والرؤى (د. عبد الكريم دهينة)
- (عبد العزيز جادو) ٣٠٧ قالت له
- ١٧٠ القلق (د . أبو مدین الشافعی) (محمد زکی عبد القادر)

علوم

- ١١ الكون العجيب ٣٦ مع الحياة
- (قدری حافظ طوقان) (د. حسين فرج زین الدين)
- ٢٩ النار والنور (أمين إبراهيم كحيل)

- ٣٨ العلم والحياة ١٣٢ البساط السحرى
 (د . علي مصطفى مشرقه)
 ٤٨ غرائز الحيوانات ١٤٩ بين البقاء والفناء
 (قىدى حافظ طوقان)
 ٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف) ١٥٤ أينشتين والعالم
 ٥٥ مع الأسماك (محمد عاطف البرقوقي)
 (د . حسين فرج زين الدين ١٧١ حرب الخamas
 (د . عبد الحليم منتصر) و هوى باسيليوس)
 ٦١ الموج الساحر ١٧٨ الصعود إلى المريخ
 (محمد عاطف البرقوقي)
 ٦٦ مملكة العذارى ١٨١ هجرة الحيوان
 (د . أحمد زكي أبو شادى)
 ٧٣ أسرار الحياة ١٨٥ الغبار الندى
 (د . محمد جمال الدين الفندي)
 (د . محمد جمال الدين الفندي)
 ٧٥ العيون في العلم ١٨٩ عصر الالكترونات
 (د . جورج وهبه العنفي)
 (قىدى حافظ طوقان) ١٩١ المزارات الزلزالية
 (محمد على المغربي)
 ٨٤ الوراثة والجنس (د . عبد الحليم منتصر)
 ٩٠ قصبة البترول ١٩٦ قوى الطبيعة في خدمتك
 (محمد جمال الدين الفندي)
 (يوسف مصطفى الحارونى) ١٩٨ الكلف الشمسي
 ٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠ (محمد على المغربي)
 (علي عبد الباللil راضى) ٢١٤ عصر التليفزيون
 ١٠٤ قصة العناصر (أميرى أحمد) (د . جورج وهبه العنفي)

- | | |
|--|--|
| <p>٢٤٩ عصر الطاقة الشمسية</p> <p>(د. جورج وهبه العنفي)</p> <p>٢٥٥ العالم الأخرى</p> <p>(د. محمد جمال الدين الفندي)</p> <p>٢٦٣ عجائب الأرض والسماء</p> <p>(د. محمد جمال الدين الفندي)</p> <p>٣٠٣ من عجائب الحياة</p> <p>(أوزي الشتوى)</p> | <p>٣٠٨ البحر والناس</p> <p>(د. سيد حسن شرف الدين)</p> <p>٣٣٤ ماذَا نستخرج من البرول</p> <p>(د. جورج وهبه العنفي)</p> <p>٣٤٥ مذكريات ذرة</p> <p>(عبد المحسن صالح)</p> |
|--|--|

جهوافيم ورحلات

- | | |
|---|--|
| <p>١٦ دمشق مدينة السحر والشعر</p> <p>(محمد كرد على)</p> <p>٢٧ بغداد مدينة السلام (طه الروى)</p> <p>(د. محمد محمد الصياد)</p> <p>٤٠ مهد العرب (د. عبدالوهاب عزام)</p> <p>٤٥ مشاهدات في الهند (أمينة السعيد)</p> <p>٦٩ رحلة الربيع (د. طه حسين)</p> <p>٨١ في بلاد النجاشي</p> <p>(د. مراد كامل)</p> | <p>١٧٣ الحزر الخضراء: أندونيسيا</p> <p>(حبيب جاماتى)</p> <p>١٧٧ صور من إفريقيا</p> <p>(د. عبد الوهاب عزام)</p> <p>٢٠٦ جولة في الإقليم الشمالي :</p> <p>سوريا (د. يوسف سماره)</p> <p>٢١٨ الشفق القطبي (محمد علي المغربي)</p> <p>٢٢٥ المجتمع العربي (محمد ود الشرقاوى)</p> <p>٢٣٠ الجغرافيون العرب</p> <p>(د. بنت الشاطئ)</p> <p>٣١٧ صور باريسية</p> <p>(يوسف فرنسيس)</p> <p>٣٢١ الإنسان الأوروبي في الجسد واللعبة</p> <p>(عبد السنوار الطاويلة)</p> |
|---|--|

طبع وصيحة

- ٢٥ قصة البنسلين ٢٢٧ الإنسان والمرض (د. أحمد مختار)
 (د . مصطفى عبد العزيز) ٢٣٧ باقة طبية (محمد كامل سند)
- ٤١ الفيتامينات ٢٣٩ أخطاء الأطباء (د. فائق الجوهري)
 (د . مصطفى عبد العزيز ٢٧٢ الجسد والميكروب
 و د . محمد رشاد الطوبى) (د . مصطفى عبد العزيز)
- ٤٤ قصة العدوى ٢٨٢ الصيدلة علم وفن وإنسانية
 (د . محمد عبد الحميم جوهر) (د . جورج وهبه العنفي)
- ٦٤ الأغذية الشعبية ٢٨٥ فيتامينات وهرمونات
 (د . محمد صدقى عبد الله) (حسن عبد السلام)
 ٧١ الهرمونات (د . فؤاد خليل) (د . محمد رشاد الطوبى)
 و د . نجيب البراشى)
- ١١٠ نحن المعمرون (حسن عبد السلام) ٢٨٦ الغذاء الكامل أساس الصحة
 (أسامة أمين العطار) (د . محمود محمد سلامة) ٢٩٩ التغذية ومحاطر الصناعة
- ١٤٦ هذا الإنسان (د. حبيب صادق) (د . أسامة أمين العطار)
 ١٨٠ ضعاف العقول (مترى أمين) ٣١٨ أسنانك وكيف تحافظ عليها
 ٢١٠ أمراض الصيف (د. أنيس فهمي) (د . فاروق مرشد)
 ٢٢٤ الأسنان : أمراضها وعاداتها ٣٣٦ النفس والبدن (د. إبراهيم فهمي)
 (د . حليم الكداونى)

تاریخ

- ٣٧ العناصر النفسية في سياسة العرب ١٩٠ المساجد والقصور بالأندلس
(شفيق جبرى) (د. السيد محمود عبد العزيز)
- ٥٣ قصة الكتابة العربية ٢١١ الفروضية العربية في العصر
الجاهلي (د. إبراهيم جمعة)
- ٨٦ الوعد الحق (د. طه حسين) (سيد حنفى)
- ٩٤ طرائف من التاريخ ٢١٣ الألعاب الأولمبية
(مصطفى الشهابي) (مصطفى الشهابي)
- ٩٥ من أصوات الماضي (سامي الكيالي) ٢١٥ قصة مملكة سبا
- ١٠٣ المهدى والمهدوية (د. أحمد أمين) (زاهر رياض)
- ١١١ الصعلكة والفتوة في الإسلام ٢٣١ صور من كفاح الشعب العربي
(د. أحمد أمين) (د. جمال الدين الرمادى)
- ١١٧ تيجان تهاوت ٢٤٧ البحر المتوسط بحيرة عربية
(محمد عبد الغنى حسن) (د. على حسنى الخربوطلى)
- ١٣٤ أساطير مصرية ٢٥٣ الصين والعرب عبر التاريخ
(د. عبد المنعم أبو بكر) (محمد محمود زيتون)
- ١٣٨ الجمعيات السرية (على أدهم) ٢٩١ الكعبة على مر العصور
- ١٤٤ ابن بطوطه . (د. على حسنى الخربوطلى)
(د. إبراهيم أحمد العدوى) ٢٩٣ معركة العلمين (السيد فرج)
- ١٧٩ السفارات الإسلامية إلى أوروبا ٣٢٢ قناة السويس في مائة عام
في العصور الوسطى (د. محمد عبد الرحمن برج)
(د. إبراهيم أحمد العدوى) ٣٣٠ أروى بنت اليمن (عارف تامر)
- ١٨٨ الثورة العرابية ٣٣٣ رسائل وأسرار (محمد التابعى)
(محمد عصام المرشدى)

اجماع

- ٨٨ المزود الحمر ٢٤٢ تعدد الزوجات لدى الشعوب
 (د. على عبد الواحد وافي) الإفريقية (د. محمود سلام زناتي)
- ١٠١ ملامح من المجتمع العربي ٢٦٢ بقایا كل شيء (أنيس منصور)
 (محمد عبد الغنى حسن) ٢٦٤ ٥٥ مشكلة حب
- ١٥٠ وعي الشباب (واصف البارودي) (د. مصطفى محمود)
 ١٦٠ حبات المسبيحة (يجي حق) ٢٧١ نماذج من النساء
- ١٦٩ عادات الزواج وشعائره (محمد زكي عبد القادر)
 (أحمد الشتناوى) ٢٧٩ مع الآخرين (أنيس منصور)
- ٢٢١ التصنيع طريقنا إلى القوة ٢٩٤ كوكب الإنسانية
 والرخاء (د. حسن الأشموني)
- ٢٢٢ الحياة المثالية وكيف تتحققها ٣٢٠ مذكرات زوج (أحمد بهجت)
 (م. أحمد حماد) ٣٢٩ وسائل إلى ولدى خالد
- ٢٢٨ التعبئة الروحية في بناء المجتمع
 (البدوى الملايم) (د. حسن الأشموني) ٢٤٨ نحو النور
- ٢٤١ نحو حياة مشرقة (محمد زكي عبد القادر)
 (عبد العزيز جادو)

محتويات الكتاب

٥	الباب الأول : رحلتي الروسية
٧	الفصل الأول : ١٠ أيام في يوغسلافيا
٢٣	الفصل الثاني : التجربة اليوجسلافية
٣٩	الفصل الثالث : مأساة يوغسلافية ، وملهاة روسية
٥٤	الفصل الرابع : موسكو ، مدينة القباب والأخلاق الفاضلة
٦٩	الفصل الخامس : رحلة في عقل « ساشاسخاروف »
٨٥	الباب الثاني : رحلتي الأمريكية
٨٧	الفصل السادس : أمريكا : كيف تراها ولا تراها
١٠٧	الفصل السابع : إمكانيات الحوار في المجتمع المصري
١٢٢	الفصل الثامن : مصر وما وراء البحار
١٣٩	الفصل التاسع : المسألة المصرية
١٥١	الباب الثالث : رحلتي الأوروبية
١٥٣	الفصل العاشر : مداولات ثقافية
١٦٦	الفصل الحادى عشر : ما كتب الجدید
١٨٥	الفصل الثاني عشر : في النساء والرجال
١٩٩	الفصل الثالث عشر : الزهرة السوداء
٢١٣	الفصل الرابع عشر : ٥ أيام في روما

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٢٧٨١ / ١٩٧٢
مطبوع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢

ss

